

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

ابن عجيبة

من سورة النمل إلى الأحزاب

#سورة النمل §#

@ { طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ } * { هُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ } * { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } * { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبِّئَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } * { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { طس } أي: يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس: " هو اسم من أسماء الله تعالى " ، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت: ولعلها مختصرة من اسمه " اللطيف والسميع ". وقيل إشارة إلى طهارة سر حبيبه. { تلك آيات القرآن } ، الإشارة إلى نفس السورة، وما في معنى الإشارة من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإيدان ببعده منزله في الفضل والشرف، أي: تلك السورة الكريمة التي تتلوها عليك هي آيات القرآن، المعروف بعلو الشأن. { و } آيات { كتاب عظيم الشأن } { مبين }؛ مظهر بما في تضاعفه من الحكم، والأحكام، وأحوال الآخرة، أو: مبين: مُفَرِّق بين الرشيد والغي، والحلال والحرام، أو: ظاهر الإعجاز، على أنه من: أبان، بمعنى بان، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخي والجواد.

ونكر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنما نكر الكتاب وعرفه في الحجر، وعرف القرآن ونكره في الحجر؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علما على المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفان له؛ لأنه يُقرأ ويكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف. قاله النسفي.

وما قيل من أهل الكتاب هو اللوح المحفوظ، وإبانتته أنه حُطَّ فيه ما هو كائن، لا يساعده إضافة الآيات إليه. والوصف بالهداية والبشارة في قوله: { هُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ } أي: حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين، فهما منصوبان على الحال، من الآيات، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل؛ للمبالغة، كأنهما نفس الهداية والبشارة، والعامل فيها ما في " تلك " من معنى الإشارة، أو خبر، أي: هي هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ إذ لا هداية لغيرهم بها.

{ الذين يقيمون الصلاة }؛ يُدِيمُونَ على إقامة فرائضها وسننها، ويحافظون على خشوعها وإتقانها، { ويؤتون الزكاة } أي: يؤدون زكاة أموالهم، { وهم بالآخرة هم يُوقنون } حق الإيقان. إما من جملة الموصول، وإما استئناف، كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم؛ لأن من تحمل مشاق العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب، أولاً، ثم عبودية آخر، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدّهم، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } أي: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا، وبما فيها من الثواب والعقاب، { زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ } الخبيثة، حيث جعلناها مشتبهة للطبع، محبوبة للنفس، حتى رأوها حسنة، كقوله: { أَقَمَنَ زَيْنًا لَهُ سُوءًا عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا } [فاطر: 8]، { فَمَنْ يَعْمَهُوْنَ }؛ يترددون في ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق. { أولئك الذين لهم سوء العذاب } في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر، { وهم في الآخرة هم الأخسرون }؛ أشدّ الناس خسراً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة، فخسروا ذلك مع خسران ثواب الله والنظر إليه. عائداً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: طس: طهر سرك أيها الإنسان، لتكون من أهل العيان، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار، وحينئذ تذوق أسرار القرآن والكتاب المبين، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين: فإنّ من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج النبوة بين كتفيه، كما في الخبر. ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال: { إن الذين لا يؤمنون بالآخرة... } إلخ، قال القشيري: أغشيناهم فهم لا يبصرون، وعمّيتنا عليهم المسالك، فهم عن الطريقة المثلى يصدون. أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون. { أولئك الذين لهم سوء العذاب } هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المبتلي، ولو وجدوه تحمل عنهم ثقله بخلاف المؤمنين. هـ.

@ { وَإِنَّكَ لَلتَّلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ }

قلت: (تَلَقَى): مبني للمفعول. والفاعل هو الله؛ لدلالة ما تقدم عليه، من قوله: { وإنه لتنزيل رب العالمين } (ولقى): يتعدى إلى واحد، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائباً فلقيه، فالمفعول الأول صار نائباً. و " القرآن " مفعول ثان، أي: وإنك ليلقيك الله القرآن.

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنَّكَ } يا محمد { لَلتَّلَقَى الْقُرْآنَ } أي: لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين { مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } أي: من عند أيّ حكيم وأيّ عليم، فالتنكير للتفخيم. وفي تفخيمه تفخيم لشان القرآن. وتنصيب على علو طبقته - عليه الصلاة والسلام - في معرفته، والإحاطة بما فيه من العلوم والحكم والأسرار، فإن من تلقى العلوم والحكم من الحكيم العليم يكون علماً في إتقان العلوم والحكم. والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة؛ لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، والإشعار بأن ما في القرآن من العلوم، منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية: في الآية رد على كفار قريش في قولهم: القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبي: الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأقايص، وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه، ومن آثار ذلك: قصة موسى { إذ قال لأهله... } إلخ. هـ.

الإشارة: قال أبو بكر بن طاهر: وإنك لتلقى القرآن من الحق حقيقية، وإن كنت تأخذه في الظاهر عن واسطة جبريل عليه السلام. قال تعالى:

{ الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ }

[الرحمن: 1، 2] هـ. قلت: العارفون بالله لا يسمعون القرآن إلا من لدن حكيم عليم، بلا واسطة، الواسطة محذوفة في نظرهم، فهم يسمعون من الله إلى الله، ويقرؤون بالله على الله، كما قال القائل: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة: قوله تعالى:

{ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ }

[القيامة: 28] وسمعت شيخي البوزيدي رضي الله عنه، يقول: لا يكون الإنسان من الراسخين في العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه، أي: يقرأ بالله ويسمعه من الله. والله تعالى أعلم.

@ { إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سآتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرًا وَآتِيكُمْ بِسِبْهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } * { فَلَمَّا جَاءَهَا يُودِي أَنْ بُورِكَ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } * { يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } * { وَالْقِصَّةَ لَمَّا رَأَاهَا تَهْتَّرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِيَا مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } * { إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: واذكر { إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ }؛ زوجته ومن معه، عند مسيره من مدين إلى مصر: { إِنِّي آنستُ } أي: أبصرتُ { نَارًا سآتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرًا } عن حال طريق التي ضل عنها. والسين للدلالة على نوع بُعد في المسافة، وتأكيد الوعد. { أو آتيكم بشهاب قبس } أي: شعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة. ومن نون فبدل، أو صفة، وعلى القراءتين فالمراد: تعيين المقصود الذي هو القبس، الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء؛ لأن من النار ما ليس بقبس، كالجمرة. وكلتا العديتين منه عليه السلام بطريق الظن، كما يُفصح عن ذلك ما في سورة طه، من صيغتي الترجي والترديد؛ لأن الراجي إذا قوي رجأؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه التخلف. وأتى بأو؛ لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معاً لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ولم يدر أنه ظافر بحاجته الكبرى، وهي عز الدنيا والآخرة.

واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين، والقصة واحدة، دليل على نقل الحديث بالمعنى، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج. قاله النسفي.

{ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ }؛ تستدفئون بالنار من البرد إذا أصابكم.

{ فلما جاءها } أي: النار التي أبصرها { تُودِي } من جانب الطور { أَنْ بُورِكَ } ، على أن " أن " مفسرة؛ لما في النداء من معنى القول. أو: بأن بُورك، على أنها مصدرية، وقيل: مخففة، ولا ضرر في فقدان الفصل بـ " لا " ، أو قد، أو السين، أو سوف؛ لأن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام، أي: أنه، أي: الأمر والشأن { بُورِكَ } أي: قدس، أو: جعل فيه البركة والخير، { مِّنَ النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا } أي: من في مكان النار، وهم الملائكة، { وَمِنْ حَوْلِهَا } أي: موسى عليه السلام، بإنزال الوحي عليه، الذي فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن: (بورك من في النار أي: فُدِّس من في النار، وهو الله تعالى) أي: نوره وسره، الذي قامت به الأشياء، من باب قيام المعاني بالأواني، أو: من قيام أسرار الذات بالأشياء، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها، ثم نَزَّه - سبحانه - ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد، فقال: { وسبحان الله } أي: تنزيهاً له عن الحلول في شيء، وهو { رب العالمين }.

ثم فسر نداءه، فقال: { يا موسى إنه } أي: الأمر والشأن { أنا الله العزيز الحكيم } أو: إنه، أي: مكلمك، الله العزيز الحكيم، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. { وألق عصاك } لتعلم معجزتها، فتانس بها، وهو عطف على (بورك) أي: نودي أن بورك وأن ألق عصاك. والمعني: قيل له: بورك من في النار، وقيل له: ألق عصاك، { فلما رآها تهتُّر }؛ تتحرك يمينا وشمالاً، { كأنها جَانُّ }؛ حية صغيرة { ولى } موسى { مُدْبِرًا } أي: أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره، خوفاً من وثوب الحية عليه، { ولم يُعَقِّبْ }؛ لم يرجع على عقبه، من: عَقَّبَ المقاتل: إذا كَرَّ بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعي، لا يتخلف، وليس في طوق البشر.

قال له تعالى: { يا موسى لا تخف } من غيري، ثقة بي، أو: لا تخف مطلقاً { إني لا يخاف لَدَيَّ المرسلون } أي: لا يخاف المرسلون عند خطابي إياهم، فإنهم مستغرقون في شهود الحق، لا يخطر بالهم خوف ولا غيره. وأما في غير أحوال الوحي؛ فهم أشد الناس خوفاً منه سبحانه، أو: لا يخافون من غيري، لأنهم لَدَيَّ في حفظي ورعايتي. { إلا من ظلم } أي: لكن من ظلم من غيرهم؛ لأن الأنبياء لا يَظلمون قط، فهو استثناء منقطع، استدرك به ما عسى يختلج في العقل، من نفي الخوف عن كلهم، مع أن منهم من فرط منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء - عليهم السلام - كما فرط من آدم، وموسى، وداود، وسليمان - عليهم السلام - فحسنت الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى - عليه السلام - ومن وكزه القبطي. وسماها ظلماً، كقوله عليه السلام في سورة القصص: { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ } [القصص: 16].

قال في الحاشية الفاسية: والظاهر في الاستثناء كونه متصلًا، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة، وإشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم، كما اتفق لموسى في مدافعة القبطي عن الإسرائيلي، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموماً، ولكن لما لم يُؤَدِّن له خصوصاً عُذ ذلك ظلماً وذنباً. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده، وإنما اتفق من غير قصد. هـ.

قوله: { ثم بَدَّلَ حُسْنًا بعد سُوءٍ } أي: أتبع زلته حسنة محلها، كالتوبة وشبهها، { فإني غفور رحيمٌ } أقبل توبته، وأغفر حوبته، وأرحمه، فأحقق أمنيته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقدم بعض إشارة الآية في سورة طه. وقوله تعالى: { أن بورك من في النار... } تقدم قول ابن عباس وغيره: أن المراد بمن في النار: نور الحق تعالى. قال بعض العلماء: كانت النار نوره تعالى، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. هـ. ومنه حديث: " حُجَّابُه النار، لو كشفه لأحرقت

سُبْحَاتُ وَجْهِهِ كُلِّ شَيْءٍ ادْرَكَهُ بَصَرُهُ " ، أي: حجابُه النور الذي تجلّى به في مظاهر خلقه، فالأواني حجب للمعاني، والمعاني هي أنوار الملكوت، الساترة لأسرار الجبروت، السارية في الأشياء.

وقال سعيد بن جبیر: (هي النار بعينها)، وهي إحدى حجب الله تعالى. ثم استدل بالحديث: " حجاب النار " ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجبت في مظاهر تجلياته، وهي كثيرة، ومن جملتها النار، فهي إحدى الحجب التي احتجبت الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

هو النور المحيط بكل كون
ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء في الذات، العارفون بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله.

@ { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتِ آلِا فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } * { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } * { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { وَأَدْخِلْ يَدَكَ } يا موسى { فِي جَيْبِكَ }؛ في جيب قميصك. والجيب: الفتح في الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبي: إنما أمره بذلك؛ لأنه كان عليه مدرعة صوف، لا كم لها. { تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ }؛ من غير آفة، كَبَرَصٍ وَنَحْوِهِ، { فِي تِسْعِ آيَاتٍ } أي: هاتان الآيتان في جملة تسع آيات، وهي الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والصفادع، والدم، والطمس، والجذب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم. ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحداً، ولم يعد الفلق؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله: { إِلَى فِرْعَوْنَ } متعلق بمحذوف، أي: مرسلًا، أو: ذاهبًا إلى فرعون { وَقَوْمِهِ } كانوا قوماً فاسقين {؛ خارجين عن أمر الله، كافرين به.

{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا }؛ معجزاتنا، وظهرت على يد موسى، حال كونها { مُبْصِرَةً }؛ بينة واضحة، وهي اسم فاعل، أطلق على المفعول، إشعاراً بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها؛ مبالغة في وضوحها، وإلا فهي مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو: ذات تبصر؛ لأنها تهدي من يتبصر بها. فلما جاءتهم { قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } واضح سحرته.

{ وَجَحَدُوا بِهَا } أي: كذبوا بها { و } { قَدْ } { اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ } أي: علمتها علماً يقيناً، فالاستيقان: أبلغ من الإيقان. يعني: أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم. { ظُلْمًا }؛ حال من ضمير (جحدوا) أي: ظالمين في ذلك، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند الله، وسماها سحراً بيناً، { وَعُلُوًّا }؛ تكبراً وترفعاً عن الإيمان بموسى عليه السلام، وهو أيضاً حال، أو: علة، { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } وهو الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة. نسأل الله العافية.

الإشارة: وأدخل يد فكرتك في جيب قلبك، تخرج بيضاء شعشعانية، يستولي شعاعها على وجود بشرتك، فتبخس البشرية تحت أنوار المعاني، ثم يستولي على الوجود بأسره، فيصير كله نوراً ملكوتياً، جبروتياً، متصلاً بالنور الأعظم، والبحر الطام، بعد قطع

مقامات التوبة، والتقوى، والإستقامة، والإخلاص، والصدق، والطمأنينة، والمراقبة والمحبة، والمشاهدة، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة، من آيات الله، يدل على الله، ويدعو إليه على بصيرة منه. فمن جردها انخرط في سلك من قال تعالى في حقه: { ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً... } الآية.

@ { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَا كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } * { وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ }

يقول الحق جل جلاله: { ولقد آتينا داوود وسليمان علماً } أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصناعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علماً لدنيا. { وقال } أي: كل واحد منهما، شكراً لما أوتيته من العلم: { الحمد لله الذي فضّلنا } بما آتانا من العلم { على كثير من عباده المؤمنين }. قال النسفي: وهنا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيته فشكر، وتقديره: آتيناها علماً، فعلا به، وعرفا حق النعمة فيه، وقال: { الحمد لله الذي فضّلنا على كثير }. والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضّلا على كثير، وفضل عليهما كثير.

وفي الآية دليل على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوام بما بُعِثُوا من أجله. وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمداوا الله تعالى على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إذا فضّل على كثير فقد فضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي الله عنه: (كلّ الناس أفقه من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين: علماء بالله وعلماء بأحكام الله. فالعلماء بالله هم العارفون به، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن، أعني علم القلوب، والعلماء بأحكام الله هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام الله ابتدئت درجة العلماء بالله. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن؛ لأن علم أهل الظاهر جله ظني، وعلم أهل الباطن عياني، ذوقي، وليس الخبر كالعيان، مع ما فاقوهم به من المجاهدة والمكابدة، ومقاساة مخالفة النفوس، وقطع المقامات، حتى ماتوا موتات، ثم حبيت أرواحهم، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول، وتكل عنه النقول.

ثم قال تعالى: { وورث سليمان داود }. ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر. وورثته للنبوة: انتقالها إليه بعد أبيه، وإلا فالنبوة لا تورث. { وقال يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } تشهيراً لنعمة الله، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير.

والمنطق: كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضاً. يُحكى أنه مرّ على بلب على شجرة، يحرك رأسه، ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف تمرّة فعلى الدنيا العفّاء.

وصاحت فاخنة، فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلقوا، وصاح طاووس، فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هُدهد، فقال: يقول: من لا يرحم لا يُرحم، وصاح صُرد - وهو طائر ضخم الرأس - فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين، وصاح طيطوي، فقال: يقول: كل حي ميت، وكل جديد بال. وصاح حُطّاف، فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاح قُمْرِيّ، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وصاحت رخمة، فقال: إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء أرضه وسماؤه.

وفي رواية: هدرت حمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى - مثل الرخمة - وقال: الغراب يدعو على العشار. والجدّاة تقول: كل شيء هالك إلا وجهه. والقطة تقول: من سكت سلّم، والبيغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم؛ عش ما شئت، أخرج الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع تقول: سبحان ربي القدوس. والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، المذكور في كل مكان. والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى. والقنب يقول: إلهي؛ العن مبغض آل محمد، عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها، وإنما خضّ الطير؛ لأنه معظم جنده.

ثم قال: { وأوتينا من كل شيء } أي: ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أوتي، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، كناية عن كثرة علمه. { إن هذا لهو الفضل } والإحسان من الله تعالى { المبين } أي: الواضح، الذي لا يخفى على أحد، أو: إن هذا الفضل الذي أوتيته هو الفضل المبين. على أنه عليه السلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبا سيّد وُلِدَ آدَمَ وَلَا فَخْرَ " أي: أقول هذا القول شكراً، لا فخراً، والنون في (عُلمنا) و(أوتينا) نون الواحد المطاع، وكان حينئذ ملكاً، فكلم أهل طاعته على الحالة التي كان عليها، وليس فيه تكبر ولا فخر؛ لعصمة الأنبياء من ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم بالله، على سبيل الذوق والكشف والوجدان، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل؛ لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها، وصغرت في جانبه، حتى إن صاحب العلم بالله يعد الاشتغال بطلب علم الرسوم بطالة وانحطاطاً، ومثله كمن عنده قناطر من الفضة، ثم وجد جبلاً من الإكسير، فهل يلتفت صاحب الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظراً لوجه الملك، كيف يلتفت إلى شيء سواه، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم، الذي نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمن العارف: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فما أدركت علم الحقيقة، سرطت ذلك كله، ولم يبق إلا التفسير والحديث، نتكلم فيه مع

أصحابنا. أو قريباً من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه:

أقارئنَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هُنَا البُحُورُ إِلَيَّ تَنبِي
هَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيدِ الوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّي
وهذا أمر بين عند أهل هذا الفن، وقال الورتجبي: العلم علمان: علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال: فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص، لم يطلع عليه إلا نبي أو ولي، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده، من المحبين العارفين والموحدين والصديقين، والأنبياء والمرسلين، انظر بقية كلامه.

وقال أيضاً في قوله: { عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } أفهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعاً هي خطابات من الله عز وجل للأنبياء والمرسلين، والعارفين والصديقين، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم. فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعياً. ويمكن أن يقع ذلك بوحى، لكن أكثر فهوم الأنبياء أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم، بما يقع في قلوبهم من إلهام الله، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها. هـ. قلت: وكذلك الأولياء يفهمون عنها ما يليق بمقاماتهم، من ألفاظ، أو أنس، أو إعلام، أو غير ذلك. والله تعالى أعلم.

@ { وَخَشِيرَ لِسَلِيمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمَّ يُورَعُونَ } * { حَتَّى إِذَا أَتَوْا
عَلَيَّا وَإِذِ التَّمَلُّ قَالَتْ تَمَلُّ يَا أَيُّهَا التَّمَلُّ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } * { فَتَبَسَّسَ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَا أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ }

قلت: { قالت نملة } التاء للوحدة، لا للتأنيث. قال الرضي: تكون التاء للفرق بين المذكر والمؤنث، وتكون لأحد الجنس، كنحلة ونحل، وثمره وثمر، وبطة وبط، ونملة ونمل، فيجوز أن تكون النملة مذكراً، والتاء للوحدة، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ. هـ. مختصراً. و(لا يحطمنكم): يحتمل أن يكون جواباً للأمر، أو: نهياً بدلاً من الأمر؛ لتقارب المعنى؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطم، فلا: ناهية، ومثله الحديث: " فليُمسك بِتَصَالِهَا، لا يعقر مسلماً " هـ.

يقول الحق جل جلاله: { وَخَشِيرَ لِسَلِيمَانَ } أي: جمع له { جنوده من الجن والإنس والطيور } بمباشرة مخاطبيه، فإنهم رؤساء مملكته، وعظماء دولته، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه؛ لأن الجن طائفة عاتية، وقبيلة طاغية، ماردة، بعيدة من الحشر والتسخير، { فهم يُورَعُونَ } أي: يحبس أوائلهم على أواخرهم، أي: يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم الثواني، فيكونوا مجتمعين، لا يختلف منهم أحد، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.

قال قتادة: فكان لكل صنف منهم وزعة. أو: لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر. والوزع: المنع، ومنه قول الحسن البصري، حين ولي القضاء: (لا بد للحاكم

من وزعة) أي: شُرط يمنعون الناس من الظلم، وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر، دون سوق أو آخرهم، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً؛ لأن أوآخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجو. قال محمد بن كعب: كان عسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم، فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء - عليهم السلام - على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها، حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، فتسير به مسيرة شهر، من الصباح إلى الرواح.

وَرُوي أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيِّره، فأوحى الله تعالى إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إني زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك. قال وهب: حدثني أبي: أن سليمان مرَّ بحرَّاثٍ، فقال: لقد أوتي آل داود مُلكاً عظيماً، فالتفت ونزل إلى الحرَّاث، فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسيحة واحدة يقبلها الله منك خير لك مما أوتي آل داود.

حتى إذا أتوا على واد النمل { أي: فساروا حتى بلغوا وادي النمل، وهو واد بالشام، كثير النمل، قاله مقاتل. أو: بالطائف، قاله كعب. وقيل: هو واد يسكنه الجن، والنمل مراكبهم. وعدي الفعل بـ " على "؛ لأن إتيانهم كان من فوق، فأتي بحرف الاستعلاء. ولعلمهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادي؛ إذ حينئذ يخافهم من في الأرض، لا عند سيرهم في الهواء. وجواب (إذ) قوله: { قالت نملة }، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت منهم، فصاحت صيحة، فنيهت بها ما بحضرتها من النمل.

قال كعب: مرَّ سليمان عليه السلام بوادي السدير، من أودية الطائف، فأتى على واد النمل، فقالت نملة، وهي تمشي، وكانت عرجاء تتكاوس، مثل الذئب في العظم. قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، وقيل: منذرة، وقيل: جرمي. وقال نوف الحميري: كان نمل وادي سليمان أمثال الذباب. وعن قتادة: أنه دخل الكوفة، فالتف عليه الناس، فقال: سلوني عما شئتم، فسأله أبو حنيفة، وهو شاب، عن نملة سليمان، أكان ذكراً أو أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: بم عرفت؟ فقال: قوله تعالى: { قالت نملة } ولو كان ذكراً لقال: قال نملة. هـ. قلت: وهو غير صحيح لِمَا تقدم عن الرضي.

{ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم } لم يقل: ادخلن؛ لأنه لَمَّا جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون من العقلاء، أجرى خطابهن مجرى ذوي العقل، { لا يَحْطِمَنَّكُمْ }؛ لا يكسرنكم. والحطم: الكسر، وهو في الظاهر نهى لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهى لهم عن البروز والوقوف على طريقه، نحو: لا أرينك ها هنا، أي: لا تتعرضوا فيكسرنكم { سليمانُ وِجودُهُ }، وقيل: أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ. { وهم لا يشعرون } لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا ما فعلوا.

قالت ذلك على وجه العذر، واصفةً سليمان وجنوده بالعدل، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أميال.

رُوي أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل، أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل، فلم قلت: { لا يحطمنكم سليمان وجنوده }؟ فقالت: أما سمعت قولي: { وهم لا يشعرون }، مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خشيت أن يتمنين ما أعطيت، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها سليمان: عطيني، فقالت: هل علمت لِمَ سُمي أبوك داود؟ قال: لا، قالت: لأنه داود جرّح. هل تدري لِمَ سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم، ما ركنت إلى ما أوتيت، لسلامة صدرك، وأتى لك أن تلحق أباك. ثم قالت: اتدري لِمَ سخر الله لك الريح؟ قال: لا، قالت: أخبرك الله أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس: ومن هنا " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب: الهدهد، والضرد، والنحلة، والنملة "

فتبسم ضاحكاً { ، معجباً { من قولها } ومن حذرّها، واهتدائها لمصالحها، ونصحها للنمل، وفرحاً بظهور عدله. والتبسم: ابتداء الضحك، وأكثر الضحك الأنبياء التبسم، أي: فتبسم ابتداء، ضاحكاً انتهاء. { وقال ربّ أوزعني }، الإيزاع في الأصل: الكف، أي: كَفّني عن كل شيء إلا عن شكر نعمتك، ويطلق على الإلهام، أي: ألهمني { أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ } من النبوة والمُلك والعلم، { وعلى والديّ }؛ لأن الإينعام على الوالدين إينعام على الولد، { و } ألهمني { أن أعمل صالحاً ترصاه } في بقية عمري، { وأدخلني برحمتك } أي: وأدخلني الجنة برحمتك، لا بصالح عملي؛ إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك كما في الحديث. { في عبادك الصالحين } أي: في جملة أنبيائك المرسلين، الذين صلحوا لحضرتك. أو: مع عبادك الصالحين. رُوي أن النملة أحست بصوت الجنود، ولم تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح، فوقفت؛ لئلا يذعرن، حتى دخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفي.

الإشارة: من أقبل بكليته على مولاه، وأطاعه في كل شيء، سخرت له الأكوان، وأطاعته في كل شيء. ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كل شيء، وصعب عليه كل شيء. " أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك ". فإذا سخرت له الأشياء، وزهد فيها، وأعرض عنها، واختار مقام العبودية، ارتفع قدره، ولم ينقص منه شيئاً، كحال نبينا - عليه السلام -، ومن سخرت له الأشياء، ونظر إليها، انتقص قدره، وإن كان كريماً على الله، ولذلك ورد في الخبر أن سليمان عليه السلام: هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره في القوت.

وذكر فيه أيضاً: أن سليمان عليه السلام لبس ذات يوماً ثياباً رفيعة، ثم ركب على سريره، فحملته الريح، وسارت به، فنظر إلى عطفه نظرة، فأنزلته إلى الأرض، فقال لها: لِمَ أنزلتني ولم أمرك؟ فقالت له: نطعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب، فحملته. وهذا مما يعتب علما بالمقربين؛ لكبر مقامهم، فكل نعيم في الدنيا ينقص في الآخرة. والله تعالى أعلم.

@ { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } * { لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } * { فَمَكَتْ عَيْرٌ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ } * { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

وَأَلْهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * { وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَرَبُّهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَأَلَهُمْ قَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } * { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } * { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }

يقول الحق جل جلاله: { وتفقد } سليمان { الطير } أي: تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها، أو: تفقده لمعرفته بالماء، أو لغير ذلك على ما يأتي. فلما تفقده لم ير الهدهد فيما بينها. والتفقد: طلب ما غاب عنك. { فقال مالي لا أرى الهدهد } أسأتر ستره؟ { أم كان من الغائبين } ، و " أم " : بمعنى " بل " . كأنه قال: ما لي لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب، فأضرب عنه، وقال: بل هو من الغائبين.

{ لأعدبته عذاباً شديداً } ، قيل: كان عذابه للطير: نتفه ريشه وتشميسه، أو: يجعله مع أضداده في قفص، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، ومفارقة الأحباب. أو: نتفه، وطرحه بين يدي النحل تلدغه، أو: النمل تأكله. وحل له تعذيب الهدهد لينزجر غيره، ولما سخرت له الحيوانات - ولا يتم التسخير إلا بالتأديب - حل له التأديب.

{ أو لأدبته }؛ ليعتبر به أبناء جنسه، { أو ليأتييني بسُلطان مبين }؛ بحجة تُبين عذره، والحلف في الحقيقة على أحد الأمرين، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم: وسبب طلبته للهدهد، لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها. وقيل: كانت الطير تظله، فأصابته لمعة من الشمس، فنظر، فرأى موضع الهدهد خالياً، فتفقده، وقيل: احتاج إلى الماء، وكان علم ذلك إلى الهدهد، فتفقده، فلم يجده، فتوعده.

والسبب فيه: أن سليمان عليه السلام لَمَّا فرغ من بناء بيت المقدس، عزم على الخروج إلى أرض الحرم، للحج، فتجهز للمسير، وخرج بجنوده - كما تقدم - فبلغ الحرم، وأقام به، وكان ينجر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة، وبذبح خمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، قرباناً. وقال: إن هذا مكان يخرج منه نبي عزيز، صفته كذا وكذا، يُعطى النصر على جميع من ناواه، وتبلغ هيئته مسيرة شهر، القريب والبعيد في الحق عنده سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، دينه دين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وأمن به، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه، وخرج نحو اليمن صباحاً، يوم سهيلاً، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناً، تزهو خضرتها، فأحب النزول بها؛ ليصلي، ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجده، وكان الهدهد دليله على الماء، كان يرى الماء من تحت الأرض، كما نرى الماء في الزجاج، فينقر الأرض فتجيء الشياطين يستخرجونه. وبحث فيه القشيري بأن الهدهد متعدد في عسكره، إذا فقدوا واحداً بقي آخر، قال: اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة ذلك، والله أعلم. هـ.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث: قال له نافع بن الأزرق: كيف ينظر الماء تحت الأرض، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر.

قلت: ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمان، قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء، ونظر طول الدنيا وعرضها، ونظر يمينا وشمالاً، فرأى بستاناً بلقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان " يعفور " واسم هدهد اليمن " عنفير ". فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان: من أين أقيلت وأين تريد؟ قال: أقيلت من الشام، مع صاحبي سليمان بن داود، قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد، ملكها امرأة، يقال لها " بلقيس " تحت يديها اثنا عشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه، ونظر إلى بلقيس ومُلكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقدته وقت الصلاة، فلم يجده، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس: فدعا عريف الطير - وهو النسر - فسأله؟ فقال: ما أدري أين هو، فغضب سليمان وقال: (لأعذبه...) إلخ، ثم دعا بالعقاب، سيد الطير، فقال: عليّ بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه نحو السماء، حتى التزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصة بين يدي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مُقبلاً من نحو اليمن، فانقضَّ نحوه، فقال له الهدهد: بحق الحق الذي قوّاك إلا ما رحمتني، فقال: ويلك، إن نبي الله حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير في العسكر، وقالوا له: لقد توعدك نبيُّ الله. قال: أو ما استثنى؟ قالت: بلى، قال: { أو ليأتيني بسلطان مبين }. ثم دخل على سليمان، فرفع رأسه، وأرعى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض، تواضعاً لله وللسليمان، فقال سليمان: أين كنت؟ لأعذبتك... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه، فمده إليه، فقال له الهدهد: يا نبي الله! اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، بمنزلة وقوفي بين يديك، فارتعد سليمان وعفا عنه. وقال عكرمة: إنما صُرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

قال تعالى: { فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ } أي: تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدهد، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد، وهو من الظهر إلى العصر - كما تقدم - أو: فمكث الهدهد في غيبته غير بعيد، خوفاً من سليمان، فالضمير إما لسليمان، أو: للهدهد، وهو الظاهر، ويرجحه قراءة: (فتمكث). وفي " مكث " لغتان: الضم والفتح.

ولما قدم من غيبته، أحضر بين يديه، على الهيئة المتقدمة، ثم سأله عن غيبته، { فقال أحطت بما لم تُحط به } أي: أدركت علماً لم تُحط به أنت، ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام، مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة، ابتلاء له عليه السلام في علمه، وتنبهها على أن في أدنى خلقه، اضعفهم من أحاطه الله علماً بما لم يُحط به؛ لتتصاغر إليه نفسه، ويصغر في عينه وعلمه، في جانب علم الله، رحمة به ولطفاً في ترك الإعجاب، الذي هو فتنة العلماء.

ثم قال: { وجئتك من سبأ } - بالصرف - اسماً للحي، أو: للأب الأكبر، وبعده اسماً للقبيلة. { بنياً يقين } ، والنبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: { من سبأ نبياً } من محاسن الكلام ويسمى البديع. وقد حسن وبرع لفظاً ومعنى، حيث فسر إبهامه بأبداع تفسير، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبر عما جاء به بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصفه بما وصفه به. { وإني وجدت امرأة تملكهم }؛ هو

استثناف لبيان ما جاء به من النبأ، وتفسير له إثر الإجمال. وهي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، ورث الملك من أربعين أباً. وقيل: كان أبوها - اسمه الهدهد - ملكاً عظيماً الشأن، ملك أرض اليمن كلها، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن، يقال لها " ريحانة " فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها.

قال أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كان أحد أبوي بلقيس جنياً " فمات أبوها، فاختلف قومه فرقتين، وملكوا أمرهم رجلاً قائماً بسيرته، حتى فجر بحرم رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها، فتزوجته، فسقته الخمر، فسكر، فجزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها.

{ وأوتيت من كل شيء } تحتاج إليه الملوك، من العدة والآلة، { ولها عرش عظيم } كبير، قيل: كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً، وقيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين، وطوله في الهواء: ثمانون. وكان من ذهب وفضة، مرصعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزبرجد، وعليه سبعة أبيات، في كل بيت باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان، فلذلك عظم عرشها. وقد أخفى الله تعالى ذلك على سليمان؛ لحكمة، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب، ليتحقق ضعف العبودية في جانب علم الربوبية.

وكانت بلقيس مجوسية، فلذلك قال: { وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله } أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله. { وزين لهم الشيطان أعمالهم } التي هي عبادة الشمس، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، { فصدهم عن السبيل } عن سبيل الرشد والصواب، وهو التوحيد { فهم لا يهتدون } إليه. ولا يبعد من الهدهد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس، إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات والمعارف اللطيفة، التي لا يكاد العقلاء، الراجحة العقول، يهتدون إليها. وهذا من أسرار الربوبية، التي سرت في الأشياء، فوحدت الله تعالى، ولهجت بحمده.

ألا يسجدوا { بالتشديد، أي: فصدهم عن السبيل لئلا، فحذف الجار، أي: لأجل ألا يسجدوا لله. ويجوز أن تكون " لا " مزيدة، أي: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ: هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف. فالتقدير عنده: ألا يا هؤلاء! اسجدوا، فألاً للتنبيه، والمنادي محذوف، فمن شدد لم يقف على { يهتدون } ، ومن خفف وقف ثم استأنف: ألا يا هؤلاء اسجدوا { لله الذي يُخرجُ الحَبَّاءَ }؛ الشيء المخبوء المستور { في السماوات والأرض } ، قال قتادة: خبء السماوات: المطر، وخبء الأرض: النبات. واللفظ أعم من ذلك، { ويعلم ما يُخفون وما يُعلنون } عطف على " يخرج " ، إشارة إلى أنه تعالى يُخرج ما في العالم الإنساني من الخفايا، كما يُخرج ما في العالم الكبير من الخبايا.

{ الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم } الذي هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصفُ الهدهد عرشَ الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض. وفي الخبر: " إن السماوات والأرض في جانب العرش كحلقة في فلاة " ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا، وملؤوا الركايا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: هُدهد كل إنسان نفسه، فإذا تفقدها فوجدها غائبة عن الله، في أودية الغفلة، هدهدا بالعذاب الشديد، وبذبحها بأنواع المخالفة، حتى تأتيه بحجة واضحة، تعذر بها، فإن لم تأت بحجة عذِّبها وذبحها، بإدخالها في كل ما تكره ويثقل عليها، فتمكث غير بعيد، فتأتيه بالعلوم اللدنية، والأسرار الربانية، التي لم يحط بها علماً قبل ذلك، وتجيئه بالخبر اليقين، في العلم بالله، من عين اليقين، أو حق اليقين، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب، فتقول: إني وجدت امرأة تملكهم، وهي نفسها الأمارة، وأوتيت من كل شيء تشتهيهِ وتهواه، من غير وازع ولا قانع، ولها عرش عظيم، وهو سرير الغفلة والانهماك في حب الدنيا والشهوات. أو: لها تسلط كبير على من ملكته، وجدتها وقومها يسجدون للسُّوى، وبخضعون للهوى من دون الله، وزين لهم الشيطان ذلك، فصدهم عن طريق الوصول، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبداً ما داموا كذلك؛ لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم لله وحده، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار، وعلى ما يُسرون من الإخلاص، وما يُعلنون من الأعمال، التي توجب الاختصاص. وبالله التوفيق.

@ { قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } * { إِذْ هَبَّ بِكِتَابِي هَذَا قَالَ قَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } * { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّهَا الْقِيَّ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } * { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِبَيْنِ يَدَيْهِ أَلْفَ نِسْوَةٍ لِيَخْتَبِرَنَّ مِنْهُنَّ مَا تَكْتُمُ مِنَ الْقَوْلِ فَجَاء بِهِنَّ جُنُودًا لَهُمْ حُصُونٌ فَاسْتَبَقُوا كُرْسِيَّ الْمُلْكِ وَنَخَسَ مِنْهُنَّ الْمُلْكَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ } * { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أُمُوراً حَتَّى تَشْهَدُون } * { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو نَسَبٍ كَانَتْ آيَاتِنَا عَلَيْكَ يَا مَعْشَرَ الْفَالِغِينَ وَالْمُرَادُونَ } * { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَسةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } *

يقول الحق جل جلاله: { قال } سليمان للهدهد: { سننظر } أي: نتأمل فيما أخبرت، فتعلم { أصدقت أم كنت من الكاذبين } ، وهو أبلغ من: أكذبت؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً، لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم فيما أخبر به، فلا يوثق به، ثم كتب: من عبد الله، سليمان بن داود، إلى بلقيس ملكة سبأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين. قال منصور: كان سليمان أبلغ الناس في كتابه، وأقلهم كلاماً فيه. ثم قرأ: { إنه من سليمان... } إلخ، والأنبياء كلهم كذلك، كانت تكتب جُملاً، لا يُطيلون ولا يُكثرون. وقال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قال الله تعالى: { إنه من سليمان... } إلخ. ثم طيَّبه بالمسك، وختمه بخاتمه، وقال للهدهد: { اذهب بكتابي هذا قاله إليهم } أي: إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معها في قوله: { وجدتها وقومها } ، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك. { ثم تولَّ عنهم } أي: نتج عنهم إلى مكان قريب، بحيث تراهم ولا يرونك، ليكون ما يقولون بمسمع منك، { فانظر ماذا يرجعون } أي: ما الذي يردُّون من الجواب، أو: ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره، ودخل عليها من كوة، فطرح الكتاب على نحرها، وهي راقدة، وتوارى في الكوة. وقيل: نقرها، فانتبهت فرعة، أو: أتاها الجنود حولها، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم، ثم طرح الكتاب في حجرها، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم { قالت } لأشرف قومها وهي خائفة: { يا أيها الملا إني ألقى إليّ كتاب كريم } ، وصفته بالكرم لكرم مضمونه؛ إذ هو حق، أو: لأنه من ملك كريم، أو: لكونه مختوماً.

قال - عليه الصلاة والسلام - : " كَرَّمُ الْكِتَابِ خَنَّمُهُ " أو: لكونه مصدراً بالتسمية، أو: لغرابة شأنه، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونهم والمكتوب فيه: { إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم } ، وهذا تبين لما ألقى إليها، كأنها لما قالت: { ألقى إليّ كتاب كريم } قيل لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: { إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ } ، " إن " : مفسرة، أي: لا تترفعوا عليّ ولا تتكبروا، كما يفعل جابرة الملوك، { وأتوني مسلمين } : مؤمنين، أو: منقادين، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل: إقامة الحجة على رسالته؛ لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.

{ قالت يا أيها الملأ } ، كررت حكاية قولها إيذاناً بغاية اعتنائها بما في حيزه: { أفئوني في أمري } أي: أجيئوني في أمري، الذي حزني وذكيرته لكم، وعبرت عن الجواب بالفتوى، الذي هو الجواب عن الحوادث المشككة غالباً؛ تهويلاً للأمر، ورفعاً لمحلهم، بالإشعار بأنهم قادرين على حل المشكلات الملمة.

ثم قالت: { ما كنت قاطعةً أمراً } من الأمور المتعلقة بالمملكة { حتى تشهدون } بكسر النون، ولا يصح الفتح؛ لأنه يُحذف للناصب. وأصله: تشهدونني، فحذفت الأولى للناصب وبقي نون الوقاية، أي: تحضروني، وتشهدوا أنه على صواب، أي: لا أقطع أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كل واحد على عشرة آلاف.

{ قالوا } في جوابها: { نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديد } أي: نجدة وشجاعة، فأرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب. { والأمرُ إليك } أي: هو موكل إليك { فانظري ماذا تأمرين } ، فنحن مطيعون إليك، فمُرنا بأمرك، نمثل أمرك، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا: من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي والمشهورة، وأنت ذات الرأي والتدبير، فانظري ماذا تأمرين تتبع رأيك.

فلما أحسنت منهم الميلَ إلى المحاربة مالت إلى المصالحة، فزيفت رأيهم، حيث { قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً } على منهاج المقاتلة والحرب، أو عنوة وقهراً { أفسدوها } بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال، { وجعلوا أعرَّةً أهلها أذلةً } بالقتل والاسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة؛ ليستقيم لهم ملكهم وحدهم. ثم قالت: { وكذلك يفعلون } أي: وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت المملكة قديماً، أباً عن أب، فجربت الأمور، أو: يكون من قول الله تعالى، تصديقاً لقولها، أي: قال الله تعالى: وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا في هذا المعنى:

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا فَلَا يَكُنْ بَكَ فِي أَكْتَابِهِمْ ظُلُّ
مَاذَا يُؤْمَلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا عَضِبُوا جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُّوا
وَإِنْ صَدَقْتَهُمْ خَالُوكَ تَخَدَعْتَهُمْ وَاسْتَنْقَلُوكَ كَمَا يُبْسِتُّ قَلْبُ الْكَلِّ
فَأَسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ أَبَدًا إِنَّ الْوُفُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلُّ
ففي صحبة الملوك خطير كبير، وتعب عظيم، فمن قوي نوره، حتى يغلب على ظلمتهم، بحيث يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، فلا بأس بمعرفتهم، إن كان فيه نفع للناس

بالشفاعة والنصيحة، وقد أقيم في هذا المقام الشيخ أبو حسن الشاذلي، وشيخ شيخنا مولاي العربي الدرقاوي - رضي الله عنهما - وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسي، وشيخنا سيدي محمد البوزيدي الحسني - رضي الله عنهما - يفران من صحبتهم، أشد الفرار وهو أسلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال صاحب الخصوصية لنفسه: سننظر أصدقيت في الخصوصية أم أنت من الكاذبين، اذهب بما معك من العلم، وذكر به عباد الله، وألقه إليهم، ثم تول عنهم، وانظر ماذا يرجعون، فإن تأثروا بوعظك، وانتقش فيهم قولك، فأنت صادقة في ثبوت الخصوصية لديك؛ لأن أهل العلم بالله إذا تكلموا وقع كلامهم في قلوب العباد، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أرادت التذكير: يا أيها الملا إنني ألقى إلي في قلبي كتاب كريم، وعلم عظيم، فلا تعل علي وأتوني مسلمين، منقادين لما أمركم به، وقالت - لما تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأحدقت بها جنود الأنوار: يا أيها الملا - تعني جنود الأنوار - أفتوني في أمري الذي أريد أن أفعله، ما كنت قاطعة أمراً من الأمور، التي تتجلي في القلب، حتى تشهدون، وتشهدوا أنه رشد وحق، قالو: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، والأمر إليك، حيث تطهرت، فانظري ماذا تأمرين؛ لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به، قالت: إن الملوك - أي: الواردات الإلهية التي تأتي من حضرة القهار، إذا دخلوا قرية، أي: قلب نفس، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، أي: أبدلوا عزها ذلاً، وجاهاها خمولا، وغناها من الدنيا فقراً، وكذلك يفعلون. وفي الحكمة العطائية: " متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ". فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب، قال في الحكمة: " لا تزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار ". وبالله التوفيق.

@ { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } * { فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ قَمَا أَنَا بِلِ اللَّهِ حَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } * { أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِنُجُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: في حكاية بلقيس - وكانت سيسة، قد سيست وساست، فقالت لقومها: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ }؛ سليمان وقومه، { بهدية } أصانعه بذلك عن ملكي، وأختبره، أملك هو أم نبي؟ { فناظرة }؛ فمنتظرة { بم يرجع المرسلون }؛ بأي شيء يرجعون، بقبولها أم بردها؛ لأنها عرفت عادة الملوك، وحسن موقع الهدايا عندهم، فإن كان ملكاً قبلها وانصرف. وإن كان نبياً ردها ولم يقبل منا إلا أن تتبعه على دينه، فبعثت خمسمائة غلام، عليهم ثياب الجوارى وخليهن، راكبين خيلاً، مغشاة بالديباج، محلاة اللحم والسرور بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت، وحققاً فيه درة عذراء، وخرزة جزعية مثقوبة، معوجة الثقب، وأرسلت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر بن عمرو، وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدية. وقالت فيه: إذ كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحق، واثقب الدرّة ثقباً مستويّاً، واسلك في الخرزة خيطاً. ثم قالت

للمنذر: إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك، فلا يهولنك منظره، وإن رأيته ليناً لطيفاً فهو نبي.

فأقبل الهدهد، فأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمانُ الجن فضربوا لِيَنَات الذهب والفضة، وفرشوها في الميدان بين يديه، طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً، شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسين الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره، على اللبّات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلقٌ كثير - فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره، والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم، ونظروا، بُهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طَلَّق، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، فقال: أين الحُق؟ فأتى به، فحرّكه، وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه. فقال لهم: إن كان فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فجعل رزقها في الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت في ثقب الجزعة، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فيميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى: { فلما جاء سليمانَ } أي: جاء رسولها المنذرُ بن عمرو إليه { قال أتمدّونَ بمالٍ } ، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتذكير للتحقير، والخطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. { فما أتاني الله } من النبوة والمُلْك الذي لا غاية وراءه { خير مما أتاكم } أي: من المال الذي من جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وقع لها عندي، ولعله عليه السلام إنما قال لهم هذه المقالة. .. إلخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكي من قصة الحُقِّ وغيرها، لأنه عليه السلام خاطبهم بها أول ما جاؤوه.

ثم قال لهم: { بل أنتم بهديتكم تفرحون }. الهدية: اسم للمُهْدَى، كما أن العطية اسم للمُعْطَى، فتضاف إلى المُهْدِي والمُهْدَى له. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله تعالى أتاني الدين والمعرفة به، التي هي الغنى الأكبر، والحظ الأوفر، وأتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يُمد بمال من قبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويُهدى إليكم؛ لأن ذلك مبلغ همّتكم، وحالي خلاف ذلكم، فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم، وترك ما أنتم عليه من المجوسية. والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم، كأنه قيل: أنا لا أفرح بما تمدونني به بل أنتم.

ثم قال للرسول: { ارجع إليهم }؛ إلى بلقيس وقومها، وقل لهم: { فلنأتينهم بجنودٍ لا قبَل }؛ لا طاقة { لهم بها }. وحقيقة القبَل: المقابلة والمقاومة، أي: لا يقدر أن يقابلوهم، { ولنُخرجنهم منها } أي: من سبأ { أدلّة وهم صاغرون }؛ أسارى مهانون.

فالذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك، والصغار: أن يبقوا في أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا، وقصَّ عليها القصة، قالت: هو نبي، وما لنا به طاقة. ثم تجهزت للقاءه، على ما يأتي إن شاء الله.

الإشارة: إذا توجه المرید إلى مولاه، توجهت إليه نفسه بأجنادها، وهي الدنيا، والجاه، والرئاسة، والحظوظ، والشهوات، فتمده أولاً بمال وجاه، تختبره، فإن علت همته، وقويت عزيمته، أعرض عن ذلك وأنكره، وقال: أتمدوني بمال حقير، وجاه صغير، فلما أتاني الله من معرفته والغنى به خير مما أتاكم. ثم يقول للوارد بذلك: ارجع إليهم - أي: للنفس وجنودها - فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قبل لهم بها، ولنخرجهم منها - أي: قرية القلب - أدلة وهم صاغرون. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

@ { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } * { قَالَ عِفْرِيثُ مَنِ الْجَنِّ أَنَا أَمْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } * { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَبَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيآ أَلَشُّكْرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ } * { قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِيآ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } * { فَلَمَّا جَاءَتْ قَبْلَ أَهْكَدَا عَرْشِكِ قَالَتُ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْتَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } * { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ } * { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان، جعلت عرشها آخر سبعة أبيات، وغلقت الأبواب، وجعلت عليه حُرَاساً يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك؛ لأنظر ما الذي تدعو إليه، وشخصت إليه في اثني عشر ألفي قيل، تحت كل قيل ألوف، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان، { قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين } ، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به، من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام، فلا يحل له، والأول أليق بمنصب النبوة، أو: أراد أن يختبرها في عقلها، بتغييره، هل تعرفه أو تُنكره.

{ قال عِفْرِيثُ مِنَ الْجَنِّ } ، وهو المارد الخبيث، واسمه " ذكوان " ، أو: " صَحْر " : { أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك } أي: من مجلسك إلى الحكومة، وكان يجلس إلى تُسع النهار، وقيل: إلى نصفه. { وإني عليه }؛ على حمله { لقويٌّ أمينٌ } ، آتي به على ما هو عليه، لا أغير منه شيئاً ولا أبدله، فقال سليمان عليه السلام، أريد أعجل من هذا، { قال الذي عنده علم من الكتاب } . قيل هو: أصف بن برخيا - وزير سليمان عليه السلام، كان عنده اسمُ الله الأعظم، الذي إذا سئل به أجاب. قيل هو: يا حيُّ يا قيوم، أو: يا ذا الجلال والإكرام، أو: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الاسم، إنما الشأن أن يكون عين الاسم، أي: عين مسمى الاسم، حتى يكون أمره بأمر الله. وقيل: هو الخضر، أو: جبريل، أو: ملك بيده كتاب المقادير، أرسل تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر. قال: { أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طَرْفُكَ } أي: ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده تُبصر العرش بين يديك.

رُوي: أن آصف قال لسليمان: مُدِّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدَّ عينيه، فنظر نحو اليمن، فدعا آصف، فغار العرش في مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان، بقدره الله تعالى، قبل أن يرجع إليه طرفه. { فما رآه } أي: العرش { مستقراً عنده }؛ ثابتاً لديه غير مضطرب، { قال هذا } أي: حصول مرادي، وهو حضور العرش في مدة قليلة، { من فضل ربي } عليّ، وإحسانه إليّ، بلا استحقاق مني، بل هو فضل خالٍ من العوض، { ليلبوني }؛ ليختبرني { أشكُر } نعمه { أم أكفر } ومن شكر فإنما يشكر لنفسه؛ لأنه يقيد به محصولها، ويستجلب به مفقودها، ويحط عن ذمته عناء الواجب، ويتخلص من وصمة الكفران. { ومن كَفَرَ فإن ربي غنيٌّ كريم } أي: ومن كفر بترك الشكر، فإن ربي غني عن شكره، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه. وفي الخبر: " من شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكر فقد تعرض لزوالها ".

وقال الواسطي: ما كان مِتّاً من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا. هـ.

{ قال } سليمانُ عليه السلام لأصحابه: { نكروا لها عرشها } أي: غيروا هيئته بوجه من الوجوه، { ننظر أتهتدي } لمعرفة، أو: للجواب الصواب إذا سُئلت عنه، { أم تكون من الذين لا يهتدون } إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

{ فلما جاءت } بلقيسُ سليمانَ عليه السلام، وقد كان العرش بين يديه، { قيل } من جهة سليمان، أو بواسطة: { أهكذا عرشك }؟ ولم يقل: أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها، وقد قيل لسليمان - لما أراد تزوجها -: إن في عقلها شيئاً، فاخبرها بذلك. { قالت } - لما رآته -: { كأنه هو } فأجابت أحسن جواب، فلم تقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من راحة عقلها، حيث لم تقل: هو هو مع علمها بحقيقة الحال، ولما شَبَّهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شَبَّهت عليهم بقولها: { كأنه هو } مع أنها علمت بعرشها حقيقة، تلويحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات، ومراعاة لحسن الأدب في محاورته عليه السلام. ولو قالوا: أهذا عرشك؟ لقاتل: هو.

ثم قالت: { وأوتينا العلم } بقدره الله تعالى، وبصحة نبوتك { من قبليها }؛ من قبل هذا الأمر، أي: من قبل المعجزة التي شاهدنا الآن، من أمر الهدد، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك، { وكنا مسلمين }؛ منقادين لك من ذلك الوقت، وكأنها ظنت أنه أراد عليه السلام اختبار عقلها، وإظهار المعجزة، لتؤمن به. فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان: { وأوتينا العلم } بالله تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية، { وكنا مسلمين }؛ موحدين، أو: { وأوتينا العلم } بإسلامها ومجيئها طائفةً { من قبل } مجيئها، { وكنا مسلمين } موحدين.

{ وصدّها ما كانت تعبدُ من دون الله }، هو من كلام سليمان، أي: وصدّها عن العلم بما علمناه - أو: عن التقدم إلى الإسلام - عبادة الشمس وإقامتها بين ظهرايّ الكفرة، أو: من كلام تعالى، بياناً لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن، أي: صدّها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس، { إنها كانت من قوم كافرين } أي: كانت من قوم

راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهو بين ظهرانيهم، حتى دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام، أو: وصدها الله تعالى، أو: سليمان، عما كانت تعبد من دون الله، فحذف الجار وأوصل الفعل.

{ قيل لها ادخلي الصَّرحَ } أي: القصر، أو: صحن الدار، { فما رآته حَسِبْتَهُ لُجَّةً } : ماء عظيماً، { وكشفت عن ساقبها } .

رُوي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها، فبُني له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوته. وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجها، فنفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد، فيجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من مُلكِ سليمان إلى مُلكِ أشد منه، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شَعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار، فاحتر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقبها ورجلها فكشفت عنهما، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنه شعراء وصرف يصره. ثم { قال } لها { إنه صرح مُمَرَّد }؛ مملس مستو. ومنه: الأمرد، للذي لا شعر في وجهه، { من قوارير }؛ من الزجاج، وأراد سليمان تزوجها، فكره شعرها، فعملت له الشياطين النورة، فنكحها سليمان، وأحبها، وأقرها على ملكها، وكان يزورها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السلام، فسبحان من لا انقضاء لملكه.

رُوي أنه مُلك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. هـ.

ثم ذكر إسلامها، فقال: { قالت ربي إني ظلمت نفسي } بعبادة الشمس، { وأسلمت مع سليمان } تابعة له، مقتدية به، { لله رب العالمين } . وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل، ووصفه بربوبيته للعالمين؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرد به باستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودين، التي من جملتها: ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها، فقد أجلس نفسه على عرشها، وصيرها مالكه له، متصرفة فيه بما تُحب، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها، فقد هدم لها عرشها، وصارت خادمة مملوكة له، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله - وهو من أهله الله للتربية - للمريدين: أيكم يأتيني بعرشها، ويخرج عنها لله في أول بدايته؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفة، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب، ومن أتى بعرش نفسه، وخرج عنها لله، فهو الذي أتاه الله علماً من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المرید في تركها شيئاً فشيئاً، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فاما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها، أي: اعرضوا عليها الدنيا، وأروها عرشها التي كانت عليه، متغيراً عن حاله الأولى - لأنه كان معشوقاً لها، والآن صار ممقوتاً، لغناها بالله -

ننظر أتهدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبداً، فتكون قد تمكنت من الأنس بالله، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختاراً، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا منقادين لمراده، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه لله أبداً. وصدّها عن الحضرة ما كانت تبعد من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكرين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دار الحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتموج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لجةً، يغرق صاحبه في بحر الزندقة، قال لها رئيس البحرية - وهو شيخ التربية: إنه بحر منزله متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قيل أن تعرف هواه، قلما عرفته غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ ثَمُودَ أَنِ اتَّبِعُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } *
{ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
* { قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } *

قلت: (ولقد أرسلنا): عطف على (ولقد آتينا داود...) إلخ.

يقول الحق جل جلاله: { و { الله { لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم { نسباً { صالحاً أن اعبدوا الله { أي: بأن اعبدوه وحده، { فإذا هم فريقان يختصمون { أي: ففاجؤوا التفرق والاختصام، ففريق مؤمن به، وفريق كافر، أو يختصمون فيه، فكل فريق يقول: الحق معي، وقد فسر هذا الاختصام قوله تعالى في الأعراف:
{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ }
صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالذِّبَا آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }
[الأعراف: 75-76] { قال { عليه السلام للفريق الكافر، بعد ما شاهد منهم ما شاهد؛ من نهاية العتو والعتاد، حتى استعجلوا العذاب: { يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة {؛ بالعقوبة السيئة { قبل الحسنه { أي: التوبة الصالحة، فتؤخرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا - من جهلهم وغوايتهم يقولون، إن وقع العذاب بُنينا حينئذٍ، وإلا فنحن على ما كنا عليه. أو: لِمَ تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة، أو: بالمعصية قبل الطاعة، { لولا تستغفرون الله {؛ هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله، { لعلكم تُرْحَمُونَ { بالإجابة قبل النزول، إذ لا قبول بعده، { قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ {؛ تشاءمنا بك { وبمن معك { من المؤمنين؛ لأنهم فُحِطُوا عند مبعثه؛ لكفرهم، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: تطيرنا. وقرئ به، فادغمت التاء في الطاء، وزيدت ألف وصل، للسكون.

{ قال { صالح عليه السلام: { طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ { أي: سبيكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند الله، وهو قدره وقضائه، أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل، عقوبة لكم وفتنة. ومنه:
{ وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْرَمْتَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ }
[الإسراء: 13] أي: ألزماه جزاء عمله، أو: ما قدر له في عنقه، وأصله: أن المسافر كان إذا مرَّ بطائر يزجره، فإن مر إلى جهة اليمين تيمناً، وإن مر إلى ناحية الشمال

تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو: من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة، { بل أنتم قوم تُفْتَنُونَ } : تختبرون بتعاقب السراء والضراء، أو: تعذبون، أو: يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال - عليه الصلاة والسلام -: " لا عدوى ولا طيرة " وقال أيضاً: " إذا تطيرت فلا ترجع " والله تعالى أعلم.

الإشارة: سَير أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم، إذا بعثهم الله إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم، ففريق يصدق وفريق يكذب، فيطلبون الكرامة والبرهان، ويتطرون بهم وبمن تبعهم، إن ظهرت بهم قهرية من عند الله، كما رأينا ذلك كله. وبالله التوفيق.

@ { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } * { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } * { وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } * { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتُلْنَاهُمْ وَاقْتُلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّا لَنَاقُونَ } * { وَانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون }

يقول الحق جل جلاله: { وكان في المدينة }؛ مدينة ثمود وهي الحجر، { تسعة رهط } أي: أشخاص، وهو جمع لا واحد له، فلذا جاز تمييز التسعة به، فكأنه قيل: تسعة أنفس، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وكان رئيسهم " قدار بن سالف " وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم، { يفسدون في الأرض } أي: في المدينة، إفساداً لا يخالطه شيء من الصلاح أصلاً، { ولا يصلحون } يعني إن شأنهم الإفساد المحض، الذي لا صلاح معه. وعن الحسن: يظلمون الناس، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معائب الناس، ولا يسترون عوراتهم.

{ قالوا تقاسموا بالله } : استئناف لبيان بعض فسادهم. و(تقاسموا): إما أمر مقول لقالوا، أي: تحالفوا أمر بعضهم بعضاً بالقسم على قتله. وإما خبر حال، أي: قالوا متقاسمين. { لنبيئته } : لنقلته بياتاً، أي: ليلاً، { وأهله } : ولده ونساءه، { ثم لنقولن لوليئه } أي: لولي دم: { ما شهدنا مهلك أهله } أي: ما حضرنا هلاكهم، أو: وقت هلاكهم. أو: مكانه فضلاً أن نتولى إهلاكهم، { وإنا لصادقون } فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول، أو: حال، أي: نقول ما نقول والحال أنا صادقون في ذلك؛ لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً. ولأننا ما شهدنا مهلك أهله وحده، بل مهلكه ومهلككم جميعاً، كقولك: ما رأيت ثم رجلاً، أي: بل رجلين. ولعل تخرجهم من الكذب في الإيمان مع كفرهم؛ لما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب في القسامة، كما كان أهل الشرك مع البيت الجرام في الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب، وبعد قوله: { تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } [هود: 65].

قال تعالى: { ومكروا مكرًا } بهذه المواضع، { ومكرنا مكرًا }؛ أهلكناهم إهلاكاً غير معهود، { وهم لا يشعرون } أي: من حيث لا يحتسبون، فمكرهم هو ما أخفوه من تدبير

الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. { فانظر كيف كان عاقبة مكرهم { أي: فتفكر في أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسره بقوله: { أتأمرناهم { أهلكتناهم بالصيحة { وقومهم { الذين لم يكونوا معهم في التبييت { أجمعين { . } روي أنه كان لصالح مسجد في شِعْبٍ يُصَلِّي فيه. فقالوا: زعم صالح يفرغ منا إلى ثلاث، وقد رأى علامة ذلك، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة من الهضب التي جبالهم، فبادروا، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلاً في مكانه ونجى صالحاً ومن معه.

وقال ابن عباس: أرسل الله الملائكة ليلاً، فامتلت بهم دار صالح، فأتى التسعة إلى دار صالح، شاهرين السيوف، فقتلهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة، ولا يرون رامياً. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.

قال تعالى: { فتلك بيوتهم خاوية }؛ ساقطة متهدمة، من: خوى النجم: إذا سقط.

أو: خالية من السكان، { بما ظلموا }؛ بسبب ظلمهم. { إن في ذلك } أي: فيما ذكر من التدمير العجيب { لآية لقوم يعلمون } قدرتنا، فيتعظون.

{ وأنجينا الذين آمنوا } أي: صالحاً ومن معه من المؤمنين، { وكانوا يتقون } الكفر والمعاصي، اتقاء مستمراً، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل: لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمص أحمر، ثم اصفر من الغد، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقات، وصاح جبريل في خلال ذلك، فخمدوا، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح، فسميت حضرموت. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكان في مدينة القلب تسعُ علل، يُفسدون فيها ولا يُصلحون، وهي حب الدنيا، وحب الرئاسة، والحسد. والكبر، والحقد، والعجب، والرياء، والمداهنة، والبخل، هم أفسدوا قلوب الناس، وتقاسموا على هلاكها، ومكروا بهم حتى زينوا لهم سوء عملهم، ومكر الله بهم، فدفعهم ودمرهم عن قلوب الصالحين، فتلك بيوتهم خاوية منها، أخرجهم منها، بسبب ظلمهم لها.

وقال القشيري على قوله: { ومكروا مكرًا... } الآية: مَكَّرُ الله: جزاؤهم على مَكْرِهِم، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة، ثم إحلالها بهم بغتة. هـ. وقال الورتجي: حقيقة المَكْر: امتناع سر الأذية عن مطالعة الخليقة، فإذا كان كذلك من ينجو من مَكْرِهِ، والحديث لا يطلع على سوابق علمه في القدم، فَمَكْرُهُ وقهره صفتان من صفاته، لا تفارقان ذاته، وذاته أبدية، انظر تمامه. قلت: ومعنى كلامه: أن مكر الله في الجملة: هو إخفاء السر الأزلي - وهو القضاء والقدر - عن مطالعة الخلق، فلا يدري أحد ما سبق له في العلم القديم، وإذا كان كذلك فلا ينجو أحد من مكره؛ إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم، إلا من اطلع عليه بوحى، كالأنبياء، أو بنص صريح منهم، كالمبشرين بالجنة، ومع ذلك: العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية، ولذلك

قيل: العارف لا يسكن إلى الله. قاله في لطائف المنن، أي: لا يسكن إلى وعد الله ولا وعيده، فلا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره.

وقال القشيري - على قوله: { فتلك بيوتهم خاوية... } ، في الخبر: " لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب " هـ. قلت: فكل من اشتغل بظلم العباد، فعن قريب ترى دياره بلاقع، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } * { أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } * { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَحْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ } * { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْعَاكِرِينَ } * { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } *

قلت: (ولوطاً): عطف على (صالحاً) داخل معه في القسم، أي: ولقد أرسلنا صالحاً ووطياً. (إذ قال): ظرف للإرسال، أو: منصوب باذكر، و(إذ قال): بدل من (لوطاً).

يقول الحق جل جلاله: { و } لقد أرسلنا { لوطاً } ، أو: واذكر لوطاً { إذ قال لقومه } أي: وقت قوله لهم: { أتأتون الفاحشة } أي: الفعلة المتناهية في الفحش والسماجة، { وأنتم تبصرون } أي: الحالة أنكم تعلمون علماً يقينياً أنها فاحشة، لم تسبقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقيح وأشنع، ولذلك ورد في الخبر: " أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ". وقال الفخر: لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم، وحين صدورها منه هو جاهل؛ لأنه رجع المرجوح وترجيح المرجوح جهل، ولذلك قال: { بل أنتم قوم تجهلون } هـ.

وفي الحديث: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " إذ لو صدق بإطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى، لكنه جهل ذلك. و { تبصرون } ، من: بصر القلب. وقيل: يبصر بعضكم بعضاً؛ لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديتهم، معلنين بها، لا يستتر بعضهم من بعض، مجاناً وانهماكاً في المعصية، أو: تبصرون آثار العصاة قبلكم، وما نزل بهم.

{ أنتم لتأتون الرجال شهوةً } أي: للشهوة { من دون النساء } أي: إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله تعالى في حكمته، فلذلك كانت أشنع المعاصي، { بل أنتم قوم تجهلون }؛ تفعلون فعل الجاهلين بقبحها، أو: تجهلون العاقبة. أو: بمعنى السفاهة والمجون، أي: بل أنتم سفهاء ماجنون. والتاء فيه - مع كونه صفة لقوم؛ لكونهم في حيز الخطاب. وكذا قوله: { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ } *

[النمل: 47]، غلب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة: " بل " للانتقال، والانتقال في باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه، وتقرير الأشدية هنا: أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية، وهي منقطعة تنقضي بانقضاء ذلك الفعل، والثاني راجع للقوة العلمية، وهي دائمة؛ لأن العلم بالشيء دائم، والعمل به منقطع غير دائم. هـ.

{ فما كان جواب قومه { حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى الله، { إلا أن قالوا
أُخْرِجُوا آلَ لُوطٍ } أي: لوطاً ومتبعيه { من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون }؛ يتنزهون عن
أفعالنا، أو: عن القاذورات، ويعدون فعلنا قذراً. وعن ابن عباس: إنه استهزاء، كقوله:
{ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ }
[هود: 87].

{ فأنجيناه }؛ فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم، { وأهله إلا امرأته قدرناها }
بالتشديد والتخفيف، أي: قدرنا أنها { من الغابرين }؛ الباقين في العذاب. { وأمطرنا
عليهم مطراً } غير معهود؛ حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها، { فساء }؛ قَبِحَ { مطرٌ
المنذرِينَ } الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرَّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. والله تعالى
أعلم.

الإشارة: ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم، والانهماك في غفلتهم،
فرجعت إلى معصية القلوب، وهي أشد من معصية الجوارح؛ لأن معصية الجوارح إذا
صحبتا التوبة والانكسار، عادت طاعة، بخلاف معصية القلوب؛ فإنها تنطمس بها أنوار
الغيوب، فلا يزيد صاحبها إلا البُعد والطرْد. والعياذ بالله.

@ { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَيْنَا عَبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ءَإِلَّاهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } * { أَمَّنْ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ءِإِلَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: لنبيه - عليه الصلاة والسلام-: { قل الحمد لله } على ما أنعم به
عليك من فنون النعم، ومن جملتها: اطلاعك على أسرار علم غيوبه، { وسلام على
عباده الذين اصطفى } لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد صلى
الله عليه وسلم، اصطفاهم بصحبته - عليه الصلاة والسلام - وقال الكلبي: هم أمة
محمد صلى الله عليه وسلم، اصطفاهم الله لمعرفة وطاعته. ثم قل لهم إلزاماً للحجة:
{ الله خير أم تشركون } أي: الله الذي ذكرت شؤونه العظيمة خير، أم ما تشركونه
معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع التردد إلى التعرض بتبكي الكفرة، وتسفيه آرائهم
الركيكة، والتهكم بهم، إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير، حتى
يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال: " بلِ الله خَيْرٌ، وَأَبْقَى، وَأَجَلُّ، وَأَكْرَم " .

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع، الدالة على انفراده بالخيرية، فقال: { أَمَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، " أم " هنا: منقطعة، بخلاف { أَمَّا تشكرون } أي: بلِ أَمَّنْ خلق
العالم العلوي والسفلي، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات، خير، أم جماد لا
يقدر على شيء؟ فمن: مبتدأ، وخبرها: محذوف مع " أم " المعادلة للهمزة، كما قررنا.

{ وأنزل لكم من السماء ماءً } . مطراً { فأنبتنا } ، التفت من الغيبة إلى التكلم؛ تأكيداً
لمعنى اختصاص الفعل به تعالى، وإيذاناً بأن نبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان،

والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر عليه غيره، أي: فأخرجنا { به حقائق { بساتين، فالحديقة: بستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة، { ذات بهجة { أي: ذات حُسن ورونق، تبتهج به النظار، ولم يقل: ذوات: لأن المعنى: جماعة حقائق، كما تقول: النساء ذهبت. { ما كان لكم {؛ ما صح وما أمكن لكم { أن تُنبِتوا شجرها { فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة، { أَللهُ مع الله {؟ أي: أَللهُ كائن مع الله، الذي ذكرت أفعاله، التي لا يقدر عليها غيره، حتى يُتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ أو: أَللهُ مع الله يفعل ذلك؟ { بل هم قوم يَعْدِلُونَ {؛ بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية، والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم، أو: يعدلون به غيره فيشركونه معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قل الحمد لله، الذي كشف الحجب عن قلوب أوليائه، وسلام على عباده الذين اصطفى لهم لحضرتهم، آله خير، أي: أشهود الله وحده في الوجود خير، أم شهود الغير معه؟، فتشركون في توحيدكم. أمن خلق سموات وأرواحكم، وهياها لشهود الربوبية، وخلق أرض نفوسكم، وهياها لأداب العبودية، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأنبتتنا به في قلوب العارفين بساتين المعرفة، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم، وفي طوقكم، أن تُنبِتوا في قلوبكم شجر المعرفة، ولا ثمار المحبة، أَللهُ مع الله يمن عليكم بذلك؟. بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية؛ لأنها محفوفة بالمكاره النفسية، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان، أهل الهمم العلية. وبالله التوفيق.

@ { أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {

يقول الحق جل جلاله: { أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً { أي: قارة ثابتة، ليستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء، ودجوها وتسويتها، حسيما يدور عليه منافعهم. { وجعل خلالها {؛ أواسطها { أنهاراً { جارية ينتفعون بها، { وجعل لها رواسي { أي: جبلاً ثوابت، تمنعها أن تميد بأهلها، ولتتكون فيها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع. { وجعل بين البحرين { أي: العذب والمالح، أو: خليجي فارس والروم (حاجزاً)؛ برزخاً مانعاً من المعارجة والمخالطة، { أَللهُ مع الله { في الوجود، أو: في إبداع هذه البدائع؟ { بل أكثرهم لا يعلمون { شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة: أم من جعل أرض النفوس قراراً، لتستقر عليها أحكام العبودية، وتتصرف فيها أقدار الربوبية، وجعل خلالها أنهاراً من علوم الشرائع، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحكم والأحكام، وجعل لها جبلاً من العقل لتعرف صانعها ومدبرها، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزاً وبرزخاً، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحباً مبرز بين الحقيقة والشريعة، فيلزمه التكليف، ويعطي كل ذي حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تُشرق على نور قمر العقل شمسُ العرفان، فتغطيه مع وجود صحوه، فيميز بين الحقائق والشرائع، وتكون عبادته أدباً وشكراً. وبالله التوفيق.

@ { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَٰهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }

قلت: الاضطرار: الافتعال من الضرورة، وهي الحاجة المحوجة إلى اللجأ، يقال: اضطره إلى كذا، واسم الفاعل والمفعول: مضطر، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله: { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } ، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان، ألجأته إلى الدعاء والتضرع، كمرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه، أو: المذنب إذا استغفر مبتهلاً، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد، وهو منه على خطر، فهذه أنواع المضطر.

وإجابة دعوته مقيدة بالحديث: " الدَّاعِي عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ، إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ مَا طَلَبَ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخُرَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَإِمَّا يَدْفَعُ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ " وأيضاً: إذا حصل الاضطرار الحقيقي حصلت الإجابة قطعاً، إما بعين المطلوب، أو بما هو أتم منه، وهو الرضا والتأييد { وَيَكْشِفُ السُّوءَ } وهو الذي يعترى الإنسان مما يسؤوه، كضرر أو جور، { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } أي: خلفاء فيها، تتصرفون فيها كيف شئتم، بالسكنى وغيره، وراثه عن من كان قبلكم من الأمم، قرناً بعد قرن: أو: أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. { إِلَٰهَ مَعَ اللَّهِ } الذي يفيض على الخلق هذه النعمان الجسماني، يمكن أن يعطيكم مثلها؟ { قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } أي: تذكر أقل، أو: زماناً قليلاً تتذكرون فيه. و " ما " : مزبدة، لتأكيد معنى القلة، التي أريد بها العدم، أو: ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى. وتذليل الكلام بنفي عدم التذكر منهم إيدان بأن وجود التذكر مركز في ذهن كل ذكي، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاضطرار الحقيقي الذي لا تتخلف الإجابة عنه في الغالب: وهو أن يكون العبد في حال شدته كالغريق في البحر وحده، لا يرى لغيائه غير سيده. و قال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عما دون الله. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي رفع يديه إلى الله تعالى داعياً، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها. هـ. بل يقدم إساءته بين يديه، ليكون دعاؤه بلا شيء يستحق عليه الإجابة، إلا من محض الكرم.

قال القشيري: يقال للجناية: سراية، فَمَنْ كَانَ فِي الْجَنَايَةِ مَخْتَارًا، فَلَيْسَ يَسْلَمُ لَهُ دَعْوَى الاضطرار عند سراية جرمه الذي سلف، وهو في ذلك مختار، فأكثر الناس أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما بَرَزَ مِنْهُمْ فِي جَالِ اخْتِيَارِهِمْ، وَمَا دَامَ الْعَبْدُ يَتَوَهَّمُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْحَيْلِ، وَيَرَى لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْأَسْيَابِ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَنْدُ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ بِمُضْطَرٍّ، إِلَّا أَنْ يَرَى نَفْسَهُ كَالْغَرِيقِ فِي الْبَحْرِ، وَالصَّالِّ فِي الْمَتَاهَةِ.

والمضطر يرى غيائه بيد سيده، وزمّامه في قبضته، كالميت في يد غاسيله، ولا يرى لنفسه استحقاقاً في أن يجاب، بل اعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه في ديوان السعادة، ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحدٍ في أن يدعو له؛ لأن الله وَعَدَّ الإجابة له؛ لا من يدعو له.

وبحث معه المحشي الفاسي في بعض ألفاظه، فانظره.

قوله تعالى: { ويكشف السوء } : أي: ما يسوء القلب وبحجبه عن مولاه، من أكدار وأغيار، وقوله: { ويجعلكم خلفاء الأرض } أي: تتصرفون في الوجود بأسره، بهمتكم، إن زال غم الحجاب عنكم، وشاهدتم ربكم بعين بصيرتكم وبصركم؛ لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر، بعد فتح البصيرة، غطى نوره، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة؛ من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة الله في أرضه، يُملكه الوجود بأسره وما ذلك على الله بعزيز.

@ { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ليلاً، وبعلامات في الأرض نهاراً؟ أو: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ إِلَى سَلُوكِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُوصِلُكُمْ إِلَى مَقْصِدِكُمْ، وَأَنْتُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، سِوَاكُمْ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ؟ فَلَا هَادِيَ إِلَيْ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. { وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ } ، أو بالأفراد. { تُبَشِّرُ } بالنون - أي: تنشر السحاب إلى الموضع الذي أمر الله بإنزال المطر فيه، أو { بُشْرًا } - بالباء - أي مبشرة بالمطر، { بين يدي رحمته }؛ فذام المطر، علامة عليه، { أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ } يفعل ذلك؟ { تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } . وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلية الحكم، أي: تَعَالَى اللَّهُ وَتَنَزَّهَ بِذَاتِهِ الْمُنْفَرِدَةِ بِالْأَلُوْهِيَةِ، الْمُقْتَضِيَةِ لَكُونَ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ مَقْهُورًا تَحْتَ قُدْرَتِهِ، عَنْ وَجُودِ مَا يُشْرِكُونَهُ بِهِ تَعَالَى.

الإشارة: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ إِلَى حُلِّ مَا أَشْكَلُ عَلَيْكُمْ، وَأَظْلَمْتُمْ مِنْهُ قُلُوبَكُمْ، مِنْ عِلْمِ بَرِّ الشَّرَائِعِ. وَبِحَرِّ الْحَقَائِقِ، فَيَهْدِيكُمْ فِي الْأَوَّلِ إِلَى كَشْفِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَفِي الثَّانِي إِلَى كَشْفِ الْغَطَاءِ وَرَفْعِ الْحِجَابِ، أَوْ: فِي الْأَوَّلِ إِلَى عِلْمِ الْبَيَانِ، وَفِي الثَّانِي إِلَى عَيْنِ الْعِيَانِ بِالذُّوقِ وَالْوُجُودِ. أَوْ: فِي الْأَوَّلِ إِلَى عِلْمِ الْيَقِينِ، وَفِي الثَّانِي إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ وَحَقِّ الْيَقِينِ. وَمَنْ يُرْسِلُ رِيَّاحَ الْوَارِدَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، بِشَارَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِالْوُصُولِ إِلَى حَضْرَتِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْخَاصُّ. وَلِذَلِكَ خَتَمَهُ بِقَوْلِهِ: { تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } مِنْ رُؤْيَةِ وَجُودِ السُّوَى.

@ { أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } * { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }

قلت: " من " : إما فاعل يعلم، و " الغيب " : بدل منه، و " الله " : مفعول، و " إلا الله " : بدل على لغة تميم، أي: إبدال المنقطع، وإما مفعول يعلم، و " الغيب " بدل منه (والله): فاعل، والاستثناء: مفرغ.

يقول الحق جل جلاله: { أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ } أي: ينشئ الخلق { ثُمَّ يُعِيدُهُ } بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم: { ثُمَّ يُعِيدُهُ } وهم منكرون للإعادة؛ لأنهم أزيحت شبهتهم بالتمكن من المعرفة، والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار. { وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ

{ السماء } بالمطر { والأرض } أي: ومن الأرض بالنبات، أي: يرزقكم بأسباب سماوية وأرضية، قد رتبها على ترتيب بديع، تقضيه الحكمة التي عليها بني أمر التكوين، { إله مع الله } يفعل ذلك؟ { قل هاؤوا برهاتكم } أي: حجتكم، عقلية أو نقلية، على إشراككم، { إن كنتم صادقين } في دعوكم أن مع الله إلهاً آخر.

{ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله } ، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة، عَقَّبَ بذكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة - رضي الله عنها - : (من رَعِمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي عَدِيٍّ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: { قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله }).

دخل على الحجاج مُنَجَّم، فأخذ الحجاج حصياتٍ، قد عدَّها، فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب، فأصاب، ثم اغتفله الحجاجُ، فأخذ حصيات لم يعدها، فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب، فأخطأ، فقال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها في يدك، فقال: ما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذلك أحصيته فخرج من حد الغيب، فحسبتُ فأصبتُ، وإن هذا لم تعرف عدته، فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

ومن جملة الغيب: قيام الساعة، ولذلك قال: { وما يشعرون أيان يُبعثون } أي: متى ينتشرون من القبور، مع كونه مما لا بد لهم منه، ومن أهل الأمور عندهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرزق ثلاثة: رزق الأشباح، ورزق القلوب، ورزق الأرواح، فرزق الأشباح معلوم، ورزق القلوب: اليقين والطمانينة، ورزق الأرواح: المشاهدة والمكالمة. قُلْ من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه، ولا برهان على وجود ما سواه، ولا يعلم الغيب إلا الله. أو: من كان وجوده بالله قد غاب في نور الله، فَسَهَّدَ الغيب بالله. والله تعالى أعلم.

@ { بَلِ ادَّارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ } * { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّا لَمُحْرَجُونَ } * { لَقَدْ وَعَدْنَا هَادًا تَحْنُ وَآبَاءُنَا مِن قَبْلُ إِن هَادًا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }

قلت: قرأ الجمهور: " ادَّارِكْ " بالمد، وأصله: تدارك، فأدغمت التاء في الدال، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: " ادرك " ، وأصله: افتعل، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: " أدرك " أفعل.

يقول الحق جل جلاله: { بل ادرك } أي: تدارك وتناهى وتتابع أسباب { عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ } أي: بالآخرة، أو: في شأنها، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية، والهجج العقلية، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين، { بل هم في شك منها } ، والمعنى: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، بما تتابع لهم من الدلائل. زمع ذلك لم يحصل لهم شيء من علمها،

بل شكوا. أو: أدرك علمهم، بمعنى: يدركهم في الآخرة حين يروون الأمر عياناً، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. { بل هم } اليوم { في شكٍ منها بل هم منها عَمُونَ } لا يُبصرون دلائلها، ولا يلتفتون إلى العمل لها. والإضرابات الثلاثة تنزّل لأحوالهم، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها، ثم بأنهم يخبطون في شكٍ ومربة، ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى، وجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، فلذا عداه بـ " من " دون " عن "؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التفكير والتدبر.

ووجه اتصال مضمون هذه الآية - وهو وصف المشركين - بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء بذلك: هو أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بياناً لعجزهم، ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه - وهو وقت بعثهم، ومجازاتهم على أعمالهم: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، لا محالة. هـ. قاله النسفي.

{ وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وآبائنا أننا لمخرجون } أي: أُخرج من القبور أحياء إذا صرنا تراباً وآبائنا. وتكرير الاستفهام في " أنذا " و " أننا " في قراءة عاصم، وحمزة؛ وخلف، إنكار بعد إنكار، وجحود بعد جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل في (إذا): ما دل عليه { لمخرجون } وهو: تُخرج، لا مخرجون، لموانع كثيرة. والضمير في " أننا " لهم ولآبائهم.

{ لقد وعدنا هذا } البعث { نحن وآبائنا من قبل }؛ من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، قدّم هنا " هذا " على " نحن " وفي المؤمنون قدّم " نحن "؛ ليدل هنا أن المقصود بالذكر هو البعث وشمّ المبعوث؛ لأن هنا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيراً، فاعتنى به بخلاف " ثم ".
ثم قالوا: { إن هذا إلا أساطير الأولين }؛ ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا، ورب الكعبة.

الإشارة: العلم بالآخرة يقوى بقوة العلم بالله، فكلما قوي اليقين في جانب الله قوي اليقين في جانب ما وعد الله به؛ من الأمور الغيبية، فأهل العلم بالله الحقيقي أمور الآخرة عندهم تُصب أعينهم، واقعة في نظرهم؛ لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضي الله عنه حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ما حقيقة إيمانك؟ " فقال: يا رسول الله؛ عرقت الدنيا من قلبي، فاستوى عندي وذهبا ومدرها. ثم قال: وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يتعاونون فيها، فقال له صلى الله عليه وسلم: " قد عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه " اللهم تَوّر قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة، حتى نلقاك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

@ { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } * { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } * { وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } *

{ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } * { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { قُلْ } لهم: { سيروا في الأرض فانظر كيف كانت عاقبة المجرمين } بسبب تكذيبهم للرسول - عليهم السلام - فيما دعوههم إليه من الإيمان بالله - عز وجل - وحده، واليوم الآخر، الذي ينكرونه، فإن في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولي البصائر. وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين، لطف بالمسلمين، بترك الجرائم، وحث لهم على الفرار منها، كقوله:
{ قَدَّمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ }
[الشمس: 14] و{ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا }
[نوح: 25].

ثم قال لنبه صلى الله عليه وسلم: { ولا تحزن عليهم } أي: لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يُسَلِّمُوا قَبَسَلْمُوا. { ولا تكن في ضيق }؛ في حرج صدر { مما يمكرون }؛ من مكرهم وكيدهم، أي: فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق ضيقاً - بالفتح والكسر.

{ ويقولون متى هذا الوعدُ } أي: وعد العذاب التي تعدنا، إن كنت من الصادقين في إخبارك بإتيانه على من كذب، والجملة باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك. { قل عسى أن يكون رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } أي: تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب، فقيل لهم: عسى أن يكون رَدِفَ، أي: قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر، واللام زائدة للتأكيد. أو: ضمَّن الفعل معنى يتعدى باللام، نحو: دنا لكم، أو: أزف لكم. وعسى ولعل وسوف، في وعد الملوك ووعيدهم، يدل على صدق الأمر، وجده، وعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

{ وإن ربك لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } أي: إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه: تأخير العقوبة عن هؤلاء، بعد استعجالهم لها، { ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } أي: أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرونها، فيستعجلون بجهلهم وقوع العذاب، كدأب هؤلاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكير والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجل ما يتفكر فيه الإنسان: ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان، من تجرع كأس الجمام، قبل النزوع والإقلاع عن الإجرام، فندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلت بهم القدم، فلا ما كانوا أمَلُوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم، لئلا يجري عليه ما جرى عليهم، وليبادر بالتوبة إلى ربه، وليشهد يده على أوقات عمره، قبل أن تنقضي في البطالة والتقصير، فيمضي عمره سهلاً. والله در القائل:

السَّبَّاقِ السَّبَّاقِ قَوْلًا وَفِعْلًا حَدَّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمُسْتَبُوقِ
قال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: رؤي بعضهم مجتهداً، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بالجهد، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو

للعارف، إذا رأى إدبار الناس عن الله، وإقبالهم على الهوى: { ولا تحزن عليهم.. } الآية.

@ { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } * { وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ } أي: تخفي { صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } أي: يُظهرون من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه، ولكن له وقت مقدار، فيمهلهم إليه. أو: إن ربك ليعلم ما يخفون وما يُعلنون من عداوتك ومكائدهم لك، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه. وقرئ بفتح التاء، من: كنت الشيء: سترته.

{ وما من غائبة في السماء والأرض } أي: من خافية فيهما { إلا في كتاب مبين } في اللوح المحفوظ. يُسمى الشيء الذي يخفى ويعيب غائبه وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العاقبة والعافية. ونظائرهما، وهي أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتأوهُما للمبالغة، كالرواية. كأنه قال: وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأتته في اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك: تعجيل عقوبتهم، ولكن لكل شيء أجل معلوم، لا يتأخر عنه ولا يتقدم. ولولا ذلك لَعَجَلْ لهم ما استعجلوه. والمُبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة: أو: مبين لما فيه من تفاصيل المقدورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حث على مراقبة العبد لمولاه، في سر وعلانيته، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير، ولا يجول بقلبه فيما يستحي أن يظهره لغيره، إلا أن يكون خاطراً ماراً، لا ثبات له، فلا قدرة للعبد على دفعه. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } * { وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } * { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } * { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } * { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ } * { وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } من أمر الدين الذي اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه: المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العند والغلو في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم المناكرة في أشياء، حتى لعن بعضهم بعضاً. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، لو أنصفوا وأخذوا به، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى، وإن كانت الآية خاصة باليهود. { وإنه } - أي: القرآن { لهدي ورحمة للمؤمنين } على الإطلاق، فيدخل فيهم من آمن من بني إسرائيل دخولاً أولياً.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ } أي: بين بني إسرائيل، أو: بين من آمن بالقرآن ومن كفر به، { بِحُكْمِهِ } أي: بعدله؛ لأنه لا يحكم إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكماً. أو: بحكمته، ويدل على قراءة من قرأ " بِحُكْمِهِ " جمع: حكمة؛ لأن أحكامه تعالى كلها حكيم بديعة. }

وهو العزيزُ { ، فلا يُرَدُّ حُكْمُهُ وقضاؤه، { الْعَلِيمُ } بجميع الأشياء، ومن جملتها: من يقضي له ومن يقضي عليه. أو: العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بين المختلفين.

{ فتوكلْ على الله } ، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شؤونه - عز وجل - فإنها موجبة للتوكل عليه، داعية إلى الأمر به، أي: فتوكل على الله الذي هذا شأنه. وهذه أوصافه، فإنه موجب لكل أحد يتوكل عليه، ويفوض جميع أموره إليه. أو: فتوكل على الله ولا تُبالي بأعداد الدين. { إنك على الحق المبين } ، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق الأبلج، وهو الدين الواضح الذي لا يتطرقه شك ولا ريب.

وفيه تنبيه على أن أصحاب الحق حقيق بالوثوق بالله في نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن، بنفي ما رموه من كون أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعّد الرامين له بحُكْمِهِ عليهم بما يستحقونه، ثم أمره بالتوكل عليه في كفايته أمرهم ومكرهم.

ثم بيّن سبب طعنهم في القرآن، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك؛ لكونهم موتى صمّاً، لا حياة لهم ولا سمع استبصار، قال تعالى: { إنك لا تُسمع الموتى } ، شَبَّهُوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم من القوارع والزواجر، { ولا تُسمع الصمّ الدعاء } أي: الدعوة إلى أمر من الأمور { إذا ولوا مدبرين } عنك. وتقييد النفي بالإدبار؛ لتكميل التنبيه وتأكيد النفي، فإنهم مع صمّهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء، مع كون الداعي بمقابلة صماخة، قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه؟.

{ وما أنت بهادي العُمية عن ضلالتهم } هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى:
{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ }

[القصص:56]؛ فإن الاهتداء منوط بالصبر في الحس، وبالبصيرة في المعنى. ومَن فقدهما لا يتصور منه اهتداء، و " عن " متعلق بهادي؛ باعتبار تضمنه معنى الصرف، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية. { إن تُسْمِعْ } أي: ما تُسمع سماعاً يجدي السامع وينفعه { إلا من يؤمن بآياتنا } أي: من عَلِمَ الله أنهم يؤمنون بآياته. { فهم مسلمون }؛ مخلصون، من قوله:
{ بَلِّغْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ }
[البقرة: 112] أي: جعله سالماً لله خالصاً. جعلنا الله ممن أسلم بكلية إليه. آمين.

الإشارة: إذا وقع الاختلاف في الأحكام الظاهرة، وهي ما يتعلق بالجوارح الظاهرة، رُجِعَ فيه إلى الكتاب العزيز، أو السنّة المحمدية، أو الإجماع، أو القياس، وإن وقع الاختلاف في الأمور القلبية، وهي ما يتعلق بالعقائد التوحيدية، من طريق الأذواق أو العلوم، يُرْجَع فيه إلى أرباب القلوب الصافية، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع

عروق الشكوك والأوهام، والوساوس من القلوب المُسوسة، إلا بالرجوع إليهم وصحتهم، ومن جمع بين الظاهر والباطن، رجع إليه في الأمرين معاً.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه كان يُناظر جماعة من المعتزلة، ليردهم إلى الحق، فدخل عليه رجل من القراء، يُقال له: أبو مروان، فسلم عليه، فقال له الشيخ: اقرأ علينا آية من كتاب الله، فأجرى الله على لسانه، من غير قصد، قوله تعالى: { فتوكل على الله إنك على الحق المبين } إلى قوله: { ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون } فتهلل وجه الشيخ، وقال: ما بعد بيان الله من بيان، فتابوا واهتدوا إلى الحق، ورجعوا عن مذهبهم، وشفا الله قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين بالله، جعلهم الله شفاء من كل داء، لكن الأعمى والأصم لا يُبصر الداعي، ولا يسمع المنادي. ولذلك قال تعالى: { فإنك لا تُسمع الموتى.. } إلخ: قال الورتجبي: الميت: من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل، والأصم: من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهوته. هـ.

@ { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { وإذا وقع القول عليهم } أي: وقع مصداق القول الناطق بمجيء الساعة، بأن قُرْب إتيانها، وظهرت أشراطها، فأراد بالوقوع: دنوه واقترابه، كقوله:

{ أَتَا أُمَّرُ اللَّهِ ... } {

[النحل: 1] رُوي أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يُؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب. و " وقع " : عبارة عن الثبوت واللزوم، وهذا بمنزلة:

{ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } {

[الزمر: 19] أي: وإذا انتجز وعد عذابهم التي تضمنه القول الأزلي، وأراد أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب، أخرج لهم دابة من الأرض. وفي الحديث: " إن الدابة، وطلوع الشمس من المغرب، من أول الأشراف " .

فلا ينبغي لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها، التي لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن، مع ظهور مقدماتها، فضلاً عنها. فإذا وقع الوعد وَسَمَت الدابة مَنْ لم يؤمن بِسِمة الكفر، وكان ذلك طبعاً وختماً، فلا يقبل منه إيمان، ويقال له: أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيباً، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عيناً وهذا معنى قوله: { أخرجنا لهم دابة من الأرض } ، وهي الجساسة، طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هارِبٌ، لها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان. وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيل، وعنق نعامة، وصدر أسيد، ولون نمر، وخاصرة هرة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المِفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية، فتقول { أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون } أي: بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: " تأتي الدابة المؤمن، فتسلم عليه، وتأتي الكافر فتخطه - أي تسمه - في وجهه ". وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا خَاتَمٌ سُلَيْمَانٍ، وَعَصَا مُوسَى، فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ، وَتَخْتُمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْجَوَاءِ مَجْتَمِعُونَ، فيقول: هاها يا مؤمن، ويقول: هاها يا كافر " وهي بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا وقع القول على قوم بإسدال الحجاب، وإدامة غلق الباب، أخرج لهم جاهل بالله، يكلمهم بادعاء التربية، فيأخذون عنه، ويقتدون به. قال في المباحث:

واعلم بأن عُصبة الجُهل بهائم في صور الرجال فالجاهد بالله دابة في الأرض: أن الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا - وهم العلماء بالله، أهل الشهود والعيان - لا يُوقنون بوجودهم، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد الله تعب عبد، وإبقاءه في غم الحجاب، ألقاه إلى شيخ جاهل بالله، أو: إلى ميت يتخذه شيخاً، ويفنى محبته، فلا يرجى فلاحه في طريق الخصوصية، ما دام مقيداً به، فإن تركه واقتدى بالعارف الحي، فقد هياه لرفع الحجاب. وبالله التوفيق.

@ { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُورَعُونَ } * { حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } * { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ } * { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

قلت: " ماذا " تأتي على أوجه؛ أحدها: أن تكون " ما " استفهاماً، و " ذا " إشارة نحو: ماذا التواني. الثاني: أن تكون " ما " استفهاماً، و " ذا " موصولة، كقول لبيد:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ؟ أَتَحْبُّ فَيُقْضَى، أَمْ ضَلَّالٌ وَبَاطِلٌ؟
الثالث: " ماذا " كله: استفهام على التركيب، كقولك: لماذا جئت؟. الرابع: أن تكون " ماذا " كله: اسم جنس بمعنى شيء، أو: بمعنى " الذي " كقوله: دعني ماذا علمت؟، وتكون " ذا " زائدة. انظر القاموس.

يقول الحق جل جلاله: { و { اذكر { يوم نحشر من كل إمة فوجاً } ، الفوج، الجماعة الكثيرة. و " مِنْ " : للتبعيض، أي: واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة { ممن يكذب بآياتنا } ، " مِنْ " : لبيان الفوج، أي: فوجاً مكذبين بآياتنا، المنزلة على أنبيائنا، { فهم يُورَعُونَ } : يُحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا، حين يُساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافهم، والمراد بهذا الحشر: الحشر للعذاب، والتوبيخ والمناقشة، بعد الحشر الكلي، الشامل لكافة الخلق.

وعن ابن عباس: (المراد بهذا الفوج: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، يُساقون بين يدي أهل مكة) وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

{ حتى إذا جاؤوا } إلى موقف السؤال والجواب، والمناقشة والحساب، { قال } أي: الله عز وجل، موبخاً لهم على التكذيب: { أكذبتهم بآياتي } المنزلة على رسلي، الناطقة

بلقاء يومكم، { و } الحال أنكم { لم تُحيطوا بها علماً } أي: أكذبتكم بها في بادئ الرأي، من غير فكر، ولا نظر، يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً. وهذا نص في أن المراد بالآيات في الموضوعين هي الآيات القرآنية. وقيل: هو عطف على " كذبتكم " ، أي: أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. { أم ماذا كنتم تعملون }؟ حيث لم تتفكروا فيها، فإنكم لم تُخلقوا عبثاً. أو: أيُّ شيء كنتم تعملون، استفهام، على معنى استبعاد الحجج، أي: إن كانت لكم حجة وعمل فهاتوا ذلك. وخطابهم بهذا تبكيت لهم. ثم يُكيون في النار، وذلك قوله تعالى: { ووقع القول عليهم } أي: حل بهم العذاب، الذي هو مدلول القول الناطق بحلولة ونزوله، { بما ظلموا }؛ بسبب ظلمهم، الذي هو تكذيبهم بآيات الله { فهم لا ينطقون }؛ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث، وما ينشأ بعد ذلك، بقوله: { ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه } ، الرؤية هنا قلبية، أي: ألم يعلموا أننا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار. والنهار مبصراً { أي: يُبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق القلب في أمور المعاش. وبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس، حالاً له، ووصفاً من أوصافه، بحيث لا ينفك عنها، ولم يسلك في الليل هذا المسلك؛ لأن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير النهار في الإبصار. قاله أبو السعود. قلت: وقد جعله كذلك في قوله: { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا } [الأنعام: 96] فانظره.

{ إنَّ في ذلك لآياتٍ } كثيرة { لقوم يؤمنون }؛ يُصدِّقون، فيعتبرون، فإنَّ من تأمل في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما على وجوه بديعة، مبنية على حكم راقية، تحار في فهمها العقول، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل، المحاكية للموت، بضياء النهار، المضاهي للحياة، وعان في نفسه غلبة النوم، الذي هو يضاهي الموت، وانتباهه منه، الذي هو يضاهي البعث، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

قال لقمان لابنه: يا بُني إن كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام قهراً؛ كذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك؛ كذلك تُبعث بعد موتك هـ. وبالله التوفيق.

الإشارة: يوم تحشر من كل أمة فوجاً يُنكر على أهل الخصوصية، ممن يكذب بآياتنا، وهم العارفون بنا، الدالون علينا، المعرِّفون بنا، فهم يُوزعون: يُجمعون للعتاب، حتى إذا جاؤوا إلينا بقلب سقيم، قال: أكذبتكم بأوليائي، الدالين على حضرتي، بعد التطهير والتهذيب، ولم تُحيطوا بهم علماً، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب، فهم لا ينطقون، ولا يجدون اعتذاراً يُقبل منهم. ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه، ويُبعثون على ما ماتوا عليه، فهلا صحبوا أهل اليقين الكبير، - وهو عين اليقين أو حق اليقين المستفاد من شهود الذات الأقدس - فيكتسبوا منهم اليقين، حتى يموتوا على اليقين ويُبعثوا على اليقين. وبالله التوفيق.

@ { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَفَرَعٌ مِّنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } * { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي آتَقَنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } * { مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ قَفَرَعٍ يَوْمَئِذٍ أَمْوُونَ } * { وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { و { ذكر { يومَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش، حتى يؤمر، قال: قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذي نفسي بيده إن أعظم دارة فيه كعرض السموات والأرض " وفي حديث آخر: " فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة، فيأمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخة، لا يبقى عندها في الحياة أحد، غير من شاء الله تعالى؛ وذلك قوله تعالى: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ } [الزمر: 68]، ثم يؤمر بأخرى، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بُعِثَ " وفي رواية: " فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، فتملأ ما بين السماء والأرض، وتأتي كل روح إلى جسدها، كما تأتي النحل إلى وكرها. وذلك قوله تعالى: { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرًا فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر: 68] "

قال أبو السعود: والذي يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ ها هنا: النفخة الثانية، وفي الفزع في قوله تعالى: { ففزع من في السماوات ومن في الأرض } ما يعتري الكل عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة، الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق، من الرعب والتهيب، الضروريين، الجبلين في كل نفس. وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه مضارعاً؛ للدلالة على تحقيق وقوعه. هـ. وظاهره أن النفخ مرتان فقط، واعتمده القرطبي وغيره، وصحح ابن عطية أنها ثلاث، ورؤي ذلك عن أبي هريرة: نفخة الفزع؛ وهي فزع حياة الدنيا، وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور.

وقوله: { إلا من شاء الله } أي: ألا يفزع، وهو من ثبت الله قلبه، فإن قلنا: المراد بها النفخة الثانية، فالمستثنى: هم من سبق لهم الحسنى، بدليل قوله: { لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ }

[الأنبياء: 103] وإن قلنا: هي نفخة الصعق، فالمستثنى: قيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل: الحور وحملته العرش، وإن قلنا: المراد نفخة الفزع في الدنيا، فالمستثنى: أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى: { وكلُّ أَتَوْهُ } بصيغة الماضي، أي: وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه في موقف الحساب، بين يدي الله جل جلاله، والسؤال والجواب: أو: وكل حاضرهم، على قراءة إسم الفاعل، وأصله: أتوه، حال كونهم { داخرين } صاغرين أدلاء.

{ وترى الجبال } حال الدنيا { تحسبها جامدة }؛ واقفة ممسكة عن الحركة، من: جمد في مكانه: إذا لم يبرح. وهي تمُّ مَرَّ السحابِ { أي: مرّاً مثل مر السحاب، التي تسيرها الرياح، سيراً حثيثاً، والمعنى: أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد؛ لعظمتها، وهي تسير سيراً سريعاً، كالحساب إذا ضربته الرياح، وهكذا الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك: الشمس؛ لعظم جرمها وبُعدها لا تتبين حركتها، مع كونها أسرع من الريح.

والذي في حديث أبي هريرة: أنَّ تسيير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق.

ونص الحديث - بعد كلام تقدم: " فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، فيأمره فيمدها - أي: النفخة - وبطيلها، فيسير الله الجبالا، فتمر مر السحاب، فتكون سرايا، وتترج الأرض بأهلها رجاً، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج، وتقلبها الرياح وهو في قوله: { يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ } [النازعات: 6] الآية، فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين، هاربة من الفزع، حتى تأتي الأقطار هاربة، فتلقاها الملائكة تضرب وجهها وأذبارها، فترجع، ويولي الناس مدبرين، ينادي بعضهم بعضاً، وهو قوله: { يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُبْلَوْنَ مُدْبِرِينَ... } [غافر: 33] الآية فيبينما هم كذلك؛ إذ تصدعت الأرض، من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، لم يروا مثله " ثم قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك " قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله فمن استثنى الله من الفزع؟ قال: " أولئك الشهداء ".

قلت: ومثلهم الأنبياء والأولياء؛ إذ هم أعظم منهم، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام: " وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه ". وهو قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج: 1] إلى قوله:

{ وَلَا كِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }

[الحج: 2] فيمكثون طويلاً، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق من في السموات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا في البرزخ، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: قد مات أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا في البرزخ، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: قد مات أهل السموات والأرض، إلا من شئت، فيقول الله تعالى، وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي القيوم، الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وبقيت أنا، فيقول تعالى: فليمت جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش، فيقول: أي رب يموت جبريل، وميكائيل! فيقول: اسكت، إني كتبت الموت على كل من تحت عرشى، فيموتان. ثم يأتي ملك الموت الجبار، فيقول: أي رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول - وهو أعلم: من بقي؟ بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي إسرافيل، وبقيت أنا.

فيقول: ليمت حملة العرش، فيموتون، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يقول: ليمت إسرافيل، فيموت، ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب؛ قد مات حملة عرشك، فيقول، وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقي، خلقتك لِمَا رأيت، فميت، فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فكان آخراً، كما كان أولاً، طوى السماء طي السجل للكتاب، فيقول: أنا الجبار، { لِمَن المَلِكُ اليوم }؟ فلا يجيبه أحد، ثم يقول تعالى: { لله الواحد القهار } ثم تُبدل الأرض غير الأرض، والسموات يبسطها بسطاً، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً.

ثم قال: ثم ينزل ماء من تحت العرش، كمني الرجل، ثم يأمر الله السحاب أن تمطر أربعين يوماً، حتى يكون فوقهم اثني عشر ذراعاً، ويأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، كما كانت، قال الله تعالى: ليحيى حملة العرش، فيحيون، ثم يقول الله تعالى: ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل، فيحيون، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الله تعالى الأرواح، فيؤتى بها تنوّهج أرواح المؤمنين نوراً، والأخرى ظلمة، فيقبضها، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول تعالى: لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد، مشي السم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراغاً، فأنا أول من تنشق عنه، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون، عراةً، حفاةً، عُرلاً، مهطعين إلى الداعي، فيقول الكافر: هذا يوم عسير. نقله الثعلبي.

ثم قال تعالى: { صنَعَ اللهُ } ، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أي: صنَعَ اللهُ ذلك صنَعاً، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور، وما ترتب عليه جميعاً. قصد به التنبيه على عِظَم شأن تلك الأفاعيل، وتهويل أمرها، والإيدان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم، وإفساد أحوال الكائنات، من غير أن تدعو إليه داعية، بل هي من بدائع صنع الله تعالى، المبنية على أساس الحكمة، المستتعبة للغايات الجليلة، التي لأجلها رتب مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع، على الوجه المتين، والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله: { الذي أتقن كل شيء } أي: أحكم خلقه وسوّاه، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: { إنه خير بما تفعلون } : تعليل لكون ما ذكر صنَعاً محكماً له تعالى؛ لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها، على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزائها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى: { من جاء بالحسنة فله خير منها } : بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزائها عليها، أي: من جاء من أولئك الذين أتوه بالحسنة فله خير منها، باعتبار أنه أضعفها بعشر، أو: باعتبار دوامه وانقضائها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: " الحسنة: كلمة الشهادة " { وهم } أي: الذين جاؤوا بالحسنات { من فرَع يومئذ } أي: من فرع هائل، وهو الفرع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد في قوله تعالى:

{ لَا يَخْرُجُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ }

[الأنبياء: 103].

وقال ابن جريج: حين يُذبح الموت ويُنادى: يا أهل الجنة؛ خلود لا موت، ويا أهل النار؛ خلود لا موت. فيكون هؤلاء { من فزع يومئذٍ } ، أي: يوم إذ ينفخ في الصور وما بعده { آمنون } لا يعتبرهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلاً. وأما الفزع الذي يعتري كل من السموات ومن في الأرض، غير ما استثناه اله تعالى، فإنما هو التهب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة، وإن كان آمناً من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

{ ومن جاء بالسيئة } قيل: هو الشرك. { فكَفَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ، أي: كُتِبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم: { هل تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } في الدنيا من الشرك والمعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون ممن استثنى الله من الفزع والهول، فليكن قلبه معموراً بالله، ليس فيه غير مولاه، ولا مقصود له في الدارين إلا الله، وظاهره معموراً بطاعة الله، متمسكاً بسنة رسول الله، هوأه تابع لِمَا جاء من عند الله، لا شهوة له إلا ما يقضي عليه مولاه، فبهذا ينخرط في سلك أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين سبقت لهم الحسنَى، لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. جعلنا الله من خواصهم، بمنه وكرمه أمين.

وقوله تعالى: { وترى الجبال تحسبها جامدة... } الآية. كذلك قلوب الراسخين في العلم بالله، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية، بل تهزم في الباطن، وظواهرهم ساكنة، كالجبال الراسية، قيل للجنيد: قد كنت تتواجد عند السماع، والآن لا يتحرك فيك شيء؟ فتلى: { وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب }.

وقوله تعالى: { من جاء بالحسنة } أي: بالخصلة الحسنة، وهي المعرفة { فله خير منها } وهو دوام النظرة والحبرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، { ومن جاء بالسيئة } هي الجهل بالله، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ بالله.

@ { إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } * { وَأَنْ أَلْقُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } * { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرَبِّكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: قل لكفار قريش، بعد تبين أحوال المبعث، وشرح أحوال القيامة، بما لا مزيد عليه: { إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة } أي: مكة، أي: إنما أمرني ربي أن أعبد، وأستغرق أوقاتي في مراقبته ومشاهدته، غير مبال بكم، ضللت أم رشدتكم، وما علي إلا البلاغ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، { الذي حَرَّمَهَا } أي: جعلها حراماً آمناً، يأمن الملتجأ إليها، ولا يختلي خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشريف لها بعد تشريف، وتعظيم إثر تعظيم، مع مافيه من الإشعار بعلّة الأمر بعبادة ربها، وأنهم مكلفون بذلك، كما في قوله تعالى:

{ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ {
[قريش: 3، 4]. ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يرى أنهم مع كونها
محرمة أن تنتهك حرمتها، ويلحد فيها بإثم، قد استمروا فيها على تعاطي أفجر الفجور،
وأشنع الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله
أنى يؤفكون. قاله أبو السعود.

ثم قال تعالى: { وله كلُّ شيء } خلقاً وملكاً وتصرفاً، من غير ان يشاركه أحد في
شيء من ذلك، تحقيقاً للحق، وتنبهياً على إن أفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفتيح
والتشريف، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات. { وأمرت أن أكون من المسلمين {
المنقادين له، الثابتين على ما كنا عليه، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم
له تعالى، وانقادوا إليه بالكلية.

{ وإن أتلو القرآن { أي: أواظب على تلاوته، لتتكشف حقائقه الرائقة، المخزونة في
تضاعيفه، شيئاً فشيئاً. أو: على تلاوته على الناس؛ بطريق تكرير الدعوة، وتثنية
الإرشاد، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار
معجزة أخرى.

{ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه { أي: فمن اهتدى بالإيمان به، والعمل بما فيه من
الشرائع والأحكام، فإنما منافع هدايته عائدة إليه، لا إلى غيره. { ومن ضلَّ { بالكفر به،
والإعراض عن العمل بما فيه { فقل } في حقه: { إنما أنا من المنذرين } وقد خرجت
من عهد الإنذار، فليس عليّ من وبال ضلّته شيء. قال الصفاقسي: جواب " من " :
محذوف، يدل عليه ما قبله، أي: فوبال ضلاله عليه، أو: يكون الجواب: " فقل " ، ويقدر
ضمير عائد من الجواب إلى الشرط؛ لأنه اسم غير ظرف، أي: من المنذرين له. هـ.

{ وقل الحمد لله { على ما أفاض عليّ من نعمائه، التي أجلها نعمة النبوة، المستتعبة
لفنون النعم الدينية والدينية، ووفقني لتحمل أعبائها، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى،
بالآيات البينة والبراهين النيرة، { سيُرِيكُمْ آياته } قطعاً في الدنيا، التي وعدكم بها،
كخروج الدابة وسائر الأشراف، { فتعرفونها } أي: فتعرفون أنها آيات الله، حين لا
تنفَعكم المعرفة، أو: سيضطرركم إلى معرفة آياته، والإقرار بأنها آيات الله حين ظهورها،
{ وما ربك بغافل عما تعملون } ، بل محيط بعمل المهتدي والصال، غير غافل، فيجازي
كلاً بما يستحقه.

وتخصيص الخطاب أولاً به - عليه الصلاة والسلام - وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً، أي: وما
ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم - أيها الكفرة - من السيئات،
فيجازي كلاً بعمله. ومن قرأ بالغيب فهو وعيد محض، أي: وما ربك بغافل عن أعمالهم،
فسيعذبهم ألبتة، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل يمهل ولا
يهمل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره، أو: العالم من تدريسه وتعليمه، أقبل على
عبادة ربه، إما عبادة الجوارح الظاهرة، من صلاة وذكر وتلاوة، أو عبادة القلوب، كتفكر
واعتماد، أو استخراج علوم وحكم ودرر. وإما عبادة الأرواح، كنظرة وفكرة وشهود
واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال، فمن اهتدى إليها فلنفسه، ومن ضل عنها

فقل إنما أنا من المنذرين. والحمد لله رب العالمين - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

#سورة القصص §#

@ { طسم } * { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } * { تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { طسم } ، إما مختصرة من أسماء الله تعالى، أقسم على حقيته كتابه، وما يتلى فيه، كأنها مختصرة من طهارته - أي: تنزيهه - وسيادته، ومجده، أو: من أسماء رسوله - وهو الأظهر - أي: أيها الطاهر السيد المجيد { تلك آيات الكتاب المبين } ، إما من بان، أو: أبان، أي: بين خيره وبركته، أو مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، { تتلو عليك من نبا موسى وفرعون } أي: بعض خبرهما العجيب. قال القشيري: كرر الحق قصة موسى؛ تعجيباً بشأنه، وتعظيماً لأمره، ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن، ثم أفاد زوائد من الذكر في كل موضع يكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، ففيه تسليية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ووعد جميل له ولأمته. وقوله: { بالحق } : حال من فاعل { تتلو } ، أو: من مفعوله، أو: صفة لمصدر محذوف، أي ملتبسين، أو: ملتبساً بالحق، أو: تلاوة ملتبسة بالحق. { لقوم يؤمنون }؛ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم، فهو متعلق بتتلو. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقديم هذه الرموز، قبل سرد القصص، إشارة إلا أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره، وَيُلقَى سَمْعَهُ، وهو شهيد، فحينئذ يكون طاهراً سهداً مجيداً ينتفع بكل شيء، ويزيد إلى الله بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقي؛ لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَجِيبُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } * { وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } * { وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ } ، وهو استئناف بياني، وكأن قائلاً قال: وكيف كان نبأهما؟ فقال: إنه علا في الأرض، أي: تجبر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحد في الظلم والعدوان. أو: علا عن عبادة ربه، وافتخر بنفسه، ونسي العبودية. وفي التعبير بالأرض تكييت عليه، أي: علا في محل التذلل والانخفاض، { وجعل أهلها شيعاً } أي: فرقاً وأصنافاً في الخدمة والتسخير، كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. وقيل: ملك القبط واستعبد بني إسرائيل. أو: فرقاً مختلفة، يكرم طائفة وبهين أخرى، فأكرم القبط، وأهان بني إسرائيل. { ويستضعف طائفة منهم } وهم بنو إسرائيل، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله: { وجعل أهلها } لا يخص بني إسرائيل.

{ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ } الذكور، { ويستحيي نساءَهُمْ } أي: البنات، يتركهم لخدمته.

وسبب ذبحه للأبناء أن كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يده، وفيه دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل؛ إذ لا ينفع حذر من قدر، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة: { يستضعف } حال من الضمير في { جعل } ، أو صفة لشييع، أو استئناف. { إنه كان من المفسدين } ، أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة، ومن قتل المعصومين من أولاد الأنبياء - عليهم السلام.

{ ونريد أن تَمَنَّ } أي: نتفضل { على الذين اسْتُضِعِفُوا في الأرض } على الوجه المذكور بالقتل والتسخير. وهذه الجملة معطوفة على: { إن فرعون } ، أو: حال من { يستضعف } ، أي: يستضعفهم فرعون ونحن نُريد أن نمَنَّ عليهم، وإرادة الله تعالى كائنة لا محالة، فَجَعَلْتُ كالمقارنة لاستضعافهم، { ونجعلهم أئمةً } أي: قادة يُقتدى بهم في الخير، أو: دعاة إلى الخير، أو: ولاةً وملوكاً، { ونجعلهم الوارثين } أي: يرثون فرعون وقومه، مُلكهم وكل ما كان لهم.

{ وتُمْكِنُّ لهم في الأرض }؛ أرض مصر والشام، يتصرفون فيها كيف شاؤوا، وتكون تحت مُلكهم وسلطانهم. وأصل التمكين: أن يجعل لهم مكاناً يقعد عليه، ثم استعير للتسليط والتصرف في الأمر. { وتُري فرعون وهامان وجنودَهُما منهم }؛ من بني إسرائيل، { ما كانوا يحذرون }؛ يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر التوقي من الضرر. ومن قرأ (يري)؛ بالياء ففرعون وما بعده فاعل. وبالله التوفيق.

الإشارة: العلو في الأرض يُورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان، والعيش في العافية والأمن؛ من تواضع رفعه الله، ومن تكبر قصمه الله. وهذه عادة الله في خلقه، بقدر ما يذل في جانب الله يعزه الله، وبقدر ما يفتقر يغنيه الله، بقدر ما يفقد يجد الله. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليه بالفقد حتى وجدوا. وبالله التوفيق.

@ { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } * { قَالَتْ قَطِئْتُ أَلَّ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } * { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تُقْلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وأوحينا إلى أم موسى }؛ بالإلهام، أو بالرؤيا، أو بإخبار ملك كما كان لمريم، وليس هذا وحى رسالة، فلا يلزم أن تكون رسولا، واسمها: يوحانة، وقيل: بوخابذ بنت يسهز بن لاوي بن يعقوب. وقيل: يارخا. ذكره في الإتيان. وقلنا: { أن أرضعيه }؛ " أن " مفسرة، أي: أرضعيه، أو: مصدرية، بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه، { فإذا خفت عليه } من القتل { فألقيه في اليم } . البحر، وهو نيل مصر، { ولا تخافي }

عليه من الغرق والضياع، { ولا تحزني } لفراقه، { إنا رادوه إليك } بوجه لطيف؛
لثريبه، { وجاعلوه من المرسلين }. وفي هذه الآية: أمران، ونهيان، وخبران،
وبشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن؛ أن الخوف: غم يلحق الإنسان لِتَوَقُّعِ مكروهه، والحزن: غم
يلحق الإنسان لواقع أو ماضي، وهو الآن فراقه والإخطار به. فنُهيت عنهما، وبُشرت
برده وجعله من المرسلين. رُوي أنه ذبح، في طلب موسى، تسعون ألف وليد. ورُوي
أنها حين ضربها الطلق - وكانت بعض القوابل من الموكلات بحبالي بني إسرائيل
مَصَافِيَةً لها، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، ودخل حُبُه قلبها،
فقال: ما جئتُ إلا لأقتل ولدك وأخبر فرعون، ولكن وجدت لابنك حياً ما وجدت مثله،
فاحفظيه، فلما خرجت القابلة، جاءت عيون فرعون فلقته في خرقة، ووضعته في تنور
مسجور، ولم تعلم ما تصنع؛ لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فخرجوا،
وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه
برداً وسلاماً. فلما ألح فرعون في طلب الولدان، أوحى الله إليها بإلقائه في اليمِّ،
فألقت في اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

رُوي أنها لفته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً من خشب، وقيل: من بردى، وسدت عليه
بقفل، وأسلمته؛ ثقة بالله وانتظاراً لوعده سبحانه. قال ابن مخلص: ألقت في البحر
بالغداة، فرده إليها قبل الظهر. حُكي أن فرعون كانت له بنتٌ برصاء، أعتت الأطباء،
فقال الأطباء والسحرة: لا تبرا إلا من قبل البحر، يؤخذ من شبه الإنسان، فيؤخذ من
ريقه وتلطح به برصها، فتبرأ، فقعد فرعون على شفير النيل، ومعه أسية امرأته، فإذا
بالتابوت يلعب به الموج، فأخذ له، ففتحوه، فلم يطيقوا، فدنت أسية، فرأت في وجه
التابوت نوراً لم يره غيرُها، لِذِي أراد الله أن يكرمها، ففتحه، فإذا الصبي بين عينيه نور،
وقد جعل الله رزقه في إبهامه، يمصه لبناً، فأحبهت أسية وفرعون، فلطخت بنت فرعون
برصها فبرئت، فقبَّلتها وضمته إلى صدرها. فقال بعض القواد من قوم فرعون: نطن هذا
المولود الذي نحذر منه، فهم فرعون بقتله - والله غالب على أمره - فقالت: أسية:
{ قرة عين لي ولك. .. } الآية.

وهذا معنى قوله: { فالتقطه آل فرعون }؛ أخذه. قال الزجاج: وكان فرعون من أهل
فارس، من إصطخر. والالتقاط: وجدان الشيء من غير طلب ولا إرادة، ومنه: اللقطة،
لما وُجد ضالاً. وقوله: { ليكون لهم عدواً وحزناً } أي: ليصير الأمر ذلك، لا أنهم أخذوه
لهذا، فاللام للضرورة؛ كقولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب. وقال صاحب الكشاف: هي
لام " كي " التي معناها التعليل، كقولك: جئت لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها وارد
على طريق المجاز؛ لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطم له، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل
الفعل لأجله. هـ. وتسمى بالاستعارة التبعية.

وفي " الحزن " لغتان؛ الفتح، والضم، كالعدم والعدم.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } ، أي: مذنبين، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم، ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم. أو: كانوا خاطئين في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم.

{ وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ } ، لما هم فرعون بقتله - لقول القواد: هو الذي نحذر هو: { قَرُّ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } ، فقال فرعون: لك، لا لي. قال صلى الله عليه وسلم: " لو قال مثل ما قالت لهداه الله مثل ما هداها " ، وهذا على سبيل الفرض، أي: لو كان غير مطبوع عليه الكفر لقال مثل قولها. ثم قالت: { لَا تَقْتُلُوهُ } ، خاطبته خطاب الملوك، أو خاطبت القواد.

{ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا }؛ فإن فيه مَخَائِلَ الْيُمْنِ ودلائل النفع، وذلك لِمَا عَائِنَتْ من النور وبرء البرصاء. { أو نتخذ ولدًا }؛ أو: نتبناه؛ فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى: { وهم لا يشعرون } ما يكون من أمره وأمرهم، أو: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، أو: لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لمن يعالج تربية مريد: أرضعه من لبن علم الغيوب، فإذا خفت عليه الوقوف مع الشرائع، فألقه في اليم؛ في بحر الحقائق، ولا تخف ولا تحزن، إنا رادوه إلا بر الشرائع، ليكون من الكاملين، لأن من غرق في بحر الحقيقة، على يد شيخ كامل، لا بد أن يخرج إلى بر الشريعة، ويسمى البقاء، وهو القيام برسم الشرائع، فالبقاء يطلب الفناء، فمن تحقق بمقام الفناء؛ فلا بد أن يخرج إلى البقاء، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } ، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى الشيء ولا يعتمدون على شيء؛ لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر، وقد ينتفع على أيدي الأعداء، وَيُضَرُّ عَلَى أَيْدِي الْأَجْبَاءِ، فليكن العبد سلماً بين يدي سيده، ينظر ما يفعل به. { والله يعلم وأنتم لا تعلمون }.

@ { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } * { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وَأَصْبَحَ } أي: صار: { فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا } من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه، أو: فارغاً: خالياً من العقل؛ لِمَا دَهَمَهَا مِنَ الْحَزَنِ وَالْحَيْرَةِ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويؤيده قراءة ابن محيصن: " فزعاً "؛ بالزاي بلا ألف، أو: فارغاً من الوحي الذي أوحى إليها أن تلقيه في اليم، ناسياً للعهد أن يرده إليها، لما دَهَمَهَا مِنَ الْوَجْدِ، وقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى وأغرقته أنت. وبلغها أنه وقع في يد فرعون، فعظم البلاء، { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ }؛ لتبوح به وتظهر شأنه وأنه ولدها.

قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت؛ كادت تصيح وتقول: يا ابناه، وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله، فكادت تقول: يا ابناه؛ شفقة عليه. و " أن " مخففة، أي: إنها كادت لتظهره { لولا أن ربطنا على قلبها }. والربط: تقويته؛ بإلهام الصبر والتثبيت، { لتكون من المؤمنين }؛ من المصدقين بوعدنا، وهو: { إنا رادوه إليك }. وجواب " لولا " محذوف، أي: لأبدته، أو: فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون تبناه، إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها؛ فرحاً وسروراً مما سمعت، لولا أن ربطنا على قلبها وثبتناه؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بعهد الله، لا تبني فرعون. قال يوسف بن الحسن: أمرت أم موسى بشيئين، وبُشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل، حتى تولى الله حياتها، فربط على قلبها.

{ وقال لأخته { مريم: { فُصِّيهِ { : اتبعي أثره؛ لتعلمي خبره، { فَبَصَّرْتِ بِهِ { أي: أبصرته { عن جُنُبٍ {؛ عن بُعدٍ. قال قتادة: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده، { وهم لا يشعرون { أنها أخته، وأنها تقصه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، الطالب لمولاه، أن يصيح فارغاً من كل ما سواه، ليس في قلبه سوى حبيبه، فحينئذ يرفع عنه الحجاب، ويدخله مع الأحباب، فعلامه المحبة: جمع الهموم في هم واحد، وهو حب الحبيب، ومشاهدة القريب المجيب، كما قال الشاعر:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ فَاسْتَجَمَعَتْ، مَدَّ رَأْيَكَ الْعَيْنُ، أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُدَّ صِرْتِ مَوْلَائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دِنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شُغْلًا يَذْكُرُكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي
فَرَّغْتُ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ تَمْلَاهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ. والأغيار: جمع غَيْرٍ، وهو ما سوى الله، فإن تلاشى الغير عن عين العبد؛ شهد مولاه في غيب ملكوته، وأسرار جبروته، وفي ذلك يقول القائل:

إِنْ بَلَاشَى الْكَوْنَ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي شَاهَدَ السِّرَّ عَيْبِي فِي بَيَانِ
قَاطِرِحِ الْكَوْنَ عَنْ عِيَانِكَ، وَامْحُ نُقْطَةَ الْعَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَائِي
فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدي به، ويوح بسره؛ فرحاً واعتباطاً به، لولا أن الله يربط على قلبه، ليكون من الثابتين الراسخين في العلم به، وإن أبدى سر الحبيب سلبت عليه سيف الشريعة، وبالله التوفيق.
@ { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُوهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } * { فَرَدَدْتَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسِرَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: المراضع: جمع مُرَضِعٍ، وهي المرأة التي ترضع، أو: مَرَضِعٌ - بالفتح - موضع الرضاع، وهو الثدي. و(لا تحزن): معطوف على (تقر).

يقول الحق جل جلاله: { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ } أي: تحريم منع، لا تحريم شرع، أي: منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك. { من قبل } أي: من قبل قصصها أثره، أو: من قبل أن نرده إلى أمه. { فقالت } أخته. وقد دخلت داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً: { هل أدلكم }؛ أرشدكم { على أهل بيتٍ

يكفلونه {؛ يحفظون موسى { لكم وهم له ناصحون {؛ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته. والنصح: إخلاص العمل من شائبة الفساد. رُوي أنها لما قالت: { وهم له ناصحون {؛ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فهو الذي نحدر، فقالت: إنما أردتُ: وهُم للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يُعَلِّله؛ شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ربحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، لا أوتى بصبي إلا قبَلني. فدفعه إليها، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل: ديناراً في اليوم، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله تعالى: { فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها { بولدها، { ولا تحزن { لفراقه، { ولتعلّم أن وعد الله حق {، أي: وليثبت علمها؛ مشاهدة، كما ثبت؛ علماً.

وأما جزعها وحيرتها؛ فذلك من الطبع البشري الجبليّ، اللازم لضعف البشرية، لا ينجو منه إلا خواص الخواص، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار في اليوم، كما قال السدي: لأنه مال حربي، لا أنه أجره إرضاع ولدها.

{ ولكن أكثرهم { أي: القبط، أو الناس جملة، { لا يعلمون { أن ما وعد الله لا بد من إنجازه، ولو بعد حين، وهو داخل تحت علمها، أي: لتعلم أن وعد الله حق، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها؛ حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون، فجزعت، وهذا من الطبع البشري كما تقدم. وأيضاً يجوز أن يكون الوعد منوطاً بشروط وأسباب، قد لا تعرفها، فلذلك لم ينفك خوفها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحرمنا على الإنسان المراضع، من لبان الخمرة الأزلية، من قبل أن نلقيه بأهلها، فقالت له العناية السابقة: هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية، والهفوات القلبية، وهي الإصرار على المساوئ والذنوب، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون. يدلونك على الله ولا يدلونك على غيره؛ فإن من ذلك على الله فقد نصحك، ومن ذلك على العمل فقد أتعبك، ومن ذلك على الدنيا فقد غشك. فرددناه إلى أمه، وهي الحضرة القدسية، التي خرج منها، بمتابعة شهوته وغفلته، كي تقر عين روجه بمشاهدة حبيبها، ولا تحزن على فوات شيء، إذ لم تفقد شيئاً، حيث وجدت الله تعالى؛ " مَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟ وما الذي وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ ". ولتعلم أن وعد الله بالفتح على من توجه إليه بالواسطة حق، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون

@ { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } * { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَيَا جِبِينَ عَقْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَآدَا مِنْ شِيعَتَيْهِ وَهَآدَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَآدَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } * { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } * { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ }

قلت: { على حين عَفْلَةٍ } : حال، أي: دخل مخفياً.

يقول الحق جل جلاله: { ولما بَلَغَ } موسى { أَشُدَّهُ } أي: نهاية القوم وتمام العقل، جمع شِدَّةٍ؛ كنعمة وأنعم. وأول ما قيل في الأشد: بلوغ النكاح، وذلك أوله، وأقصاه: أربع وثلاثون سنة. { واستوى } أي: اعتدل عقله وقوته، وهو أربعون سنة، ويُروى أنه لم يبعث نبي إلى على رأس أربعين سنة. { آتيناَهُ حُكْمًا } : نبوة، أو حكمة { وعلمًا } : فقهاً في الدين، أو: علماً بمصالح الدارين. والحاصل: لما تكامل عقله وبصيرته آتيناَهُ حُكْمًا على عبادنا وعلمًا بنا. { وكذلك نجزي المحسنين } أي: كما فعلنا بموسى وأمه؛ لَمَّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعده الله، فرددنا لها ولدها، ووهبنا له الحكمة والنبوة، فكذلك نجزي المحسنين في كل أوان وحين.

قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة، التي هي جزاء المحسنين، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: { وَلَيُسْنَ مَا سَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة: 102]، فجعلهم جهالاً، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.

{ ودخل المدينة } أي: مصر، آتياً من قصر، فرعون، وكان خارجاً، وقال السُّدِّي: مدينة منف من أرض مصر، وقال مقاتل: قرية " حابين " ، على فرسخين من مصر. { على حين غفلةٍ من أهلها } ، وهو ما بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار.

قال السدي: لما كبر موسى؛ ركب مراكب فرعون، ولبس ملابسته، فكان يدعى موسى بن فرعون، فركب فرعون يوماً وركب موسى خلفه، فأدركه المقييل بقرب مدينة منف، فدخلها نصف النهار، وقد غلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، فوجد موسى رجلين.. إلخ.

قال ابن إسحاق: كان يجتمع إلى موسى طائفة من بني إسرائيل ويقتدون به، فرأى مفارقة فرعون، وتكلم في ذلك حتى ظهر أمره، فأخافوه، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفياً، فدخلها على حين غفلة. وقيل: إن موسى لما شبَّ علا فرعون بالعصى، فقال: هذا عدو لي، فأخرجه من مصر، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى، أي: من بعد نسيانهم خبره، { فوجد فيها رجلين يقتتلان }؛ يتضاربان، { هذا من شيعته }؛ ممن على دينه من بني إسرائيل، وقيل: هو السامري. وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، { وهذا من عدوه }؛ من مخالفيه من القبط، وهو طباخ فرعون. واسمه: " فليثور " ، وقيل فيهما: " هذا وهذا " ، وإن كانا غائبين، على جهة الحكاية، أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا وهذا.

وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أشده كان يحمي بني إسرائيل من الظلم والسخرة، فبينما هو يمشي نظر رجلين يقتتلان، أحدهما من القبط والآخر من بني إسرائيل. فاستغاثه {؛ فاستنصره } الذي من شيعته على الذي من عدوه { أي: فسأله أن يعيثة الإعانة. ضمَّن استغاث أعان، فعدها بـ " على " . رُوي أنه لما استغاث به، غضب موسى، وقال للفرعوني: خله عنك؟ فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، ثم قال الفرعوني لموسى: لقد هممت أن أحمله عليك، { فوكزه موسى }؛ ضربه يجمع كفه،

أو: بأطراف أصابعه. قال الفراء الوَكز: الدفع بأطراف الأصابع. { فَقَصَى عَلَيْهِ } أي: قتلته، ولم يتعمد قتله، وكام موسى عليه السلام ذا قوة وبطش، وإنما فعل ذلك الوَكز؛ لأن إغاثة المظلوم والدفع عن دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع. وإنما عدّه ذنباً؛ لأن الأنبياء لا يكفي في حقهم الإذن العام، فلذلك { قال هذا من عمل الشيطان } أي: القتل الحاصل، بغير قصد، من عمل الشيطان، واستغفر، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنه كان مستأماً فيهم، أو: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل. وعن ابن جريج: ليس لني أن يقتل ما لم يؤمر، ولأن الخصوص يُعظمون محقرات ما فرط منهم. { إنه } أي: الشيطان { عدو مُضِل مبین }؛ ظاهر العداوة.

{ قال ربّ } أي: يا رب { إنني ظلمت نفسي } بفعل صار قتلاً { فاغفر لي } زلتي، { فَعَفَّرَ لَهُ } زلته، { إنه هو الغفور } بإقالة الزلل، { الرحيم } بإزالة الخجل، { قال ربّ بما أنعمت عليّ } أي: بحق إنعامك عليّ بالمغفرة ولم تعاقبني { فلن أكون ظهيراً للمجرمين } أي: لا تجعلني أعين على خطيئة، تَوَسَّل للعصمة بإنعامه عليه. وقيل: إنه قسم حُذِف جوابه، أي: أفسيمُ بإنعامك عليّ بالمغفرة، إن عصمتني، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صُحْبَةَ فرعون، وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد.

قال ابن عطية: احتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خدمة أهل الجور، ومَعُونتهم في شيء من أمورهم، ورأوا أنها تتناول ذلك. هـ. قال الوصافي لعطاء بن أبي رباح: إن لي أختاً يأخذ بقلمه، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج، وله عيال، ولو ترك لاحتاج وادان. فقال: من الرأس؟ فقال: خالد بن عبد الله، قال: أما تقرأ قول العبد الصالح: { ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين } ، فإن الله عز وجل سيعينه. هـ.

الإشارة: خصوصية الولاية كخصوصية النبوة، لا تُعطى، عَالِيّاً، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل، وحصول الاستواء، وهو أن يستوي عنده المدح والذم، والعز والذل، والمنع والعطاء، والفقر والغنى، وتستوي حاله في القبض والبسط، والغضب والرضا، فإذا استوى في هذه الأمور أتاه الله حكماً وعلماً، وجزاه جزاء المحسنين وكتب شيخنا إلى بعض تلامذته: أمّا بعد، فإن تورعت في أقوالك وأفعالك، وتوسعت في أخلاقك، حتى يستوي عندك من من يمدحك ويذمك، ويعطيك ويمنعك، ومن يؤذيك وينفَعك، ومن يشدد عليك ويوسع، فلا أشك في كمالك.

فإن قلت: لِمَ ذكر الحق، جَلَّ جلاله، الاستواء في حق سيدنا موسى، ولم يذكره في حق نبيه يوسف - عليهما السلام؟ فالجواب: أن سيدنا يوسف عليه السلام تربى في السجن وفي نار الجلال، وكل محنة تزيد تهذيباً وتدريباً، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء، بخلاف سيدنا موسى عليه السلام فإنه تربى في العز والجمال، فاحتاج إلى تربية وتهذيب، بعد كمال الأشد، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذي يليق به، فلذلك ذكره حقه. والله تعالى أعلم.

@ { فَاصْبِحْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ } * { فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ

أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } * { وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَا قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } * { فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

قلت: جملة (يسعى): حال من (رجل)؛ لأنه وصف بالجار.

يقول الحق جل جلاله: { فأصبح } موسى { في المدينة } { أي: مصر } { خائفاً } { على نفسه من قتله؛ قوداً بالقبطي، وهذا الخوف أمر طبيعي لا ينافي الخصوصية، } { يترقب } {؛ ينتظر الأخبار عنه، أو ما يقال فيه، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه، } { فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه } {؛ يستغيثه، مشتق من الصراخ؛ لأنه يقع في الغالب عند الاستغاثة. والمعنى: أن الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانياً من قبلي آخر، } { قال له موسى } { أي: للإسرائيلي: } { إنك لغوي مبین } { أي: خال عن الرشد، ظاهر الغي، فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك. قال ابن عباس: أتى فرعون، فقبل له: إن بني إسرائيل قد قتلوا منا رجلاً، فالقصاص، فقال: ابغوني القاتل والشهود، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد، فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر، يريد أن يسخره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فوافق موسى نادماً على القتل، فقال للإسرائيلي: إنك لغوي مبین.

{ فلما أن أراد } موسى { أن يبطلش بالذي } {؛ بالقبطي الذي } { هو عدو لهما } {؛ لموسى وللإسرائيلي؛ لأنه ليس على دينهما، أو: لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، أي: فلما مد موسى يده؛ ليبطلش بالفرعوني، خشى الإسرائيلي أن يريده، حين قال: } { إنك لغوي مبین } {، فقال: } { يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس } {، يعني القبطي، } { إن } { ما } { تريد إلا أن تكون جباراً } {؛ قتالاً بالغضب، } { في الأرض } {؛ أرض مصر، } { وما تريد أن تكون من المصلحين } { في كظم الغيظ.

وقيل: القائل: { يا موسى أتريد... } { إلخ، هو القبطي، ولم يعلم أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلي استدل على أن الذي قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فأمسك موسى عنه، ثم أخبر فرعون بذلك؛ فأمر بقتل موسى.

{ وجاء رجلٌ من أقصى المدينة } {؛ من آخرها، واسمه: " حزقييل بن حبورا "، مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، } { يسعى } {؛ يُسرع في مشيه، أو: يمشي على رجله، } { قال يا موسى إن الملائكة يأترون بك } {، أي: يتشاورون في قتلك، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك. والائتمار: التشاور، } { فأخرج } { من المدينة، } { إنني لك من الناصحين } {، فاللام في (لك): للبيان، وليس بصلة؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، إلا أن يُتسامح في المجرور، } { فخرج منها } {؛ من مصر } { خائفاً يترقب } {؛ ينتظر الطلب ويتوقعه، } { قال ربّ نجني من القوم الظالمين } {؛ قوم فرعون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية دليل على أن الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافي الخصوصية؛ لأنه أمر جبلي، لكنه يخف ويهون أمره، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك، يفر من

الله إنالله، ولا ينافي التوكل، وقد اختفى صلى الله عليه وسلم من الكفار بغار ثور، واختفى الحسن البصري من الحجاج، عند تلميذه حبيب العجمي. وفيها أيضاً دليل على أن المعصية قد تكون سبباً في نيل الخصوصية، كأكل آدم من الشجرة، كان سبباً في نيل الخلافة، وعُمرة الأرض، وما نشأ من ضلّبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء، وكقتل موسى عليه السلام نفساً لم يؤمر بقتلها، كان سبباً في خروجه للتربية عند شعيب عليه السلام، وتهيته للنبوة والرسالة والاصطفائية، فكل ما يُوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار، والحاصل: أن من سبقت له العناية، ونال من الأزل مقام المحبوبة؛ صارت مساوئه محاسن، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفي الحديث: " إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ".

قال في القوت: واعلم أن مسامحة، الله عز وجل لأوليائه - يعني: في هفواتهم - في ثلاث مقامات: أن يقيمه مقام حبيب صديق، لِمَا سبق من قدم صدق، فلا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيب. المقام الثاني: أن يقيمه مقام الحياء منه، بإجلال وتعظيم، فيسمح له، وتصغر ذنوبه؛ للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشف هذا المقام، إلا أنا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر طائفة فقال: " يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم " المقام الثالث: أن يقيمه مقام الحزن والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكثار، فإذا نظر حزنه وهمه، ورأى اعترافه وغمه، غفر له؛ حياءً منه ورحمة. هـ. وبالله التوفيق.

@ { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } * { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } * { فَسَقْنَا لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّيْنَا إِلَى الطَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ }

يقول الحق جل جلاله: { ولما توجه } موسى { تلقاء مدين }؛ نحوها وجهتها.

ومدين: قرية شعيب، سُميت بمدين بن إبراهيم، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن، ويقال له أيضاً: " مدان بن إبراهيم " ، ولم تكن مدين في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولعله إنما لم يتسلط عليها؛ لِمَا وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم، فخاف على نفسه. قال ابن عباس: خرج موسى، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

{ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل } أي: وسطه ونهجه. فلما خرج، عَرَضَ لَهُ ثَلَاثُ طُرُقٍ، فَأَخَذَ فِي أَوْسَطِهَا، وَجَاءَ الطَّلَابُ عَقِبَهُ، فَأَخَذُوا فِي الْآخَرَيْنِ. رُوي أَنَّ مَلَكًا جَاءَهُ عَلَى فَرَسٍ بِيَدِهِ عَنَزَةٌ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَدْيَنَ. وَرُوي أَنَّهُ خَرَجَ بِلا زَادٍ وَلا دَرَهَمٍ، وَلا ظَهْرٍ، وَلا جِذَاءٍ - أَي: نَعْلٍ - ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَعَامٌ إِلا وَرَقُ الشَّجَرِ، فَمَا بَلَغَ مَدْيَنَ حَتَّى وَقَعَ حُفٌّ قَدَمِهِ، وَخَضِرَةٌ الْبَقْلُ تَرَى عَلَى بَطْنِهِ.

{ ولما ورد }؛ وصل { ماء مدين }؛ بئراً لهم، { وجد عليه }؛ على جانب البئر { أمة }؛ جماعة كثيرة { من الناس }؛ من أناس مختلفين { يسقون } مواشيهم، { ووجد من دونهم }؛ في مكان أسفل من مكانهم { امرأتين تذودان }؛ تطردان عتمةً عن الماء،

حتى تَصُدَّر مواشي الناس ثم تسقيان؛ لأن علنا الماء من هو أقوى منهما، فلا يتمكنان من السقي. أو: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود: الطرد والدفع.

{ قال } لهما موسى: { ما خطبُكما }؛ ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل: ما مخطوبكما، أي: مطلوبكما، فسمي المطلوب حَظَبًا، { قالتا لا نسقي } غنمنا { حتى يُصَدِّر الرَّعَاءُ }، أي: يصرفوا مواشيهم، يقال: أصدر عن الماء وصدرا، والمضارع: يَصُدِّر ويَصْدِر، والرعاء: جمع راع، كقائم وقيام، والمعنى: لا نستطيع مزاحمة الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا، { وأبونا شيخ كبير } السن، لا يمكنه سقي الأغنام وهو شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وقيل: هو " يثرون " ابن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات بعدما كفَّ بَصْرُهُ، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

{ فسقى لهما } أي: فسقى غنمهما لأجلهما؛ رغبة في المعروف وإغاثة الملهوف، رُوي أنه نحى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلوًا، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق به، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها، وصبها في الحوض، ودعا بالبركة. وقيل: كانت آبارهم مغطاة بحجار كبار، فعمد إلى بئر، وكان جحرها لا يرفع إلا جماعة، فرفعه وسقى للمرأتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله: أنه سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب في ذلك أن امرأتان مستورتان ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحي من الاختلاط بهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا. وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنته بسقي الماشية؛ لأن الأمر في نفسه مباح مع حصول الأمن، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضرة، خصوصاً إذا كانت الضرورة. قاله النسفي. قلت: وقد كنت أعترض على أهل الجبل رَعِيَّ النَّسَاءِ المواشي حتى تذكرت قضية ابنتي شعيب، لكن السلامة في زماننا هذا حبس النساء في الديار؛ لكثرة أهل الفساد.

{ ثم } لما سقى لهما { تولى إلى الظل }؛ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله؛ قال: أحييت ليلتين على جمل لي، حتى صيحت مدين، فسالت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا هي شجرة خضراء، فأخذ جملي يأكل منها ثم لفظها. هـ. وفي الآية دليل على جواز الاستراحة والاستئطال في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

ثم بث شكواه لمولاه { فقال ربِّ إني لِمَا أنزلت إليَّ من خير } قليل أو كثير { فقير }؛ محتاج. قال ابن عباس: لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لنتراءى في بطنه، من الهزال. قيل: لم يذق طعاماً منذ سبعة أيام، وقد لصق بظهره بَطْنُهُ، وما سأل الله تعالى الأكلة. وفي هذا تنبيه على هوان الدنيا على الله تعالى. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة: ولما توجه القلبُ تلقاء مَدِينِ المآرب، ومنتهي الرغائب - وهي الحضرة القدسية - قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، أي: وسط الطريق التي توصل إليها، وهو شيخ التربية. ولَمَّا ورد مناهله، ومحل شربه وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة، ويطلبون مثل ما يطلب، فإن كان قويا في حاله؛ وصل

من كان ضعيفاً وسقى له، ثم نزل إلى ظل المعرفة، في نسيم برد الرضا والتسليم، قائلاً، بلسان التضرع، سائلاً من الله المزيد: ربِّ إني لما أنزلت إليّ من خير الدارين، وغنى الأبد، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال في لطائف المنن: { ثم تولى إلى الظل }؛ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة - يعني: نعمة الظل الحسي - وجعله أصلاً في استعمال الطبيات، وتناولها بقصد الشكر، ومثله في التنوير. وفي سنن أبي داود عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: " كان صلى الله عليه وسلم يُسْتَعَذَّبُ له الماء من بُيوت السُّقْيَا " ، قال ابن قتيبة: هي عَيْنٌ، بينها وبين المدينة يومان. هـ. وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبي الحسن رضي الله عنه: (يا أبا الحسن، بَرِّدْ الماء؛ فَإِنَّ النفس إذا شربت الماء البارد؛ حمدت الله بجميع الجوارح، وإذا شربت الماء الساخن؛ حمدت الله بكرازة).

@ { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } * { قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } * { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ هَاتِيْنِ عَلَيَّ مَا تَأْتِيْنِي تَمَانِي حِجَّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } * { قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَصَيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تُفْعَلُ وَكَيْلٌ }

قلت: (تمشي): حال من (إحداهما)، و (على استحياء): حال من ضمير (تمشي)، أي: تمشي مستحياة. و(القصص): مصدر، سُمِّيَ به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله: { فجاءته إحداهما }؛ وهي التي تزوجها، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمها بطناً حُقلاً، فقال لهما: ما أعجلكما؟ فقالتا له: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً؛ فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: أدعيه، فجاءته { تمشي على استحياء { قد سترت وجهها بكفها، واستترت بكمِّ درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا؟ فقالت: { إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا } ، " ما " مصدرية، أي: أجر سقيتك لنا، فتبعها موسى، فألزقت الريح ثوبها بجسدها، فوصفته، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي الطريق، فإننا بني يعقوب، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

{ فلما جاءه وقصَّ عليه القِصَصَ } ، أي: قصته وأحواله مع فرعون، وكيف أراد قتلَهُ، { قال } له: { لا تخفْ نجوت من القوم الظالمين }؛ فرعون وقومه؛ إذ لا سلطان له على أرضنا - مدين -، أو: قيلَ اللهُ دعائك في قولك: { رب نجني من القوم الظالمين } . وفيه دليل على العمل بخير الواحد، ولو أشى، والتمشي مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله النسفي. وفيه نظر؛ لعصمة الأنبياء - عليهم السلام -، وما أخذ الأجر على البر والمعروف؛ فقيل: لا بأس به عند الحاجة، كما كان لموسى عليه السلام، على أنه رُوي أنه لما قالت له: { ليجزيك }؛ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأن المقاصد حرمة.

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه؛ امتنع، فقال شعيب: أأست جاعاً؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سَقَيْتُ لهما، وأنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف شيئاً، فقال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فأكل.

{ قالت إحداهما يا أبتِ استأجره } ، أي: اتخذه أجيراً لرعي الغنم. رُوي أن كبراهما كانت تسمى: " صفراء " ، والصغرى: " صفراء " ، وقيل: " صابورة " و " ليا " .
وصفراء هي التي ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره فانظره مع ما في حديث، قال صلى الله عليه وسلم: " تزوج صفراهما، وقضى أوفاهما " ويمكن الجمع بأن يكون زوجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التي طلبت استئجاره: { إن خير من استأجرت القوي الأمين } ، فقال: ما أَعْلَمُك بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، أو رفع الحجر عن البئر، وأمرها بالمشي خلفه. وفي رواية عند الثعلبي. أما قوته: فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً، فرفعها عن فم البئر.

ثم ذكرت أمر الطريق. وقولها: { إنَّ خير من استأجرت... } إلخ: كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان؛ الكفاية والأمانة، في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل: القوي في دينه، الأمين في جوارحه. وقد استغنت بهذا الكلام، الجاري مجرى المثل، عن أن تقول: استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله:

{ عَسَا أَنْ يَنْفَعَنَّا }

[يوسف: 21]، وأبو بكر في استخلافه عمر.

{ قال } شعيب لموسى - عليهما السلام-: { إني أريد أن أنكِحك } : أزوجك { إحدى ابنتي هاتين } ، وقوله: { هاتين } يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه، لا عقد، وإلا لقال: أنكحتك. { على أن تأجرتني } أي: تكون أجيراً لي، من أجرته: إذا كنت له أجيراً { ثمانين حجج }؛ سنين والحجة: السنة. والتزوج على رعي الغنم جائز في شرعنا، على خلاف في مذهبنا. { فإن أتممت عشراً } أي: عشر حجج { فمن عندك } أي: فلذلك تفضل منك، ليس بواجب عليك، أو: فإتمامه من عندك، ولا أحتمه عليك. { وما أريد أن أشق عليك } بالزام أتم الأجلين. من المشقة، { ستجدني إن شاء الله من الصالحين } في حسن المعاملة، والوفاء بالعهد، أو مطلقاً. وعلق بالمشيئة، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

{ قال } موسى عليه السلام: { ذلك } العهد وعقد الأجرة { بيني وبينك } أي: ذلك الذي قُلْتُهُ، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعاً، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال: { أيما الأجلين قضيت } أي: أيُّ الأجلين؛ قضيت من الأجلين: العشر أو الثمانين، { فلا عدوان عليّ } أي: لا يتعدى عليّ في طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه في إتمامهما، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فلذلك طلب الزيادة على الأقل. { والله على ما نقول وكيل } أي: رقيب وشهيد.

واختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين: أحدهما: أنه لا ينعقد إلا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال مالك: ينعقد بدون شهود؛ لأنه عَقْدٌ معاوضة، فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان، والإظهار بالدف والدخان ليميز من السفاح، ويجب عند الدخول.

رُوي أن شعيباً كانت عنده عصي الأنبياء - عليهم السلام -، فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصي، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء - عليهم السلام - يتوارثونها، حتى وقعت إلى شعيب، فلما أخذها، قال له شعيب: ردها وخذ غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات. - وفي رواية السدي: أمر ابنته أن تأتية بعصا فجاءته بها، فلما رآها الشيخ قال: آتية بغيرها، فألقها لتأخذ غيرها، فلا تصير في يده إلا هي، مراراً، فرفعتها إليه، فعلم أن له شأنًا. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإن الكلاء، وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تيناً، أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام، فإذا التين قد أقبل، فحاربه العصا حتى قتلتها، وعادت إلى جنب موسى دامي، فلما أبصرها دامية، والتين مقتولاً؛ ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، وأخبره موسى، فرح، وعلم أن لموسى شأنًا، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي، هذا العام، كُلُّ أَدْرَعٍ وَدَرَعَاءَ - أي: كل جدي أبلق، وأثنى بقاء - فأوحى الله تعالى إلى موسى في المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقى منه الغنم، فضرب، ثم سقى الأغنام، فوضعت كلها بقاء، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائي في كتابه (قطب العارفين): أن موسى عليه السلام انتهى، ذات يوم، بأغنامه إلى واد كثير الذئب، وكان قد بلغ به التعب، فبقي متحيراً، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك؛ لغلبة النوم عليه والتعب، وإن هو طلب الراحة، وثبت الذئب على الغنم، فرمى السماء بطرفه، وقال: إلهي إنه أحاط علمك، ونفذت إرادتك، وسبق تقديرك، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ؛ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه، وهو يرعى الغنم، فتعجب موسى من ذلك، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. قال: فهذه إشارة تدل على أن: مَنْ هَرَبَ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؛ كفاه الله، عز وجل، مَنْ دُوَّتُهُ. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فجاءته - أي: القلب - إحدى الخصلتين؛ الفناء والبقاء، تمشي على مهل وقدر؛ فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدرج، على حسب القدر السابق. قالت إحدى الخصلتين: إن ربي يدعوك إلى حضرته؛ ليجزيك أجر ما سقيت، واستعملت في جانب الوصول إلينا. فلما جاءه، أي: وصل إليه، وتمكن منه، وقص عليه القصص، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات، قال: لا تخف اليوم، حين وصلت إلينا، نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما: يا رب استأجره في العبودية شكراً، إن خير من استأجرت القوي الأمين؛ لأن عمله بالله، محفوفاً برعاية الله، قال: إني أريد أن أعطيك إحدى الخصلتين، إما الإقامة في الفناء المستغرق، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق، لتقوم بالأدب على أن تخدم ثمانين حجج، فإن أتممت عشراً، لزيادة التمكين،

فمن عندك، فأقل خدمة المرید للشيخ ثمانی سنين، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبي: لأن شعيباً، عليه السلام رأى بنور النبوة أن موسى عليه السلام يبلغ درجة الكمال في ثمانی حجج، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك حراً، ولذلك قال: وما أريد أن أشق عليك. هـ.

@ { فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } * { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } * { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ } * { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْصُمَّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَاتَانِ مِنَ رَبِّكَ إِنَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأِينَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { فلما قضى موسى الأجل } ، قال صلى الله عليه وسلم: " قضى أبعدهما وأطبيهما " ، وفي رواية: " أبرهما وأفاهما " { وسار بأهله } أي: امرأته، نحو مصر، قال مجاهد: ثم استأذن موسى أن يزور أهله بمصر، فأذن له، فسار بأهله إلى البرية، فأوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكان أخذ على غير طريق، يخاف ملوك الشام - قلت: ولعلمهم كانوا من تحت يد قرعون - فأخذ امرأته الطلق، فقدح زنده، فلم يور، فأنس من جانب الطور ناراً. هـ.

وقال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة، وودت أيام الزلفة، وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله؛ ليشتروا معه في لطائف صنع ربه. هـ. { آنس } أي: أبصر { من جانب الطور } أي: من الجهة التي تلو الطور { ناراً قال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بخبر } عن الطريق؛ لأنه كان ضل عنها، { أو جذوة من النار } أي: قطعة وشعلة منها، والجذوة - مثلثة الجيم: العود الذي احترق بعضه، وجمعه: " جدى ". { لعلكم تصطلون }؛ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سئة المتواضعين. وفي بعض الأخبار: " اصطلوا؛ فإن الجابرة لا يصطلون ".

{ فلما أتاه نُودي من شاطئ الواد الأيمن } بالنسبة إلى موسى، أي: عين يمين موسى، { في البقعة المباركة } بتكليم الله تعالى فيها، { من الشجرة }؛ بدل من " شاطئ "؛ بدّل اشتمال أي: من ناحية الشجرة، وهو العناب، أو العوسج، أو: سمرة. وقال وهب: عُليقاً. { أن يا موسى }. أي: يا موسى، أو: إنه يا موسى { إنني أنا الله رب العالمين } ، قال البيضاوي: هذا، وإن خالف ما في " طه " و " النمل "؛ لفظاً، فهو طبقة في المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق: أبصر ناراً، دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها؛ شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلايب الأنس، فخاطبه الله بالطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مُكَلِّماً شريفاً، أعطى ما سأل، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري: فكان موسى عند الشجرة، والنداء من الله لا منها، وقد حصل الإجماع أن موسى، تلك الليلة، سمع كلام الله، ولو كان النداء من الشجرة؛ لكانت المتكلمة هي، فلأجل الإجماع قلنا: لم يكن النداء منها، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة. هـ. قلت: وسيأتي في الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص، وما قاله - هو مذهب أهل الظاهر.

ثم قال تعالى: { وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ } ، أي: نودي: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبيها الله ثعباناً، { فلما رآها تهتُّرٌ }؛ تتحرك { كأنها جانٌّ }؛ حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال في موضع: (كأنها جان)، وفي أخرى: { قَادًا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ } [الأعراف: 143]؟ قلت: هي في أول أمرها جان، وفي آخر أمرها ثعبان؛ لأنها كانت

تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يُريد في سرعة الجان وخفته، وفي قوة الثعبان. فلما رآها كذلك { ولى مُذْبِرًا ولم يُعَقِّبْ }؛ ولم يرجع عقبه. فقيل له: { يا موسى أقبلْ ولا تخفْ إنك من الآمنين } ، أي: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

و { اسلكْ }؛ أَدْخَلَ { يدَكَ فِي جَيْبِكَ }؛ جيب قمصيك { تخرج بيضاءً } لها شعاع كشعاع الشمس { من غير سُوءٍ }؛ برص. { واطمئنت إليك جناحك من الرُّهْبِ } ، أي: الخوف، فيه لغات: " الرُّهْبُ " ، بفتحين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضميتين. والمعنى: واطمئنت يدك إلى صدرك؛ يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه). وقيل: المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف؛ نشر جناحيه وأرخاهما.

{ فذانك } أي: اليد والعصا، ومن شدد؛ فأجدي النونين عَوْضٌ من المحذوف، { بُرْهَانَانِ } أي: حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهاناً؛ لإنارتها، من قولهم: بره الشيء؛ إذا ابيض، والمرأة برهَاءٌ وَبَرَهْرَهَةٌ؛ أي: بيضاء. { من ربك إلى فرعون وملئه } أي: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، { إنهم كانوا قومًا فاسقين }؛ خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم في سورة " طه " بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المرید، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان باذن شيخه؛ فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. وقوله تعالى: { وسار بأهله }؛ قال الورتجي: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ. وقوله تعالى: { أنست ناراً }؛ قال الورتجي: الحكمة في ذلك: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور في النار؛ لاستئناسه بلباس الاستئناس، ولا تخلوا النار من الاستئناس، خاصة في الشتاء، وكان شتاءً، فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى مِنْ حَيْثُ إِرَادَاتِهِ، وهو سنة الله تعالى. هـ.

وقوله تعالى: { من الشجرة }؛ أي: نودي منها حقيقة؛ إذ ليس في الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال في العوارف: الصوفي؛ لتجرده،

يشهد التالي كشجرة موسى، حيث أسمع الله خطابه منها، بأني أنا الله لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من الله، بلا واسطة، قد سقطت الوسائط في حقهم، حين غرقوا في بحر شهود الذات، فافهم. وقال في القوت: كانت الشجرة وجهة موسى عليه السلام، كلمة الله عز وجل منها، كما قال بعضهم: إن قوله تعالى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ } [الأعراف: 107، والشعراء: 32]، أي: بالجبل، كان الجبل من جهة الحس حجاباً لموسى، كشفه الله عنه، فتجلى به، كما قال: { من الشجرة }؛ فكانت الشجرة وجهة له عليه السلام هـ، بإيضاح. والله تعالى أعلم.

@ { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } * { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } * { قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { قال } موسى - لما كُلف بالرسالة إلى فرعون: { رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } بها، { وأخي هارون هو أفصح من لسانا فأرسله معي رداءً }؛ أي: عوناً. يقال: ردأته: أعنته. وقرأ نافع: بالتخفيف، { يُصَدِّقُنِي }؛ جواب الأمر، ومن رفعه؛ جعله صفة لردء، أي: ردءاً مصدقاً لي. ومعنى تصديقه: إعانته بزيادة البيان، في مظان الجدال، إن احتاج إليه؛ ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، وأما قوله: صدقت؛ فسَحْبَانُ وَبَاقِلٌ فِيهِ مستويان. { إنني أخاف أن يكذبون } في دعوى الرسالة.

{ قال ستنشدك عضدك بأخيك } أي: سنقويك به؛ إذ اليد تشد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، فشد العضد كناية عن التقوية؛ لأن العضد، إذا اشتد، قوِيَ على محاولة الأمور، أي: سنعينك بأخيك، { ونجعل لكما سلطاناً }؛ غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء، { فلا يصلون إليكما بآياتنا }؛ بسبب آياتنا، القاهرة لهم عن التسلط عليكم، فالباء تتعلق بوصول، أو: بنجعل لكما سلطاناً، أي: تسلطاً بآياتنا، أو: بمحذوف، أي: اذهباً بآياتنا، أو: هو بيان لغالبن، أي: { أنتم ومن اتبعكما الغالبون }، أي: المنصورون.

الإشارة: إذا اجتمع في زمان نبيان، أو: وليان، لا تجدهما إلا متخالفين في القوة والليونة، أو في السكر والصحو، فكان موسى في غاية القوة، وأخوه في غاية الليونة، وكان موسى عليه السلام في أول الرسالة غالباً عليه الجذب، وأخوه غالباً عليه الصحو، فلذلك استعان به. قال الورتجبي: أفهم أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين، الذي يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق وأسراره، بعبارة لا تكون بشيعة في موازين العلم. وهذا حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال: " أنا أفصح العرب " و " بُعِثْتُ بجوامع الكلم " وهذه قدرته قادرية اتصف بها العارف المتمكن، الذي بلغ مشاهدة الخاص، ومخاطبة الخاص، وكان موسى عليه السلام في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطلق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه، لو خرج على وزان حاله، يكون على نعوت الشطح، عظيماً في أذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله: { واحلل عقدة من لساني }؛ لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة، التي كان مخصوصاً بها عن أخيه. هـ.

@ { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيآبَاتِنَا الْأُولَىٰ } * { وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَا أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِي وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } * { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ إِيَّاهُ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَٰذِبِينَ } * { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { فلما جاء موسى بآياتنا }؛ معجزاتنا التسع { بينات }؛ واضحات { قالوا ما هذا إلا سحرٌ مُفترى }؛ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله، أو: سحر موصوف بالافتراء، كسائر أنواع السحر، وليس بمعجزة من عند الله، { وما سمعنا بهذا }، يعني: السحر، أو: ادعاء النبوة، { في آياتنا الأولين }، الجار: حال منصوبة بهذا، أي: ما سمعنا بهذا كائناً في آياتنا، أي: ما حُدثتْنا بكونه فيهم، ولا موجوداً في آياتهم.

{ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده }، فيعلم أي محق، وأنتم مبطلون، وقرأ ابن كثير: " قال "؛ بغير واو؛ جواباً لمقالتهم. { ومن تكون له عاقبة الدار } أي: العاقبة المحمودة، فإن المراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها الأصلية هي الجنة؛ لأن الدنيا خلقت مَعْبِراً ومجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها، بالذات، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم، أو العقاب الأليم، { إنه لا يُفْلِحُ الظالمون }؛ لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى.

قال النسفي: قل ربي أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم؛ حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى، ووعدته حُسْنَ الْعُقْبَى، يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون، ساحراً، مفترياً، لما أهله لذلك؛ لأنه غني حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا يُتَّبِعُ السَّاحِرِينَ، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: { أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَا الدَّارِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ } [الرعد: 22]. والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها: أن تختم للعبد بالرحمة والرضوان، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران. هـ.

{ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري }، قصد بنفي علمه باله غيره تَفْيَ وَجُودِهِ، أي: مالكم إله غيري. قاله؛ تجبراً ومكابرة، وإلا فهو مقر بالربوبية؛ لقوله تعالى: حاكياً عن موسى عليه السلام: { لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } [الإسراء: 102]، وروي أنه كان إذا جن الليل، لبس المسوح وتمرغ في الرماد، وقال: يا رب إنني كذاب فلا تفضحني.

ثم أمر بينان الصرح زيادة في الطغيان، بقوله: { فأوقد لي يا هامانُ على الطين } أي: اطبخ لي الأجر واتخذه. وإنما لم يقل مكان الطين: أجز؛ لأنه أول من عمله، فهو معلمه الصنعة بهذه العبارة، { فاجعل لي صرحاً } أي: قصرأً عالياً، { لعلِّي أُطْعَمُ } أي: أصعد. فالطلع والاطلاع: الصعود، { إلى إله موسى }، حسب الجاهل أنه في مكان

مخصوص، كما كان هو في مكان، { وإنِّي لأظنه } أي: موسى { من الكاذبين } في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً.

وهذا تناقض من المخذول، فإنه قال أولاً: { ما علمتُ لكم من إله غيري } ، ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصى موسى فلبس وقال: { لعلِّي أطلعُ إلى إله موسى } .
رُوي أنه لها أمر وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامانُ العمال، خمسين ألف بناء، سوى الأتباع والأجراء - فبنوا، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط، منذ خلق الله السموات والأرض. أراد الله أن يفتنهم فيه، فصعد فرعون وقومه، ورموا بُشْبُابة نحو السماء، فرجعت مُلْطَحَةً بالدم، فقال: قد قتلنا إله السماء، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون، فقتلت ألفَ ألف رجل، وقطعة على البحر، وقطعة في الغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك. هـ.

{ واستكبر هو وجنوده }؛ تعاضم { في الأرض }؛ أرض موسى { بغير الحق }؛ بغير استحقاق، بل بالباطل، فالاستكبار بالحق هو لله تعالى، وهو المتكبر المتعالي، المبالغ في كبرياء الشأن، كما في الحديث القدسي: " الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته " ، أو: ألقيته في النار، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق. { وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون } بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: بالبناء للفاعل. والباقي: للمفعول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء، وهو عالم الجبروت، فما هبطت إلى عالم الأشباح، وكلفت بالعبودية، وبالخضوع لقهرة الربوبية، شق عليها، ونفرت من التواضع والذل، وبطشت إلى أصلها؛ لأنها من عالم العز، فبعث الله الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها. من الذل والتواضع والخضوع للحق، حتى تصل إلى الحق، فمن سبق له الشقاء؛ أنف، وقال: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، واستكبر وطغى، فغرق في بحر الردى. ومن سبقت له السعادة؛ تواضع، وذل لعظمة مولاه، فوصله إلى العز الدائم، في حضرة جماله وسناه. ولذلك قيل:
لنفس خاصة ما ظهرت إلا على فرعون، حيث قال: أنا ربكم الأعلى. وهذه الخاصة هي أصل نشأتها وبروزها، حيث برزت من عالم الجبروت؛ قال تعالى: { وَتَفَحَّثَ فِيهِ مِنْ رُوحِي } ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار، كما قال الشاعر:

تَدَلُّ لِمَنْ تَهْوَى؛ لِتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ
إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَى عَزِيزاً، وَلَمْ تَكُنْ دَلِيلًا لَهُ، قَافِرَ السَّلَامِ عَلَى الْوَصْلِ
ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب، وهو التذلل والخضوع، كما قال القائل:

أَدَبُ الْعَبْدِ تَدَلُّ وَالْعَبْدُ لَا يَدْعُ الْأَدَبُ
قَادًا تَكَامَلَ دُلُّ؛ نَالَ الْمَوَدَّةَ، وَاقْتَرَبَ

@ { فَأَحَدَتْهُ وَجُنُودَهُ فَتَبَدَّتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَإِنْ طُرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } *
{ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ } * { وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { فأخذناه }؛ فأخذنا فرعون { و جنودَه فنبذناهم }؛ طرحناهم { في اليمِّ }؛ في بحر القلزم، كما بيناه غير مرة. وفي الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ، شبههم؛ استحقاقاً لحالهم، واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الجم الغفير؛ بحصيات أخذهن أخذ بكفه، فطرحهن في البحر. { فانظر } يا محمد { كيف كان عاقبة الظالمين } ، و حذّر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فإنهم ظالمون، حيث كفروا وأشركوا، و تحقّق أنك منصور عليهم، كما نُصِرَ موسى على فرعون.

{ وجعلناهم أئمة }؛ قادة { يدعون إلى النار } ، أي: إلى عمل أهل النار؛ من الكفر، والمعاصي، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق، فهم في ظلمات أنفسهم، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد. هـ. { ويوم القيامة لا يُبصرون } بدفع العذاب عنهم، كما يتناصرون اليوم، في دفع الظلم عنهم، { وأبغناهم في هذه الدنيا لعنة }؛ الزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بَعْدَهُمْ. { ويوم القيامة هم من المقبوحين }؛ المطرودين المعذبين، أو المهلكين المشوهين؛ بسواد الوجوه وزرقة العيون. و { يوم }؛ ظرف للمقبوحين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عاقبة من تكبر في دار العبودية: الذل والهوان، وعاقبة من تواضع، ودل فيها: العز والأمان، وعاقبة من كان إماماً في المساوئ والعيوب: البعد والحجاب، ومن كان إماماً في محاسن الخلال وكشف الغيوب: العز والاقتراب. قال القشيري على قوله: { وجعلناهم أئمة } إلخ: كانوا في الدنيا مُبْعَدِينَ عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طردٍ إلى طردٍ، ومن هجرٍ إلى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إلى احتراق. هـ.

ولما أغرق أهل الظلم والعناد، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد.

@ { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { ولقد آتينا موسى الكتاب }؛ التوراة { من بعدما أهلكنا القرون الأولى }؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام -، حال كون الكتاب { بصائر للناس }؛ أنواراً لقلوبهم، يتبصرون الحقائق، ويميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة: عين القلب، الذي يبصر بها الحق، ويهتدي إلى الرشيد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يُبصر بها الحسيات، أي: آتيناها التوراة، أنواراً للقلوب التي كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل، { وهدى }؛ وإرشاداً إلى الشرائع؛ لأنهم كانوا يخبطون في الضلال. { ورحمة } لمن اتبعها؛ لأنهم، إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة، { لعلهم يتذكرون } ، أي: ليكونوا على حال يُرجى منهم التذكر والاتعاظ. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما تطيب المنازل؛ إذا خلت من الأجنب والأراذل. وأطيب عيش الأحاب؛ إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب، فلما أهلك الله فرعون وجنوده وأورث بني إسرائيل

ديارهم، ومحي عن جميعها آثارهم، طاب عيشهم، وظهرت سعادتهم، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.

@ { وَمَا كُنْتُمْ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } *
{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتُمْ ثَاوِيًا فِيهَا أَهْلًا مَدِينًا تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } * { وَمَا كُنْتُمْ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وما كنت } يا محمد { بجانب } المكان { الغربي } من الطور، وهو الذي كلم الله فيه موسى، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي: إذا استقبلت القبلة، وأنت بالشام، كان الجبل يميناً منك، غربياً، غير أنه قال في قصة موسى:

{ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ }
[مريم: 52، وطه: 80]، وصفه بالصفة المشتقة من اليمين والبركة، لتكليمه إياه فيه، وحين نفى عن محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون بذلك الجانب، قال: { وما كنت بجانب الغربي } ، والغربي هو الأيمن. والعدول عنه، في حالة النفي؛ للاحتراس من توهم نفي اليمين عنه صلى الله عليه وسلم، وكيف، وهو صلى الله عليه وسلم لم يزل بصفة اليمين وأدام بين الماء والطين! فحسن اللفظ أصل في البلاغة، ومجانبة الاشتراك الموهوم: من فصيح بديع الفصاحة. هـ.

أي: وما كانت حاضراً بذلك الموضع، { إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ } ، أي: كلمناه، وقربناه نجياً، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون، { وما كنت من الشاهدين } ، أي: من جملة الشاهدين فتخبر بذلك، ولكن أعلمناك من طريق الوحي، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور، والمراد: الدلالة على أن إخباره بذلك من قبيل الإخبار بالمغيبات التي لا تُعرف إلا بالوحي، ولذلك استدرك عنه بقوله:

{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا } بعد موسى { قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } ، أي: طال أعمارهم، وفترت النبوة، وانقطعت الأخبار، واندرست العلوم، ووقع التحريف في كثير منها، فأرسلناك؛ مُجَدِّدًا لتلك الأخبار، مبيناً ما وقع فيها من التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها، فكأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكننا أوحيناك إليك، فأخبرت به، بعد اندراسه.

{ وَمَا كُنْتُمْ ثَاوِيًا }؛ مقيماً { في أهل مدين } ، وهم شعيب والمؤمنون به، { تتلو عليهم آياتنا }؛ تقرؤها عليهم، تعلماً منهم، أو: رسولاً إليهم تتلوها عليهم بوحينا، كما تلوتها على هؤلاء، يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، { وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } لك، فأخبرناك بها، وعلمناك إياها، فأخبرت هؤلاء بها، { وما كنت بجانب الطور إذ نادينا } موسى، أن خذ الكتاب بقوة، أو ناجيناه في أيام الميقات، { ولكن } علمناك وأرسلناك { رحمة } أي: للرحمة { من ربك لتُنذِرَ قَوْمًا } جاهلية { وما أتاهم من نذير من قبلك } في زمان الفترة التي بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو: بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حوالاهم، { لعلهم

يتذكرون {؛ لعل من أُرْسِلَتْ إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال، فينزعُ ويرجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: المراد من هذه الآيات: تحقيق نبوته صلى الله عليه وسلم ومعرفة الخاصة، وهي سُلم، ومعراج إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه الواسطة العظمى، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت الله تعالى، فمنه صلى الله عليه وسلم استمدت العلوم كلها؛ علم الربوبية، من طريق البرهان، وعلمها من طريق العيان، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان، ومعرفة نبوته صلى الله عليه وسلم ضرورة لا تحتاج إلى برهان، ويرحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيَّنَةٌ لَكَانَ مَنظَرُهُ يُبَيِّنُكَ بِالْحَبْرِ
وقد تقدم في الأعراف التنويه به، وذكر شرفه، وشرف أمته، قبل ظهوره، وإليه الإشارة هنا بقوله: { وما كنت بجانب الطور إذ نادينا } ، أي: إذ نادينا بأمرك، وأخبرنا بنبوتك، رُوي عن أبي هريرة؛ أنه نُودي يومئذٍ من السماء: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، اسْتَجِبْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَعَقَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، فحينئذٍ قال موسى - عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة محمد. هـ.

وقال القشيري: أي: لم تكن حاضراً تتعلم ذلك؛ مشاهدةً، فليس إلا تعريفنا إياك، وإطلاعنا لك على ذلك. ويقال: إذ نادينا موسى، وخاطبناه، وكلمناه في بابك وباب أمّتك، وما طلب موسى لأتمه جعلناه لأمتك، فكوني لكم: خيرٌ لكم من كونكم لكم فلم تقدح فيكم عَيْبَتِكُمْ في الحال، كما أنشدوا:

كُنْ لِي؛ كَمَا كُنْتَ لِي فِي حِينٍ لَمْ أَكُنْ
ويقال: لما خاطب موسى وكلمه، سأله موسى، إنه رأى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا، من هم؟ فقال: هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافاً كثيرة، فاشتاق إلى لقاءهم، فقال له: ليس اليوم وقت حضورهم فإن شئت أسمعناك كلامهم، فأراد ذلك، فنادى: يا أمة محمد؛ فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم، ثم لم يتركهم كذلك، بل زادهم من الفضائل؛ لأن الغني؛ إذا دعا فقيراً فأجابه؛ لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ. وقال الطبري: معنى قوله: { إذ نادينا } أي: بقوله: { سأكتبها للذين يتقون... } الآية. هـ. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } * { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ } * { قُلْ قَاتِلُوا بِيَدِكُمْ أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ } * { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

قلت: (لولا) الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف، أي: ولولا أنهم قائلون؛ إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك، محتجين علينا: (هلا أرسلت إلينا رسولا...) إلخ؛ لَمَا أرسلناك.

يقول الحق جل جلاله: { ولولا أن تصيبهم مصيبة } ، أي: عقوبة في الدنيا والآخرة، { بما }؛ بسبب ما { قدمت أيديهم } من الكفر والظلم، ولَمَّا كانت أكثر الأعمال إنما تناول بالأيدي، نسب الأعمال إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب؛ تغليباً للأكثر على الأقل، { فيقولوا } عند نزول العذاب: { ربنا لولا }؛ هلا { أرسلت إلينا رسولا } يُبذّرنا { فننّبع آياتك ونكون من المؤمنين } ، فلولا احتجاجهم بذلك علينا لَمَا أرسلناك، فسبب الإرسال هو قولهم: هلا أرسلت... إلخ.

ولما كانت العقوبة سبباً للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فدخلت " لولا " الامتناعية عليها، فرجع المعنى إلى قولك: ولولا قولهم هذا، إذا أصابتهم مصيبة، لما أرسلناك.

{ فَلَمَّا جاءهم الحق من عندنا }؛ القرآن المعجز، أو الرسول صلى الله عليه وسلم، { قالوا } أي: كفار مكة؛ اقتراحاً وتعنتاً: { لولا }؛ هلا { أوتي } من المعجزات { مثل ما أوتي }؛ أعطي { موسى } من اليد والعصا، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى: { أَوْ لَمْ يكفروا } أي: أبناء جنسهم، ومَنْ مذهبهم على مذهبهم، وعنادهم مثل عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام، فقد كفروا { بما أوتي موسى من قبل }؛ من قبل القرآن، { قالوا } في موسى وهارون: { ساحران تظاهرا }؛ تعاوناً، أو: في موسى ومحمد - عليهما السلام - بإظهار تلك الخوارق، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون: " سِحْران "؛ بتقدير مضاف، أي: ذوا سحر، أو: جعلوهما سحرين؛ مبالغة في وصفهما بالسحر. { وقالوا } أي: كفره موسى وكفرة محمد صلى الله عليه وسلم: { إنا بكل }؛ بكل واحد منهما { كافرون }.

وقيل أن أهل مكة، لَمَّا كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن؛ فقد كفروا بموسى وبالتوراة، وقالوا في محمد صلى الله عليه وسلم وموسى: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن: سحران تظاهرا، أو: ذلك حين بَعَثُوا الرهط إلى رؤساء اليهود يسألونهم عن محمد، فأخبروهم أنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: { ساحران تظاهرا إنا بكل كافرون }.

{ قل } لهم: { فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما }؛ مما أنزل على موسى، وما أنزل عليّ، { أَتَّبِعُهُ }؛ جواب: فأتوا، { إن كنتم صادقين } في أنهما ساحران، { فإن لم يستجيبوا لك } دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، { فأعلم أنما يتبعون أهواءهم } الزائغة، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، { وَمَنْ أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله } أي: لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه بغير هدى، أي: بغير اتباع شريعة من عند الله.

و { بغير هدى }؛ حال، أي: مخذولاً، مُخَلَّلاً بينه وبين هواه، { إن الله لا يهدي القوم الظالمين }؛ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والتقليد. وبالله التوفيق.

الإشارة: لو احتجاج الناس على الله يوم القيامة، حين تصيبهم نقائص عيوبهم، ما بعث الله في كل زمان نذيراً طيباً، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس، قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي فلان وفلان من كرامات المتقدمين، فيقال لهم: قد كان مَنْ قبلكم من الأولياء لهم كرامات، فكذبوهم، وأنكروا عليهم، ورموهم بالسحر والتبدع وغير ذلك، وبقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أي: بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.

@ { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

قلت: يقال: وصلت الشيء: جعلته موصولاً بعبءه ببعض، ويقال: وصلت إليه الكتاب: أبلغته.

يقول الحق جل جلاله: { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } أي: لتقريبهم ولغيرهم، { الْقَوْلَ }؛ القرآن، أي: تابعناه موصولاً بعبءه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء إلى الإسلام. قال ابن عطية. وقال ابن عرفة اللغوي: أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، ليصل بعبءه ببعض، ليكونوا له أوعى. هـ. وتنزيله كذلك؛ ليكون أبلغ في التذكير؛ ولذلك قال: { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } يعني: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلًا؛ وعداءً، ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظاً؛ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل: معنى وصلنا: أبلغنا. وهو أقرب؛ لتبادر الفهم، وفي البخاري: أي: " بينا وأتممنا ". وهو عن ابن عباس. وقال مجاهد: فصلنا. وقال ابن زيد: وَصَّلْنَا خَيْرَ الدُّنْيَا بِخَيْرِ الْآخِرَةِ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا.

الإشارة: تفريق المواعظ في الأيام، شيئاً فشيئاً، أبلغ وأنفع من سردها كلها في يوم واحد. وفي الحديث: " كان صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة، مخافة السامة علينا " ، والتخول: التعاهد شيئاً فشيئاً. والله تعالى أعلم.

@ { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ } * { وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } * { أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } * { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ }

قلت: (الذين): مبتدأ، (وهم به): خبر.

يقول الحق جل جلاله: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ }؛ من قبل القرآن { هُمْ بِهِ } أي: القرآن { يُؤْمِنُونَ } ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب، أو: النجاشي وقومه، أو: نصارى نجران، الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، وهم عشرون رجلاً، فأمنوا به. قال ابن عطية: ذكر هؤلاء مباحياً بهم قريشاً. هـ. أي: فهم الذين يُقدرون قدر هذا الكتاب المنزل لِمَا معهم من العلم الذي ميزوا به الحق، ولذلك قال: { وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا }؛ لِمَا عرفوا في كتابهم من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وكتابه، { إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ }؛ من قبل القرآن، أو: من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، { مسلمين }؛ كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وسلم. فقلوه { إنه } : تعليل للإيمان به؛ لأن كَوْنَهُ حقاً من عند الله حقيق بأن يُؤْمَنَ به. وقلوه: { إنا } : بيان لقلوه: { أمنا }؛ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد أو بعيد، فأخبروه بأن إيمانهم به متقدم.

{ أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مرتين بما صبروا }؛ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن، أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن، قبل نزوله وبعده، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفي الحديث: " ثلاثة يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأعتقها وتزوجها ".

{ ويدرؤون بالحسنة السيئة }؛ يدفعون الخصلة القبيحة بالخلصة الحسنة، يدفعون الأذى بالسلم، والمعصية بالطاعة. { ومما رزقناهم ينفقون }؛ يتصدقون، أو يزكون، { وإذا سمعوا اللغو }؛ الباطل، أو الشتم من المشركين، { أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا } للآعين: { لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم }؛ أمان منا عليكم، لا نقابل لغوكم بمثله، { لا نبتغي الجاهلين }؛ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم، أو: لا نبتغي دين الجاهلين، أو محاورة الجاهلين وجدالهم، أو: لا نريد أن نكون جهالاً.

وفي السير: أن أصحاب النجاشي لَمَّا كلمهم جعفر رضي الله عنه في مجمع النجاشي، بَكُوا، ووقر الإسلام في قلوبهم، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فقرأ عليهم القرآن، فأسلموا، وقالوا: { آمنا به إنه الحق من ربنا.. } الآية. فلما خرجوا من عنده صلى الله عليه وسلم؛ استقبلتهم قريش فسبوه، وقالوا: ما رأينا قوماً أحق منكم، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل، فقالوا لهم: { سلام عليكم... } إلخ.

الإشارة: مَنْ تَحَمَّلَ من العلماء مشقة تَحَمُّلِ العلم الظاهر، ثم ركب أهواء النفس ومحاربتها في تحصيل العلم الباطن، فهو ممن يُوتَى أجره مرتين، وينال عز الدارين ضعفين؛ بسبب صبره على العَلَمِين، وارتكاب الذل مرتين، إذا اتصف بما اتصف به أولئك، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله من الحس والمعنى، كالعلوم والمواهب، ويعرض عن اللغو - وهو كل ما يشغل عن شهود الله - ويحلم عن الجاهل، ويرفق بالسائل. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَبْتَ وَلَا كَرِهَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { إنك } يا محمد { لا تهدي من أحببت } ، أي: لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم، يعني: أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق، ولو كان أكمل الخلق. { ولكن الله يهدي من يشاء }؛ يخلق الهداية في قلب من يشاء، { وهو أعلم بالمهتدين }؛ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج: اجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بني هاشم صدقوا محمداً فتلحوا، فقال صلى الله عليه وسلم: " يا عم تأمُرُهُم

بالتَّصِيحَةَ لَأَنْفُسِهِمْ وَتَدْعُهَا لِنَفْسِكَ! " فقال: ما تريد يا ابن أخي؟ فقال: " أريدُ منك أن تقول: لا إله إلا الله، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ " فقال: يا ابن أخي! أنا قد علمت أنك صادق، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت. هـ. وفي رواية قال: (لولا أن تُعيرني نساء قريش، وبقلن: إنه حملني على ذلك الجزع، لأقيررثُ بها عينك). وفي لفظ آخر عند البخاري: قال له: " يا عم، قُل: لا إله إلا الله، أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ " فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: بل على ملة عبد المطلب، فنزلت الآية.

وفيها دليل على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، وقد هدى الله الناس أجمع، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدلَّت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية؛ وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وبالله التوفيق.

الإشارة: الآية ليست خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، بل هي عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته، كتب شيخ أشياخنا، سيدي " أحمد بن عبد الله " ، إلى شيخه، سيدي " أحمد بن سعيد الهبري "؛ يشكو له ابنه؛ حيث لم ير منه ما تقر به عينه، فكتب إليه: أخبرني: ما الذي بَتَّيتَ فيه؟ دع الدار لبانيها، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفي اللباب - بعد كلام - : قد رضي الله على أقوام في الأزل، فاستعلمهم في أسباب الرضا من غير سببٍ، وَسَخَطَ على أقوام في الأزل، فاستعلمهم في أسباب السَّخَطِ بلا سبب. { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ } [الأنعام: 125] الآية.

وهذه الآية تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها: { إنك لا تهدي من أحببت } ، والحكم عام في كل أحد، وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأتم الفضائل وأعلى الوسائل، حتى لم يُسَبِّقْ لفضيلة، ولم يَحْتَجْ لوسيلة، وليس في ذلك نظر، بل سابقة السعادة أيدته، والخصوصية قرَّبتَه، ولو كان له في التقدير نظر ما مُنِعَ من الشفاعة في عمه أبي طالب، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آزر، أو بيد محمد صلى الله عليه وسلم لأنقذ عمه أبا طالب، جذبت العناية سلمان من فارس، وصاحت على بلال من الحبشة، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحان من أعطى ومنع، وضر ونفع. هـ.

@ { وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدْيَا مَعَكَ تَتَّخِطُّ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبَبُ إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَآكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: (رزقاً): حال من (الثمرات)؛ لتخصيصه بالإضافة، أو مصدر لتجبي؛ لأن معناه: نرزق، أو: مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: { وقالوا } أي: كفار قريش { إن تتبع الهدى } وندخل { معك } في هذا الدين؛ { تُتَخَطَّفُ من أرضنا } أي: تخطفنا العرب وتُخرجنا من أرضنا.

نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكننا نخاف، إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكلة رأس، أن يتخطفونا من أرضنا، فردّ الله عليهم بقوله: { أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا }؛ أَوْ لَمْ نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت، يأمن فيه قُطانه، ومن التجأ إليه من غيرهم؛ فَأَتَى يستقيم أن نعرضهم للتخطف، ونسلمهم الأمن، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟.

{ تُجَبَىٰ إِلَيْهِ } ، أي: تُجْمَعُ وتُجْلِبُ إليه من كل أَوْب، { ثَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ } أي: كل صنف ونوع. ومعنى الكَلْبَةِ: الكثرة؛ كقوله: { وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [النمل: 23]، { رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا } ، ونعمة من عندنا، وإذا كان حالهم، وهم عبدة الأصنام، فكيف إذا أووا إلى كهف الإسلام، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

{ ولكن أكثرهم لا يعلمون } أي: جهلة، لا يتفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته، إن أسلموا. وقيل: يتعلق بقوله: { مِنْ لَدُنَّا } ، أي: قليل منهم يتدبرون، فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله؛ وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله؛ لعلموا أن الخوف والأمن من عند الله، ولَمَّا خافوا التخطف إذا آمنوا به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس، ممن أراد الله حرمانه من الخصوصية، يتعلل بهذه العلل الواهية، يقول: إن دخلنا في طريق القوم؛ رَفِضْنَا الناس، وأنكر علينا أقاربنا، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم: أو لم أمكن لأوليائي، المتوجهين إلى حَضْرَةِ القدس، حرماً آمناً تُجَبَىٰ لأهلها الأرزاق من كل جانب، بلا حرص ولا طمع ولا سبب، ولكن أكثر الناس؛ جهالاً بهذا، وقفوا مع العوائد، فحرموا الفوائد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

@ { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } * { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيهَا أُمَّهَاتٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ }

قلت: " كم " : منصوب بأهلكتنا. والبطر: الطغيان عند النعمة. قال في القاموس: البَطْر - محرّكة: النشاط، والأشر، وقلة احتمال النعمة، والدهش، والحيرة، والطغيان بالنعمة، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية، فعلى الكل: كفرح. هـ. و(معيشتها) نصب بحذف الجار واتصال الفعل، أي: في معيشتها. وجملة (لم تسكن): حال، والعامل فيها: الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: { وكم أهلكتنا من قرية } ، أي: كثيراً أهلكتنا من أهل قرية، كانت حالهم كحالهم في الأمن والدعة، وخصب العيش، مِنْ وصفها { بَطَرَتْ } في { مَعِيشَتِهَا } ، أي: طغت وتجبرت ولم تشكر، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري: لم يعرفوا قدر نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أموالهم، وانتظام أمورهم، فهاموا

في أودية الكفران على وجوههم، وَخَرُّوا فِي وَهْدَةِ الطَّغْيَانِ عَلَى أَدْقَانِهِمْ، فدمر الله عليهم وخرّب ديارهم.

{ فتلك مساكنهم } خاوية، أو: فتلك منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار؛ كبلاد ثمود، وقرى لوط، وقوم شعيب، وغيرهم، { لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً } من السكنى، أي: لم يسكنها إلا المسافر، أو مار بالطريق؛ يوماً أو ساعة، { وكنا نحن الوارثين } لتلك المساكن من سكانها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا. وفيه إشارة لوعده النصر لمتبع الهدى، وأن الوراثة له، لا أنه يتخطف كما قد قيل، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة الله، ويتبع هواه، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل: إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى، فإنه الذي جرت سنة الله في بالهالك، وأما متبع الهدى؛ فهو آمن والعاقبة له.

{ وما كان ربك }؛ وما كانت عادته { مُهْلِكُ الْقُرَى } بذنب { حتى يبعث في أممها } ، أي: القرية التي هي أصلها ومعظمها؛ لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. { رسولاً }؛ لإلزام الحجة وقطع المعذرة، أو: ما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أممها، وهي مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها. { رسولاً } يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم، { يتلوا عليهم آياتنا }؛ القرآن، { وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون } ، أي: وما أهلكتناهم للانتقام، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارهم على الكفر والمعاصي، والعناد، بعد الإعذار إليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم خَرَّبْنَا من قلوب وأخلىناها من النور، حيث طغت وتجبرت في معيشتها، وانشغلت بحطوطها وشهواتها، فتلك أماكنها خاوية من النور، لم تُسكن بالنور إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين لها، فأعطينا ذلك النور غيرها، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يذكرها ويُبذرها، وما كنا مهلكي قلوب ومُثْلِفِيهَا إلا وأهلها ظالمون، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. والله تعالى أعلم.

@ { وَمَا أوتَيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ } * { أَفَمَنْ وَعَدَّتَاهُ وَعَدَّاءَ حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَّتَّعْتَاهُ مَتَّاعًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } * { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }

قلت: " ما " شرطية، وجملة: (فمتاع...) إلخ: جوابه.

يقول الحق جل جلاله: { وما أوتيتم من شيءٍ } من زهرة الدنيا { فمتاع الحياة الدنيا وزينتها } أي: أي شيء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة، أياماً قلائل، وهي مدة الحياة الفانية، { وما عند الله } من النعيم الدائم في الدار الباقية؛ ثواباً لأعمالكم { خير } من ذلك؛ لأنه لذة خالصة في بهجة كاملة. { وأبقى }؛ لأنه دائم لا يفنى { أفلا تعقلون } أن الباقي خير من الفاني، فتستبدلون الذي هو أدنى يا الذي هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (إن الله خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف؛ المؤمن والمنافق والكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتربى، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناح بعوضة لمی سقى الكافر منها شربة ماء " رواه الترمذي.

ثم قرر ذلك بقوله: { أفمن وعدناه وعداً حسناً } ، وهو الجنة؛ إذ لا شيء أحسن منها، حيث اشتملت على النظر لوجه الله العظيم، ولأنها دائمة، ولذا سميت الحسنی، { فهو { أي: الوعد الحسن { لاقیه { ومدركه، لا محالة، لامتناع الخلف في وعده تعالى، { كمن متعناه متاع الحياة الدنيا } الذي هو مشوب بالكدر والمتاعب، مستعقب بالفناء والانقطاع، { ثم هو يوم القيامة من المحصرين { للحساب والعقاب، أو: من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت في المؤمن والكافر، أو: في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي جهل - لعنه الله -، ومعنى الفاء الأولى: أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله: { أفمن وعدناه } أي: أبعده هذا التفاوت الجلي تُسوي بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب، لأنه لقاء الموعود مسبب عن الوعد. و " ثم " لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ: " ثم هو " بالسكون، شبه المنفصل بالمتصل، كما قيل في عَصْد - بسكون الضاد -.

{ و { اذكر { يوم يُناديهم }؛ يوم ينادي الله الكفار، نداء توبيخ، { فيقول أين شركائي }؛ في زعمهم { الذين كنتم تزعمون } أنهم شركائي، فحذف المفعول؛ لدلالة على الكلام عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء، قديماً وحديثاً، وقد تقدم أنفاً أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة وفي حديث آخر: " ما الدنيا في جانب الآخرة، إلا كما يدخل أذنك في البحر ثم يُخرجه، فانظر ماذا يعلق به " بالمعنى: فنعيم الدنيا كله، بالنسبة إلى نعيم الجنان، كبلل الأصبع، الذي دخل في الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر، ممزوج بالأهوال والأحزان والمتاعب. وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان - رضي الله عنهما -: " إن مثل الدنيا كمثل الحية، لين مسها، قاتل سمها، فأعرض عنها، وعمما يعجبك منها، لقله ما يصحبك منها، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون منها، احذر ما تكون منها، فإن صاحبها، كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه ".

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن هذه الدار دار الثوى، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها، ولم يحزن لشقائها - أي: لأنهما لا يدومان - ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، وأنها سريعة الثوى - أي: الهلاك - وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها؛ لكرهه أجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم

اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين " هـ. ذكره ابن وداعة الموصلي.

وذكر أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا إلتاط منها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، وفقير لا يدرك غناه، وأمل لا ينال منتهاه، إن الدنيا الآخرة طالبتان ومطلوبتان، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها، على فانية لا ينفك عذابها، وقدّم لما يُقدّم عليه مما هو الآن في يده، قبل أن يُخلفه لمن يسعد بانفاقه، وقد شقي هو بجمعه واحتكاره."

@ { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } * { وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلِمَ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } * { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } * { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } * { فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ }

قلت: " هؤلاء ": مبتدأ. و " الذين ": صفته، والعائد: محذوف، و " أغويناهم ": خبر.

والكاف في " كما ": صفة لمصدر محذوف، أي أغويناهم غياً مثل ما غوينا، و " لو أنهم ": جوابه محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله: { قال الذين حق عليهم القول } بالعذاب، وثبت مقتضاه، وهو قوله تعالى:

{ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود: 119]، وهم الشياطين، أو: أئمة الكفر: ورؤساء الكفرة: { ربنا هؤلاء } الكفرة { الذين أغوينا أغويناهم } أي: دعوناهم إلى الشرك وسؤلناه لهم، قد غووا غياً { كما } مثل ما { غوينا } يقولون: إنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان، بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب، وهذا كقوله: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ... } إلى قوله: { وَلَوْ مَوَّأَأْتُمْ أَنفُسَكُمْ... } [إبراهيم: 22].

ثم قالوا: { تبرأنا إليك } منهم فيما اختاروه من الكفر، { ما كانوا إيانا يعبدون } ، بل كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم. فَتَحَصَّلَ من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم عَرَّوْا الضعفاء، وتبرؤوا من أن يكون ألهتهم، فلا تناقض. انظر ابن جزي. وإخلاء الجملتين من العاطف؛ لكونهما مقررتين للجمله الأولى.

{ وقيل { للمشركين: { ادعو شركاءكم { أي: الأصنام؛ لثُخلصكم من العذاب،
{ قَدَعَوْهُمْ فلم يستجيبوا لهم { ، فلم يجيبوهم؛ لعجزهم عن الإجابة والنصرة. { ورأوا
العذاب لو أنهم كانوا يهتدون { لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ الْعَذَابَ، وقيل: " لو "؛ للتمني، أي: تمنوا
أنهم كانوا يهتدون.

{ و { اذكر { يوم يُناديهم فيقولُ ماذا أجبتمُ المرسلين { الذي أرسلوا إليكم؟ أي: بماذا
أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى، أولاً، ما يوبخهم به؛ من اتخاذهم له شركاء، ثم ما تقوله
الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنهم إذا وبخوا بعبادة الألهة اعتذروا بأن
الشياطين، أو الرؤساء، استغووهم، ثم ما يشبه الشماتة بهم؛ لاستغائتهم بالهتهم
وعجزهم عن نصرتهم. ثم ما يُبَكِّتُونَ به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة
العلل. قال تعالى: { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَوْمَئِذٍ {؛ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار.
وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون؛ إذ لم يكن عندهم جواب.

قال البيضاوي: وأصله: فعموا عن الانباء، لكنه عكس؛ مبالغة ودلالة على أن ما يحضر
الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره،
والمراد بالأنباء: ما أجابوا به الرسل، أو: ما يعمها وغيرها، فإذا كانت الرسل يتلعثمون
في الجواب عن مثل ذلك من الهول، ويفوضون إلى علم الله تعالى؛ فما ظنك بالضلال
من البُهم؟.

فهم لا يتساءلون {؛ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب؛ لفرط الدهشة، أو: عن العذر
والحجة، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. { فأما من تاب { من الشرك { وآمن {
بربه وبمن جاء من عنده، { وَعَمِلَ صَالِحًا { أي: جمع بين الإيمان والعمل، { فعسى أن
يكون من المفلحين {؛ من الفائزين عند الله بالنعيم المقيم. و " عسى " ، من الكرام،
تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين في الإيمان. وبالله
التوفيق.

الإشارة: قال الذين حقي عليهم القول؛ بالانحطاط عن درجة المقربين، والبقاء مع عامة
أهل اليمين، وهم الصادون الناس عن الدخول في طريق القوم: ربنا هؤلاء الذين أغوينا؛
زينا لهم البقاء مع الأسباب، والوقوف مع العوائد، أغويناهم كما غوينا، فحيث لم تقوَ
على مقام أهل التجريد، قوينا سوادنا بهم، تبرأنا إليك؛ لأننا لم نقهرهم، ولكن وسوسنا
لهم ذلك، ما كانوا إيانا يعبدون، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم: ادعوا ما كنتم
تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها، فدعوهم؛ فلم يستجيبوا لهم، ورأوا عذاب القطيعة،
لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية؛ ما وقعوا في ذلك. ويوم يناديهم فيقول: ماذا
أجبتم الداعين، الذين أرسلتهم في كل زمان، يدعون إلى الله، ويرفعون الحجاب بينهم
وبين ربهم، فعميت عليهم الأنبياء يومئذٍ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين، لغيبتهم
عنهم. والله تعالى أعلم.

@ { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {
* { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } * { وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي
الأولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {

يقول الحق جل جلاله: { وربك يخلق ما يشاء } ، لا موجب عليه، ولا مانع له، وفيه دلالة على خلق الأفعال. { ويختار } ما يشاء، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوي: وظاهره: نفي الاختيار عنهم رأساً، والأمر كذلك عند التحقيق؛ فإنَّ اختيار العبد مخلوق لله، منوط بدواعٍ لا اختيار لهم فيها، وقيل: المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه، فلذلك خلا عن العاطف، يعني قوله: { ما كان } { إله }، ويؤيده: ما روي أنه نزل في قولهم: { لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَيْنَا رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31] هـ. { ما كان لهم الخيرة } أي: ليس لهم أن يختاروا مع الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم. والخيرة: من التخير، تستعمل مصدراً بمعنى التخير، وبمعنى المتخير، ومنه: محمد خيرة الله من خلقه، ولم يدخل العاطف في { ما كان لهم الخيرة }؛ لأنه مقرر لما قبله، وقيل: " ما " : موصولة، مفعول بيختر، والراجع إليه: محذوف، أي: ويختار الذي كان لهم من الخيرة والصلاح. هـ. وبحث فيه النسفي بأن فيه ميلاً إلى الاعتزال، ويجاب: بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

{ سبحان الله } ، أي: تنزيهاً له عن أن ينزعه أحد، أو يزاحم اختياره اختياراً.

{ وتعالى عما يشركون } ، أي: تعاضم عن إشراكهم، أو: عن مشاركة ما يُشركون به.

{ وربك يعلم ما تُكنن } تُضمَر { صدورهم } من عداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسده، { وما يُعلنون } من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلاً اختير عليه غيرُه في النبوة. { وهو الله } المستأثر بالألوهية المختص بها، { لا إله إلا هو } ، تقرير له، كقولك: الكعبة قبله، لا قبله إلا هي. { له الحمد في الأولى } أي: في الدنيا، { والآخرة }؛ لأنه المُولي للنعم كلها، عاجلها وأجلها، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم:

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ }

[فاطر: 34]،

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ }

[الزمر: 74]،

{ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

[الزمر: 75]، والتحميد تم على وجه التلذذ لا الكلفة. { وله الحُكم }؛ القضاء بين عباده، { وإليه تُرجعون } بالبعث والنشور. وبالله التوفيق.

الإشارة: في الآية تخصيص على ترك التدبير والاختيار، مع تدبير الواحد القهار، وهو أصل كبير عند أهل التصوف، أفرد بالتأليف، وفي الحُكم: " أراح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك؛ لا تقم به أنت عن نفسك ". وقال سهل رضي الله عنه: ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ذروا التدبير، وإن كان ولا بد من التدبير، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم: هو ما فيه للنفس حظ، كتدبير أسباب الدنيا، وما تحصل بها من شهواتها، إذا صحبه عزم أو تكرير، وأمّا ما كان فيما يقرب إلى الله تعالى فهو النية

الصالحة، أو لم يصحب تصميم؛ بأن كان عَزَمَه محلولاً، أو علقه بمشيئة الله، أو كان خاطراً غير ساكن، فلا بأس به.
قال القشيري - بعد كلام في وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى: لأنه لو لم تنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العز؛ لأن من نفي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً، والاختيار للحق نعمتٌ عز، والاختيار للخلق صفةٌ نقص، ونعمتٌ ملام وقصور، فاختيار العبد على غير مُبَارَكٍ له، لأنه صفة غير مستحق لها، ومن أتصف بما لا يليق به افتضح، قال قائلهم:

ومعان إذا ادعاها سواهم لَزَمَتْه جِنَايَةُ السَّرَّاقِ
والطبيئة إذا ادعت صفة للحق أظهرت رعونتها، فما للمختار والاختيار؟! وما للمملوك
والمملك؟! وما للعبيد في دَسَتِ الملوك؟! قال تعالى: { ما كان لهم الخيرة } . هـ. وقال
آخر في هذا المعنى:

العبد ذو صَجَرٍ، والرَبُّ ذو قُدْرٍ والدهرُ ذو دُولٍ، والرزقُ مقسومٌ
والخيرُ أجمعٌ؛ فيما اختار خالقنا وفي اختيار سواه: اللومُ والشومُ
فإذا علمت، أيها العبد، أن الحق تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، لم يبق لك مع الله
اختيار، فالحالة التي أقامك فيها هي التي تليق بك، ولذلك قيل: العارف لا يعارض ما حلَّ
به، فقراً كان أو غنى. قال اللجائي في كتاب قطب العارفين: الراضي شبه ميت، لا
نفس له، يختار لها، فالفقر والغنى حكمان من حكيم واحد، وهو أعلم سبحانه بعبيده، وما
يصلحون به، فمنهم من يصلح للفقير ولا يصلح للغنى، ومنهم من يصلح للغنى ولا يصلح
للفقر، ومنهم من يصلح بالمنع ولا يصلح بالعطاء، ومنهم من يصلح بالعطاء ولا يصلح
بالبلاء، ومنهم من يصلح بالبلاء ولا يصلح بالصحة، ومنهم من يصلح بالصحة ولا يصلح
بالبلاء، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعاً، وهو أعلى رتبة يشار إليها في غاية هذا الشأن،
{ وربك يخلق ما يشاء ويختار... } الآية، ففي هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض
عن الله تعالى، لكن لا يعقلها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وبالله التوفيق.

@ { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِيَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِضْيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ } * { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِيَّا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } * { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } * { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } * { وَبَرَّعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ فَقُلُّوا إِنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }

قلت: (سرمداً): مفعول ثان لجعل، وهو من السرد، أي: التتابع، ومنه قولهم في الأشهر
الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، والميم زائدة، فوزنه: فَعْمَل.

يقول الحق جل جلاله: { قل أرايتم }؛ أخبروني { إن جعل الله عليكم الليل سرمداً }؛
دائماً؛ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض،
أو بإخفاء نورها، { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضْيَاءٍ }، وحقه: هل إله غير الله، وعبر بـ "
مَنْ " على زعمهم أن غيره إلهة، أي: هل يقدر أحد على هذا؟ { أفلا تسمعون } سماع
تدبر واستبصار؟.

{ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلي يوم القيامة { بإسكانها في وسط السماء، أو: بتحريكها فوق الأفق فقط، { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ }؛ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل: بنهار تتصرفون فيه، كما قال: { بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ } ، بل ذكر الضياء، وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، وليس هو التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس هو بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء. { أفلا تسمعون }؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل { أفلا تُبصرون }؛ لأن غيرك يُبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

{ ومن رحمته { جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ }؛ في الليل { وَلِتَبْتَغُوا } من فضله { بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً؛ لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، { ولعلكم تشكرون } أي: ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها.

ثم قرَّعهم على الإشراك، بعد هذا البيان التام، بقوله: { وَيَوْمَ يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون } وكرر التوبيخ على الشرك، ليؤذن ألا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. وقال القرطبي: أعاد هذا؛ لاختلاف الحالين، ينادون مرة، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكنون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ثم طرق كون المناداة من الله، أو ممن يأمره بذلك، لقوله: { وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ } [البقرة: 174]، ويحتمل: ولا يكلمهم بعد قوله: { أَحْسَنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ < } [المؤمنون: 108] أو: ولا يكلمهم كلام رضا. هـ.

{ ونزعنا }؛ وأخرجنا { من كل أمة شهيداً } ، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه؛ لأن الأنبياء شهداء على أممهم، { فقلنا } للأمم: { هاتوا برهانكم } على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول، { فعلموا } حينئذٍ { إن الحق لله } في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره، { وصل عنهم }؛ غاب غيبة الشيء الضائع { ما كانوا يفترون } من ألوهية غير الله وشفاعة أصنامهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: دوام ليل القبض يمحق البشرية، ودوام نهار البسط يُطغي النفس، وتخالفهما على المرید رحمة، وإخراجه عنهما عناية، وفي الحكم: " بسطك كي لا يتركك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه ". وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقعان في الوجود وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

@ { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } * { وَابْتَغِ فِيمَا

أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ {

قلت: " قارون "؛ غير مصروف؛ للعجمة والتعريف، ولو كان " فاعولاً "؛ من قرنت الشيء، لا تصرف لخروجه عن العجمة. { إذ قال { : طرف لبغى أي: طغى حين وُعظ، ولم يقبل ما وُعظ به، أو: يتعلق بمقدر، أي: أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه: لا تفرح. و " ما "؛ موصولة، و " إن " مفاتحه "؛ صلته، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } كان إسرائيلياً، ابن عم لموسى وابن خالته، فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمى " المنور "؛ لحسن صورته وكان آمن بموسى، وكان أحفظ الناس للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري. { فَبَغَى عَلَيْهِمْ } ، من البغي، أي: الظلم؛ قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم. أو: من البغي، أي: الكبر، أي: تكبر عليهم بكثرة ماله وولده، وزاد عليهم في الثياب شبراً، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده.

{ وآتيناها من الكنوز ما { الذي { إِنَّ مَفَاتِحَهُ }؛ جمع مِفْتَاح، بمعنى المقلد، أي: إن مقاليدته { لَتَنْوَأُ } أي: تثقل { بِالْعُصْبَةِ } ، الباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة، وكانت مفاتيح خزائنه وقرستين بغلاً، لكل خزانه مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود، أي: مغاليقها. وقيل: معنى تنوء: تنهض يتكلف، ويكون حينئذ في الكلام قلب؛ إذ العصبة هي التي تنوء بالمفاتيح، لا العكس، قيل: وسميت أمواله كنوزاً؛ لأنه كان لا يؤدي زكاتها، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

{ إذ قال له قومه لا تفرح {؛ لا تبطر بكثرة المال؛ فرح إعجاب؛ لأنه يقود إلى الطغيان. أو: لا تفرح بالدنيا؛ إذ لا يفرح بها إلا من لا عقل له، { إن الله لا يحب الفرحين: { البطرين المفتخرين بالمال، أو: الفرحين بزخارف الدنيا، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوي: الفرح بالدنيا مذموم مطلقاً؛ لأنه نتيجة حبها والرضا بها، والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارق لا محالة، يوجب التوخي لا محالة، كما قيل:

أَسَدُّ الْعَمِّ عِنْدِي فِي سُورٍ تَبَيَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً
{ وابتغ فيما آتاك الله { من المال والثروة { الدار الآخرة {؛ بأن تتصدق على الفقراء تصل الرحم، وتصرفه في أنواع الخير، { ولا تنس نصيبك من الدنيا { ، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيل: معناه: واطلب بدنياك آخرتك؛ فإن ذلك حظ المؤمن منها لأنها مزرعة الآخرة، فيها تكتسب الحسنات وترفع الدرجات، أي: لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة، { وأحسن { إلى عباد الله { كما أحسن الله إليك { فيما أنعم به عليك؛ أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بسوايغ الإنعام ولا تبغ الفساد في الأرض { بالظلم والبغي وإنفاق المال في المعاصي؛ { إن الله لا يحب المفسدين {؛ لا يرضى فعلهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها، بل الفرح بكل ما يَفِينِي: كُلُّهُ مذموم. قال في الإحياء: الفرح بالدنيا والتنعيم بها سُمُّ قاتل، يسري في العروق، فَيُخْرِجُ من القلب الخوفَ والحزنَ، وذكَّرَ الموتَ وأهوالَ يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، والعياذ بالله، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لِمَوَاتَاةِ الدنيا، وَعَلِمُوا أن النجاة في الحزن الدائم، والتباعد من أسباب الفرح والبطر، فقطعوا النفس عن ملاذها، وعودوا الصبر عن شهواتها، حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب، وهو نوع عذاب، ومن نوقش الحساب عُدِّبَ، فخلَّصوا أنفسهم من عذابها، وتوصلوا إلى الحرية والملك في الدنيا والآخرة، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.

وقال يُمَّن بن رزق: اعلم أني لم أجد شيئاً أبلغ في الزهد في الدنيا من ثبات حزن الآخرة في القلب، وعلامة ثبات حزن الآخرة في القلب: أنسُ القلب بالوحدة. هـ. قلت: وهذا مذهب العباد والزهاد، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، جعلنا الله من خواصهم، بمته وكرمه. @ { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُ عَلِيًّا عِلْمًا عِنْدِي أَوْلَمَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { قال } قارون: { إنما أُوتيته } أي: المال { على علم عندي } أي: على استحقاق مني، لِمَا فِيَّ من العلم الذي فضلت به الناس، وهو علم التوراة، وكان أعلم الناس به بعد موسى وهارون، وكان من العباد، ثم كفر بعد ذلك. وذكر القشيري أنه كان منقطعاً في صومعة للعبادة، فصحبة إبليس على العبادة، واستمر معه على ذلك، وهو لا يشعر، إلى أن ألقى إليه: إن ما هما عليه، من الانقطاع عن التكسب، وكون أمرها على أيدي الناس، ليس بشيء، فرده إلى الكسب بتدريج، إلى أن استحکم في حب الدنيا والجمع والمنع، ثم تركه. هـ. وقيل: المراد به علم الكيمياء، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة، أو: العمل بكنوز يوسف.

قال تعالى: { أَوْلَمَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا } ، أي: أو لم يكن في علمه، من جملة العلم الذي عنده، أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه وأقوى وأغنى، وأكثر جمعاً للمال، أو أكثر جماعة وعدداً، وهو توبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك؛ لأن قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ. أو: نفي لعلمه بذلك؛ لأنه لَمَّا قَالَ: { أُوتِيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي }؛ قيل له، أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع، الذي هو الاعتبار بمن هلك قبله، حتى يَقِيَ نفسه مصارع الهالكين.

{ ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } ، لعلمه تعالى بعملهم، بل يُدْخِلُهُمُ النَّارَ بَغْتَةً.

أو: يعترفون بها بغير سؤال، أو: يُعْرَفُونَ بِسِيْمَاهُمْ فَلَا يُسْأَلُونَ، أو: لَا يُسْأَلُونَ سَوْأَلِ تَوْبِيخٍ، أو لَا يُسْأَلُ الْمُجْرِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ ذُنُوبِ الْمَاضِينَ. قال محمد بن كعب: هو كلام متصل بما قبله، والضمير في (ذنوبهم)؛ عائد علي من أهلك من القرون، أي: أهلکوا، ولم يُسْأَلْ غَيْرُهُمْ بَعْدَهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بل كان أحد إنما يُعَاتَبُ عَلَى مَا يَخْصُهُ. هـ.

وإذ قلنا هو؛ في القيامة فقد ورد في آيات أخر أنهم يُسألون، ويومُ القيامة مواطن وطوائف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا خص الله عبداً بخصوصية فلا ينسبها لنفسه، أو لحوله وقوته، أو لكسبه ومجاهدته، بل يشهدا منةً من الله عليه، وسابق عناية منه إليه، قال سهل رضي الله عنه: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية منة الله عليه، في جميع الأفعال والأقوال. والشقي من رُيِّن له في عينه أفعاله وأقواله وأحواله، ولا فتح له سبيل رؤية منة الله عليه، فافتخر بها وادعاها لنفسه، فشؤمه أن يهلكه كما خسف بقارون. لَمَا ادعى لنفسه فضلاً. هـ.

@ { فَخَرَجَ عَلْنَا قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } * { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفَاهَاتِيهِ إِلَّا الصَّابِرُونَ } * { فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ } * { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَبَّوْا مَكَانَهُ بِالْأُمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَارِنُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيُكَافِّرُونَ } *

قلت: (في زينته): حال، { وَيُكَانُهُ } : مذهب الخليل وسيبويه: أن " وي " : حرف تنبيه منفصلة عن كَانَ، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة: " ويك " هي " ويك "؛ حذفت اللام منها؛ لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة: " ويكان " بجملتها كلمة. قاله الثعلبي، وقال البيضاوي: ويكان، عند البصريين، مركب من " وي "؛ للتعجب، و " كان " ، للتشبيه. هـ. وقال سيبويه: " وي " : كلمة تنبيه على الخطأ وتَدْمُ، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله: { فَخَرَجَ } قارونُ { على قومه في زينته } ، قال جابر: كانت زينته القرمز، وهو صبغ أحمر معروف. قيل: إنه خرج في الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء، عليها الأرزجان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض، عليهن الحلبي والديباج.

{ قال الذين يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ، قيل: كانوا مسلمين، وإنما تمنوا، على سبيل الرغبة في اليسار، كعادة البشر، وقيل: كانوا كفاراً، ويرده قوله: { لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا.. } إلخ. { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ } من المال والجاه، قالوه: غِبْطَةً. والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه، من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له، دونه. وهو كقوله تعالى:

{ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }

[النساء:32]، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هلي تضر الغبطة؟ فقال: " لا... " الحديث. { إنه لذو حظٍ عظيم } من الدنيا، والحظ: الجَدُّ، وهو البخت والدولة.

{ وقال الذين أوتوا العلمَ { بالثواب والعقاب وفناء الدنيا، أو: أوتوا العلم بالله، فيؤخذ منه: أن متمني الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس؛ إذ لا يتمناها إلا المحب لها، وهي رأس الفتنة. فأَيُّ علم يبقى مع فتنة الدنيا؟! قالوا في وعظهم لغابطي قارون: { وَيَلْكُمْ }؛ هلاكاً لكم، فأصل ويلك: الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع على ترك ما لا يرضى. وقال في التبيان في إعراب القرآن: هو مفعول بفعل محذوف، أي: ألزمتكم الله ويلكم، { ثوابُ الله } في الآخرة، { خير لمن آمن وعَمِلَ صالحاً } مما أوتي قارون، بل من الدنيا وما فيها، { ولا يُلقَّها } أي: لا يلقي هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء، وهي ثواب الله خير، { إلا الصابرون }، أو: لا يلقي هذه القوة والعزيمة في الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفي حديث الترمذي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من ترك اللباس - أي: الفاخر -؛ تواضعاً لله تعالى، وهو يَقْدِرُ عليه، دعاؤه الله على رؤوس الخلائق، حتى يُخَيَّرَهُ من أي حُلل الإيمان شاء يَلْبَسُهَا " وفيه أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: " لَيْسَ لابن آدَمَ حَقٌّ في سوى هذه الخِصَال؛ بيتٌ يَسْكُنُهُ، وَتَوْبٌ يُؤَارِي عَوْرَتَهُ، وَجَلْفُ الحُبْرِ وَالْمَاءِ " أي: ليس معه إدام.

قال تعالى: { فخشفنا به }؛ بقارون { وباداره الأرض }، كان قارون يؤدي موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه؛ للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه: على كل ألف دينار دينار، وعلى كل ألف درهم درهم، فحاسبه فاستكثره، فشحت به نفسه، فجمع بني إسرائيل، وقال له: قد أطعتم موسى في كل شيء، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا قُمْرنا بما شئت، قال: نجعل لفلانة البغي جُعلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيباً، فقال: من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فناشدها بالذي خلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جُعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخرَّ موسى ساجداً يبكي، وقال: اللهم إن كنت رسولك فأغضب لي، فأوحى الله تعالى إليه: مُر الأرض بما شئت فيه، فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل: إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رَجُلَيْن. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله وبالرحم، وموسى لا يلتفت إليهم؛ لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى: يا موسى؛ استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتي لو استرحمني مرة لرحمته.

رُوي أنه يخسف كل يوم قامة، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فقال بعض بني إسرائيل: إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه، فدعى الله تعالى فخسف بداره وكنوزه، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إني لا أعبُدُ الأرضَ أحداً بعدك أبداً، أي: لا أمرها تطيع أحداً بعدك.

{ فما كان له من فئة {؛ جماعة { ينصرونه من دون الله {؛ يمنعونه من عذاب الله { وما كان من المنتصرين { من عذاب الله، أو: من المنتقمين من موسى.

{ وأصبح { أي: وصار { الذين تمّنوا مكآته { أي: منزلته من الدنيا { بالأمس { متعلق بتمنوا. ولم يُرد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت القريب، استعارة. { يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر { أي: أعجب مما صنع بقارون؛ لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء، وهو عنده ممقوت، { ويقدر { أي: يضيقه على من يشاء، وهو عنده محبوب.

لولا أن مَنَّ الله علينا {؛ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس، { لخسف بنا { معه، كما فعل بالرجلين { ويكأنه لا يُفلح الكافرون { أي: اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضي: كأنه المخاطب كان يدعي أنهم يفلحون، فقال له: عجباً منك، فسئل: لم تتعجب منه؟ فقال: إنه لا يفلح الكافرون، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز: ويكأن الله معناه. ألم تر أن الله. واقتصر عليه البخاري. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية ترهيب من التعمق في زينة الدنيا، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها، وترغيب في الزهد فيها، وإيثار الفقر على الغنى، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارفي؛ سيدي عبد الرحمن بن يوسف اللجائي في كتابه: اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلت في قلب عبد، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل إنسان يعظم ما اشتتهت نفسه. وهذه صفة عبید الدنيا، وعبید أهوائهم. وهي صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: { قال الذين يريدون الحياة الدنيا... { الآية. فكل محب للدنيا، مستغرق في حبها، فهو لاحق بالذين تموا زينة قارون. واعلم أن الدنيا إذا رسخت في القلب، واستوطنت، ظهر ذلك على جوارح العبد، بتكاليه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة، ويمنعه سياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع - لو ملك الدنيا بحذافيرها - لم يشبع. وقال بعض الحكماء: القناعة هي الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين. هـ. ومال الراغبين في الدنيا هو مال قارون، من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إِنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى الدُّنْيَا وَرَبَّتِيهَا فَانظُرْ إِلَى مَالِكَ الْأَمْلاِكِ قَارُونَ
رَمَّ الْأُمُورَ فَأَعْطِيَهُ مَقَادَتَهَا وَسَخَّرَ النَّاسَ؛ بِاللِّشْدِيدِ وَاللِّينِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَلَّا شَيْءَ عَالِيَهُ وَمُكِنَّتْ قِدَمَاهُ أَيَّ تَمَكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَنَائِبُ رَوْحَةً تَرَكَتْ دَا الْمُلْكِ وَالْعِرَّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ

@ { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا قَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } * { مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قلت: (تلك): مبتدأ، و(نجعلها): خبر.

يقول الحق جل جلاله: { تلك الدار الآخرة { أي: تلك الدار التي سمعت بذكرها، وبلغت خبرها. وعن البعد في الإشارة، لبعد منزلتها وعلو قدرها، { نجعلها للذين لا يريدون

علواً في الأرض { أي: تكبراً وقهراً كحال فرعون، { ولا فساداً }؛ عملاً بالمعاصي، أو ظلماً على الناس، كحال قارون، أو قتل النفس، أو: دعاء إلى عبادة غير الله، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، أدرك ذلك بالفعل أم لا. وعن علي رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل: أن قرأها، ثم قال: ذهبت الأمانى ها هنا وعن عمر عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يرددها حتى قبض. { والعاقبة } المحمودة { للمتقين } ما لا يرضاه الله؛ من العلو والفساد وغير ذلك.

{ ومن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها } ذاتاً وقدرأً ووصفاً، { ومن جاء السيئة }؛ ما لا يرضاه الله تعالى، { فلا يجزى الذين عملوا السيئات }، أصله: فلا يجزون، وضع الظاهر موضع المضمرة؛ لِمَا في إسناد السيئات إليهم من تقيح رأيهم وتسفية أحلامهم، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين، { إلا ما كانوا يعملون }؛ إلا جزاء عملهم فقط، ومن فضله العظيم ألا يجزي السيئة إلا مثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة.

الإشارة: جعل الله الدار الآخرة للمتواضعين، أهل الذل والإنكسار، والعاقبة المحمودة - وهي الوصول إلى الحضرة - للمتقين الشهرة والاستكبار، وفي الحكم: " ادفن نفسك في أرض الخمول؛ فَمَا تَبَّتْ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ؛ لَا يَتِمُّ نَتَاجُهُ ". قال في التنبيه: لا شيء أضر على المرید من الشهرة وانتشار الصيت؛ لأن ذلك من أعظم حظوظه، التي هي مأمور بتركها، ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المرید بترك ما سوى هذا من الحظوظ.

وكان شيخ شيخنا يقول: نحب المرید أن يكون قدمه أعظم من صيته، ولا يكون صيته أعظم من قدمه. هـ. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال بعضهم: طريقتنا هذه لا تصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال أيوب رضي الله عنه: ما صدق عبد إلا ستره إلا يشعر بمكانه. وقال في القوت: ومتى ذل العبد نفسه، واتضع عندها، فلم يجد لذته طعماً، ولا لضعته حسماً، فقد صار الذل والتواضع كوته، فهذا لا يكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص في نفسه، ولا يحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنزلة في نفسه. فصارت الذلة والضعفة صفة لا تفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزبال، والكساحة للكساح، هما صنعتان له كسائر الصنائع. وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما.

فهذه ولاية عظيمة له من ربه، قد ولّاه على نفسه، وملّكه عليها، فقهرها بعزه، وهذا مقام محبوب، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال: ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز، ويستحليه إذا وجد، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه. هـ.

قلت: وهذا مقام من المقامات، والعارف الكالم لا يتغير قلبه على فقد شيء؛ إذ لم يفقد شيئاً بعد أن وجد الله، (مَادَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ). والذي ذكره في القوت هو حال السائرين الصادقين. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْهَا مَعَادٌ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } * { وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ } * { وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ يَعْذُ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَيْهَا رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } * { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

قلت: (ولا يصدنك): مجزوم بحذف النون، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله: لرسوله صلى الله عليه وسلم { إن الذي قرَضَ عليك القرآن } أي: أوجب عليك تلاوته وتبليغه، والعمل بما فيه، { لرادُّك إلى معاد } عظيم، وهو المعاد الجسماني؛ لتقوم المقام المحمود، الذي لا يقوم فيه أحد غيرك، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو: لرادك إلى معادك الأول، وهو مكة، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها؛ لأنها مولده ومولد آبائه، وقد رده إليها يوم الفتح، وإنما نكره؛ لأنه كان في ذلك اليوم معاد له شأن، ومرجع له اعتداده؛ لغلبته - عليه الصلاة والسلام - ونصره، وقهره لأعدائه، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذل الشرك وحزبه.

والسورة مكية، لكن هذه الآية نزلت بالْحُقَّةِ، لا بمكة ولا بالمدينة، وفي الآية وعد بالنصر، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يختص بالآخرة، بل يكون في الدنيا له ولمتبعيه، ولكن بعد الابتلاء والامتحان، كما في صدر السورة الآتية بعدها، وبهذا يقع التناسب بينهما، فإنها كالتعليل لما قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له: (قل ربي أعلم من جاء بالهدى أي: يعلم من جاء بالحق، يعني نفسه صلى الله عليه وسلم مع ما يستحقه من النصر والثواب، في معاده، { ومن هو في ضلال مبين }؛ وهم المشركون، مع ما يستحقونه من العقاب في معادهم.

{ وما كنت ترجو أن يُلقى }؛ يوحى { إليك الكتاب } أي: القرآن، فكما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه؛ كذلك يردك إلى معادك الأول، من غير أن تَرْجُوهُ، { إلا من رحمة من ربك }، لكن ألقاه إليك، رحمة منه إليك، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى، كأنه قال: وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، { فلا تكونن ظهيراً }؛ معيناً { للكافرين } على دينهم؛ بمُداراتهم والتحمل عنهم، والإجابة إلى طلبتهم.

{ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ } أي: لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات الله وتبليغها وإظهارها، { بعد إذ أنزلت إليك } أي: بعد وقت إنزالها، و { إذ }؛ مضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذٍ وبومئذٍ. { وادعُ إلى ربك }؛ إلى توحيدهِ وعبادته، { ولا تكونن من المشركين }، نهاه، تنفيراً لغيره من الشرك.

{ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ }، قال ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أهل دينه. قال البيضاوي. وهذا وما قبله تهيج، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم، { لا إله إلا هو }؛ استئناف، مقرر لما قبله، { كل شيء

هالكٌ إلا وجهُهُ { أي: ذاته، فالوجه يُعبَّرُ به عن الذات، أي: لكل شيءٍ فإنٍ مستهلكٍ معدومٍ، إلا ذاته المقدسة، فإنها موجودةٌ باقيةٌ.
وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجه الله، مِنْ عِلْمٍ وعملٍ، فإنه لا يفنى. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: يجاء بالدينا يوم القيامة، فيقال: ميزوا ما كان لله تعالى منها، فيميز، ثم يؤمر بسائرهما فيلقى في النار. هـ. وقال الضحاك: كل شيء هالكٌ إلا الله والجنة والنار والعرش.

{ له الحُكْمُ }؛ القضاء النافذ في خلقه، { وإليه تُرجعون }؛ للجزاء والفصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الاشتياق يُرَوِّحُونَ أرواحهم بهذه الآية، فيقولون لها: إن الذي فرض عليك القرآن، أن تعمل به في الدنيا لرادك إلى معاد جسماني روحاني، فتتصل نصرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب، من غير عذول ولا رقيب، على سبيل الاتصال، من غير تكدر ولا انفصال، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية؛ فيقولون: { ربي أعلم.. وما كنت ترجو أن تُلقَى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين المنكرين لها، معيناً لهم على إذاية من انتسب إليها، ولا يصدنك عن معرفة آيات الله الدالة عليه، بعد إذ أنزلت إليك، أي: لا يمنعك الناس عن صحبة أولياء الله، الدالين عليه، وادع إلى ربك، أي: إلى معرفة ذاته ووجدانيته، ولا تكونن من المشركين بشهود شيء من السُّوى، فإن كل شيء هالكٌ، أي: معدم في الماضي والحال والاستقبال، إلا وجهه: إلا ذاته، فلا موجود معها، وفي ذلك يقول الشاعر:

اللَّهُ قُلٌّ، وَدَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوعَ كَمَالِ
فَالْكُلِّ، دُونَ اللَّهِ، إِنْ حَقَّقْتَهُ، عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِحْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ، وَالْعَوَالِمَ كُلِّهَا، لَوْلَاهُ، فِي مَخَوْ وَفِي اضْمِحْلَالِ
مَنْ لَا وُجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ دَاتِهِ فَوُجُودُهُ، لَوْلَاهُ، عَيْنُ مُجَالِ
فَالْعَارْفُونَ قَتَوْا، وَلَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْآسْتِقْبَالِ
وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلّم.

#سورة العنكبوت §#

@ { ألم } * { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } * { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }

قلت: الحسبان: قوة أحد النقيضين على الآخر، كالظن، بخلاف الشك، فهو الوقوف بينهما. والعلم: هو القطع بأحدهما، ولا يصح تعلقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل، فلا أقول: حَسِبْتُ زبداً، ووطننت الفرس، بل حسبت زبداً قائماً، والفرس جواداً. والكلام الدال على المضمون، الذي يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا مع قوله: { وهم لا يفتنون } أي: أحسبو تركهم غير مفتونين لأن يقولوا: آمنا.

يقول الحق جل جلاله: { الم { الألف: لوحدة أسرار الجبروت، واللام: لفيضان أنوار الملكوت، والميم: لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره؛ ليظهر صدقه أو كذبه، وهذا معنى قوله: { أَحْسِبِ النَّاسُ { أي: أظن الناس { أن يُتْرَكُوا { غير - مفتونين ومختبرين، { أن يقولوا آمناً وهم لا يُفْتَنُونَ {؛ أظنوا أن يدعوا الإيمان ولا يُخْتَبَرُونَ عليه؛ ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف؛ من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأموال والنفوس، وإذابة الخلق؛ لتمييز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان، وإن كان على خلوص قلب، لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب، وما ينال العبد من المكارة يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما في ذلك من تصفية النفس وتهذيبها، لتتهدأ لإشراق أنوار مقام الإحسان.

رُوي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جزعوا من أذى المشركين، وضاعت صدورهم من ذلك، وربما استنكر بعضهم أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين. فزلت مُسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده؛ اختباراً لهم.

قال تعالى: { ولقد فتننا الذين من قبلهم { بأنواع المحن؛ فمنهم من كان يُوضع المناشر على رأسه، فيُفَرَّقُ فرقتين، وما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد، ومنهم من كان يُطرح في النار، وما يصده ذلك عن دينه. { فليعلمنَّ الله { بذلك الامتحان { الذين صدقوا { في الإيمان بالثبات، { وليعلمنَّ الكاذبين { بالرجوع عنه. ومعنى علمه تعالى به، أي: علم ظهور وتمييز. والمعنى: وليُمَيِّرَنَّ الصادق منهم من الكاذب، في الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء: يَتَبَيَّنُ صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الدنيا، وجزع في أيام البلاء، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة: سُنَّة الله تعالى في أوليائه: أن يمتحنهم في البدايات، فإذا تمكنوا من معرفة الله، وكمل تهذيبهم، أعزهم ونصرهم، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه على ذلك؛ وهم عرائس الملكوت، ضنَّ بهم أن يظهرهم لخلقه. والامتحان يكون على قدر المقام، وفي الحديث: " أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرجلُ على قدر دينه، فإن كان في دينه ضُلباً، أشدَّ بلاءً، وإن كان في دينه رِقَّة، ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خَطِيئَةٍ ".

وقال صلى الله عليه وسلم: " أشدُّ الناس بلاءً في الدنيا: نبي أو صفي " وقال صلى الله عليه وسلم: " أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يُبْتَلَى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يُحَوِّيها فيلبسها، ويُبْتَلَى بالقمل حتى يَقْتُلُهُ، ولأحدُّهم كان أشدَّ فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء " من الجامع. والله تعالى أعلم.

@ { أَمْ حَسِبِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُوتَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } * { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } * { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ

اللَّهُ لَعْنَةُ عَنِ الْعَالَمِينَ } * { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ { أي: الشرك والمعاصي
وإذابة المسلمين، { أن يسبقونا } أي: يفوتونا، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. و " أم " :
منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحساب أبطلُّ من الحساب الأول، لأن ذلك
يظن أنه لا يُمْتَحَنُ لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يُجَارَى بمساوئه، وشبهته أضعف، ولذلك عَقِبَهُ
بقوله: { سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } ، أي: بنس ما يحكمون به حكمهم في صفات الله أنه
مسبوق، وهو القادر على كل شيء، فالمخصوص محذوف.

ثم ذكر الحامل على الصبر عند الإمتحان، وهو رجاء لقاء الحبيب، فقال: { من كان يرجو
لقاء الله { أي: يأمل ثوابه، أو يخاف حسابه، أو ينتظر رؤيته، { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ {
المضروب للغاية { لَاتٍ } لا محالة. وهو تبشير بأن اللقاء حاصل؛ لأنه لأجل آت، وكل
آت قريب. وكل غاية لها انقضاء، فليبادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله.
{ وهو السميعُ } لما يقوله عباده، { العليمُ } بما يفعلونه، فلا يفوته شيء.

{ ومن جَاهَدَ } نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذابة
المخلوقات، وَحَسَبَ النفس على مراقبة الحق في الأنفاس واللحظات، { فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ
لنفسه }؛ لأن منفعة ذلك لها، { إن لله لغني عن العالمين } وعن طاعتهم ومجاهدتهم.
وإنما أمر ونهي؛ رحمة لهم، ومراعاة لصلاحهم.

{ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم } أي: الشرك والمعاصي؛
بالإيمان والتوبة، { ولنجزينهم } مع غنانا عنهم، { أحسنَ الذين كانوا يعملون } أي:
أحسن جزاء أعمالهم؛ بالفضل والكرم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أم حسب الذين يُنكرون على أوليائي، المنتسبين إليّ، أن يسبقونا؟ بل لا بد أن
نعاقبهم في الدنيا والآخرة، إما في الظاهر؛ بمصيبة تنزل بهم، أو في الباطن، وهو أقيح،
كقساوة في قلوبهم، أو: كسل في بدنهم، أو: شك في يقينهم، أو: بُعد من ربهم، فإن
من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب. ثم بشر المتوجهين الذين يؤدّون في جانبه، بأن
لقاءه حاصل لهم إن صبروا، وهو الوصول إلى حضرته، والتنعم بقربه ومشاهدته، جزاء
على صبرهم ومجاهدتهم، وهو العَني بالإنطلاق.

@ { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } * { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ }

قلت: " وصي " حُكْمُهُ حُكْمٌ " أَمَرَ " ، يقال وصيت زيداً بان يفعل خيراً، كما تقول: أمرته
بأن يفعل خيراً، ومنه:

{ وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ }

[البقرة: 132]، أي: أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله: { ووصينا الإنسان بوالديه }؛ أمرناه بإيتاء والديه { حُسْنًا } أي: فعلاً ذا حُسْنٍ، أو: ما هو في ذاته حُسْنٌ، لفرط حسنه، كقوله: { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } [البقرة: 83] أو: وصينا الإنسان بتعاهد والديه، وقلنا له: أحسن بهما حسناً، أو أولهما حُسْنًا. { وإن جاهداك } أي: حملاك بالمجاهدة والجد { لتُشركَ بي ما ليس لك به علم } أي: لا علم لك بالإلهية، والمراد تَفِيُّ العلم تَفِيُّ المعلوم، وكأنه قيل: لتشركَ بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً، وقيل: ما ليس لك به حجة؛ لأنها طريق العلم، فهو قوله: { لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ } [المؤمنون: 117]، بل هو باطل عقلاً ونقلاً، { فلا تُطعمها } في ذلك؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

{ إليّ مرجعكم } ، من آمن منكم ومن أشرك، { فأنبئكم بما كنتم تعملون }؛ فأجازيكم حق جزائكم. وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهم على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة في الدين. رُوي أن سعد بن أبي وقاص لما أسلم، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يترد، فشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَٰلِيَا أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا } [لقمان: 15].

{ والذين آمنوا }؛ ثبتوا على الإيمان { وعملوا الصالحات لُدْخِلْتَهُمْ فِي الصّٰلِحِينَ } أي: في جملتهم، والصّٰلِح من أبلغ صفة المؤمنين، وهو متمني الأنبياء، فقال سليمان عليه السلام: { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ } [النمل: 19]. وقال يوسف عليه السلام: { تَوَقَّئِنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّينِي بِالصّٰلِحِينَ } [يوسف: 101] أو: في مدخل الصّٰلِحِينَ، وهو الجنة.

الإشارة: قد وصى الله تعالى بطاعة الوالدين في كل شيء، إلا في شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلي والخفي، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدتهما من صحبتته، لينتظر من شركه، فلا يُطعمها، وسيأتي في لقمان دليل ذلك، إن شاء الله. وبالله التوفيق.

@ { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } * { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { ومن الناس من يقول آمنا بالله } ، فيدخل في جملة المسلمين، { فإذا أُوذِيَ في الله } أي: مسّه أذى من الكفرة؛ بأن عذبه على الإيمان، { جعل فتنة الناس كعذاب الله } أي: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، فَيُصْرَفُ

عن الإيمان، { ولئن جاء نصرٌ من ربك }؛ فتح أو غنيمة، { ليقولن إنا كنا معكم } أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، فأعطونا نصيباً من المغنم. والمراد بهم: المنافقون، أو: قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى: { أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } أي: هو أعلم بما في صدور العالمين. ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين. من الإخلاص.

الإشارة: منافق أهل الإيمان هو الذي يظهر الإيمان في الرخاء ويرجع عنه في الشدة، ومنافق الصوفية هو الذي يظهر الانتساب في السعة والجمال، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم، فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله بالقطيعة والحجاب، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز، ليقولن: إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيراً من هذا النوع، دخلوا في طريق القوم، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان؛ رجعوا القهقري، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، وعند الحَمَلَةِ يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيري: المحن تُظهِرُ جواهرَ الرجال، وتُدُلُّ على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من فوات الدنيا، أو نقص نصيبه فيها، أو بموت قريب أو فقد حبيب، فحقيز قدره، وكثير في الناس مثله. ومن كانت محنته في الله ولله، فعظيم قدره، وقليل مثله، في العدد قليل، ولكن في القدر والخطر جليل. هـ. قلت: معنى كلامه: أن العامة يمتحنهم الله ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم، فإن جزعوا فقدروهم حقير، وإن صبروا فأجرهم كبير، وأما الخاصة فيمتحنهم الله بسبب نسبتهم إلى الله، وإقبالهم عليه، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر، فَيُؤَدِّوْنَ في جانب الله، فمنهم من يُسَجِن، ومنهم من يُضْرِب، ومنهم من يُجَلِي من بلده، فهؤلاء قدرهم عند الله كبير. ثم قال: والمؤمن مَنْ يَكْفُ الأذى، والولي من يتحمل من الناس الأذى، من غير شكوى، ولا إظهار دعوى. هـ.

@ { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلِنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } * { وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وقال الذين كفروا { من صناديد قريش، { للذين آمنوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا } الذي نسلكه، وهو الدخول في ديننا، { وَلِنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } إن كان ذلك خطيئة في زعمكم. أمرهم باتباع سبيلهم، وهي طريقتهم التي كانوا عليها، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، أي: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا تُبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإننا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى: { وما هم بحاملين من خطاياهم من شيءٍ } أي: ما هم حاملين شيئاً من أوزارهم، { إنهم لَكَاذِبُونَ } فيما ادعوا؛ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم علي خلافه، كالكَاذِبِينَ الذين يَعِدُونَ الشيء وفي قلوبهم نية الخُلف. { وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ } أي: أثقال أنفسهم بسبب كفرهم، { وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ } أي: أثقالاً آخر غير التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم، كقولهم:

{ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِمَّنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ { [النحل: 25]، { وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } من الأكاذيب والأباطيل التي ضلوا بها.

الإشارة: كل من عاق الناس عن الدخول في طريق التصفية والتخليص: تَصَدَّقْ عليه هذه الآية، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التي بقيت فيهم، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } * { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { و { الله { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً { يدعوهم إلى الله، وهم يؤذونه بالشتيم والضرب حتى نُصر، فاصبر كما صبر، فإن العاقبة للمتقين.

رُوي أنه عاش ألفاً وخمسين سنة، وقيل: إنه ولد في حياة آدم، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً. وقيل: إلا أربعين. ذكره الفاسي في الحاشية. والمشهور: أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروي أنه بُعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب أنه عاش في عمره ألفاً وأربعمائة، وقيل: وستمائة، فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً؛ كيف وجدت الدنيا؟ قال: كَدَّارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل: تسعمائة وخمسين سنة، لأنه، لو قيل ذلك، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل هنا، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين كاملة وافية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظاً، ولأن القصة سبقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وما كابده من طول المصابرة؛ تسليةً لنبينا - عليه الصلاة والسلام - فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وَجِيءَ، أولاً: بالسنة ثم بالعام؛ لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة.

{ فأخذهم الطوفان }؛ طوفان الماء، وهو ما طاف وأحاط، بكثرة وغلبة، من سيل، أو ظلام ليل، أو نحوها، { وهم ظالمون } أنفسهم بالكفر والشرك، { فأنجيناه وأصحاب السفينة }، وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونسأؤهم، وَمَنْ آمَنَ مِنْ غَيْرِهِمْ، { وجعلناها } أي: السفينة، أو الحادثة، أو القصة، { آيةً }؛ عبرة وعظة { للعالمين } يتعظون بها.

الإشارة: كل ما سُلى به الأنبياء يُسَلَّى به الأولياء، فكل من أُوذِيَ في الله، أو لحقته شدة من شدائد الزمان، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر، ويتسلى بهم، ولينظر إلى لطف الله وبره وإحسانه، فإن لطفه لا ينفك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: العارف هو الذي يغرق إساءته في إحسان الله إليه، ويغرق شداد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه؛ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

@ { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } *
{ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَإِشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } * { وَإِنْ تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }

قلت: (إبراهيم): عطف على (نوح)، أو متعلق بذكر، و (وإذ قال): ظرف زمان لأرسلنا، أو: بدل اشتمال من (إبراهيم)؛ إِنَّ نُصِبَ بذكر، لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.

يقول الحق جل جلاله: { وإبراهيم } أي: وأرسلنا إبراهيم { إذ قال لقومه } أي: أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره، وبلغ من السن والعلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبو حنيفة: بالرفع. أي: ومن المرسلين إبراهيم، قال في وعظه: { اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم } مما أنتم عليه من الكفر، { إن كنتم تعلمون }؛ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

{ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً }؛ أصناماً { وتخلقون }؛ تختلفون وتكذبون، أو تصنعون أصناماً بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسلمي: " وَتُخْلِقُونَ " بالكسر والشدة. من خَلَقَ؛ للمبالغة. { إفكاً }؛ وقرئ " أفكاً " بفتح الهمزة، وهو مصدر، نحو كذب ولعب. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله.

{ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً }؛ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، { فابتغوا عند الله الرزق } كله؛ فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غيره. { واعبدوه واشكروا له } أي: متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره، { إليه ترجعون }، فاستعدوا للقاءه بعبادته والشكر له على أنعمه، { وإن تكذبوا } أي: تكذبوني { فقد كذب أمة من قبلكم } رسلهم، { وما على الرسول إلا البلاغ المبين } الذي يزول معه الشك. والمعنى: وأن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبكم؛ فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضرهم، وإنما ضرروا أنفسهم، حيث حل بهم العذاب. وأما الرسول فقد أدى ما عليه حين بلغ البلاغ المبين، الذي لم يبق معه شك، حيث اقترن بآيات الله معجزاته. أو: وإن كنت مُكذِّباً فيما بينكم، فلي في سائر الأنبياء أسوة، حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يُبَلِّغَ، وما عليه أن يصدَّق ولا يكذب.

وهذه الآية من قوله: { وإن تكذبوا } إلى قوله: { فما كان جواب قومه }؛ يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وأن تكون من كلام الله في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشأن قريش، مُعْتَرِضَةً بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت؛ معترضة فيه؛ فلا تقول: مكة، وزيد قائم، خير بلاد الله؟ قلت: قد وقع الاتصال، وبيانه: أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به؛ من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: { وإن تكذبوا } يا معشر قريش محمداً، فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمة كذبت نبيها لأن قوله: { فقد كذب أمة من قبلكم } لا بد من تناوله لامة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات

بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك، وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله وسلطانه، ووضح صحته وبرهانه.
قاله النسفي.

قال ابن جزى: { وَإِنْ تُكذَّبُوا } يحتمل ان يكون وعيداً للكفار وتهديداً لهم، أو يراد به تسلية النبي عن تكذيب قومه، بالتأسي بغيره من الأنبياء الذين كذبهم قومهم. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: { فابتنعوا عند الله الرزق }؛ قال سهل رضي الله عنه: معناه: اطلبوا الرزق في التوكل، لا في الكسب؛ فإن طلب بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء الله: اطلبوا الرزق في الطاعة والإقبال على العبادة. وقال القشيري: وقدّم ابتغاء الرزق؛ لتوقف القيام بالعبادة عليه، ثم أمر بالشكر على الكفاية. هـ.

@ { أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } * { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } * { يُعَدِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } * { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } * { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

قلت: يقال: بدأ الله الخلق، وأبداه: بمعنى واحد، وقد جاءت اللغتان في هذه السورة. وقوله: (يُعيدُه): عطف على الجملة، لا على (يبدئ)؛ لأن رؤية البداية بالمشاهدة بخلاف الإعادة، فإنها تُعلم بالنظر والاستدلال، وهم لا يقرونها، لعدم النظر. وقد قيل: إنه يريد إعادة النبات وإبداءه، وعلى هذا تكون (ثم يعيده): عطفاً على (يبدئ).

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمْ يَرَوْا } أي: كفار قريش { كيف يُبدئُ اللهُ الخلقَ } أي: يظهره من العدم، أي: قد رأوا ذلك وعلموه، { ثم يُعيدُه } بالبعث؛ للجزاء بالعذاب والثواب.

قال القشيري: الذي دَآخَلَهُمْ في الشكُّ هو بعث الخلق، فاحتج عليهم بما أراههم من فصول السنة بعد نقضها، وإعادتها على الوجه الذي كان في العام الماضي. وكما أن ذلك سائغ في قدرته، كذلك بُعث الخلق. هـ. ونحوه لابن عطية وغيره. كما هو مشهود في الثمار، من كونها تبدأ، فتجنى، ثم تبنى، ثم تعيدها مرة أخرى. وكذلك يبدئ خلق الإنسان، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً آخر، وكذا سائر الحيوان. وهذا يرشح صحة عطف " يعيد " على " يبدئ ". { إن ذلك على الله يسيرٌ } أي: الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة الله تعالى.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ } أي: قل يا محمد، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قل: سيروا في الأرض، { فانظروا كيف بدأ الخلق } على كثرتهم، واختلاف أحوالهم والسننهم وألوانهم وطبائعهم، تفاوت هيئاتهم، لتعرفوا قدرة الله بالمشاهدة، ويقوي إيمانكم بالبعث، وهو قوله: { ثم الله ينشئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } أي:

البعث، وهذا دليل على أنهما نشأتان: نشأة الاختراع ونشأة الإعادة، غير إن الآخرة إنشاء بعد إنشاء، والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ إنشاء الآخرة، وإنما عدل عنه؛ لأن الكلام معهم وقع في الإعادة، فلما قررهم في الإبداع، بأنه من الله، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداع، فإذا لم يعجزه الإبداع وجب ألا يعجزه الإعادة، فكانه قال: ثم ذلك الذي أنشأ الأولى هو الذي يُنشئ إنشاء الآخرة، فللتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ. قال النسفي.

{ إن الله على كل شيء قدير }؛ فلا يعجزه شيء. { يُعذَّب من يشاء } بعدله { ويرحم من يشاء } بفضل، أو: يُعذب من يشاء بالخذلان، ويرحم بالهداية للإيمان، أو: يُعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة، أو: يُعذب بالتدبير والاختيار ويرحم بالرضا والتسليم لمجاري الأقدار، أو: يُعذب بالإعراض عنه، ويرحم بالإقبال عليه، أو: بالاستتار والتجلي، أو: بالقبض والبسط، أو بالمجاهدة والمشاهدة، إلى غير ذلك. { وإليه تقلبون }؛ تُردون للحساب والعقاب.

{ وما أنتم بمعجزين } أي: بفائتين بكم إن هربتم من حكمه وقضائه، { في الأرض } الفسيحة، { ولا في السماء } التي هي أفسح منها وأبسط، لو كنتم فيها. وما لكم من دون الله من وليٍّ { يتولى أموركم، } ولا نصيرٍ؛ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. { والذين كفروا بآيات الله }؛ بدلائله على وحدانيته، أو كتبه، أو معجزاته، { ولقائه }؛ وكفروا بلقائه، { أولئك يئسوا من رحمتي }؛ جنتي، { وأولئك لهم عذاب أليم } موجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: أَوْلَمَ ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحقُّ تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثم يبطنها، فيردها لأصلها من اللطافة، ثم ينشأها النشأة الثانية، تكون معانيها أظهر من حسها، وقدرتها أظهر من حكمتها، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى، وإنما يُبطن ما ظهر، ويُظهر ما بطن، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لا يدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال، وهو لب العلم، وخالصة طريقة ذكر الله، والتفرغ عن كل شيء ما يشغل عن الله، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس. وبالله التوفيق.

@ { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } * { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَبَلَغَ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ }

قلت: { مودَّة بينكم }؛ مَنْ نَصَبَهَا: فله وجهان؛ أحدهما: على التعليل، أي لتوادوا بينكم، والمفعول الثاني محذوف، أي: اتخذتم أوثاناً آلهة. والثاني على المفعول الثاني لاتخذتم، كقوله:

{ اتخذ آلهه هواه }

[الفرقان: 43]. و(ما): كافة، أي: اتخذتم الأوثان سبب المودَّة على حذفٍ مضاف، أو: اتخذتموها مودَّة بينكم. و(بينكم): نصب على الظرفية؛ نعت لمودة، أي: حاصله

بينكم. ومن رفع: فله وجهان؛ إما خبر إن، و(ما) موصولة، أو: عن مبتدأ محذوف، أي: هي مودة بينكم، و(بينكم): مضاف إليه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله: { فما كان جوابَ قومه }؛ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الله { إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه } ، قاله بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقي راضين، فكانوا جميعاً في الحكم القائلين. فاتفقوا على تحريقه، { فأجابه الله من النار } حين قذفوه فيها؛ بأن جعلها برداً وسلاماً. وتقدم في الأنبياء تمام القصة.

{ إن في ذلك }؛ فيما فعلوه به وفعلناه { لآياتٍ } دالة على عظم قدرته { لقوم يؤمنون }؛ لأنهم المنتفعون بالفصح عنها والتأمل فيها. روي أنه لم ينتفع بها في تلك الأيام أحد لذهاب حرها؛ لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.

{ وقال } إبراهيم لقومه: { إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً }؛ أصناماً آلهة { مودّة بينكم في الحياة الدنيا } أي: لتوادوا بينكم في الحياة الدنيا، وتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها كما تتفق الناس على مذهب أو طريق، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو: إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة، أو اتخذتموها مودودة ومحبوبة بينكم، أو: إن التي اتخذتموها أوثاناً تعبدونها هي مودة بينكم في الدنيا، { ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض } أي: تتبرأ الأصنام من عابديها؛ كقوله:

{ الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }

[الزخرف: 67]. { ويعلن بعضكم بعضاً } ، فتلعن الأتباع الرؤساء؛ { ومأواكم النار } أي: ماوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع. { وما لكم من ناصرين } يحصنونكم منها.

الإشارة: الإنكار على أهل الخصوصية سنة الله في خلقه، فلا يأنف منها إلا جاهل، والاجتماع على التودد على غير ذكر الله ومحبته وما يقرب إليه، كله يؤدي إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة؛ { الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين } ، وهم المتحابون في الله، والمجتمعون على ذكر الله والعلم به. والله تعالى أعلم.

@ { فَاَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } * { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { فآمن } لإبراهيم، أي: انقاد { له لوط } ، وكان ابن أخيه، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. { وقال } إبراهيم: { إنني مهاجرٌ إلى ربي }؛ إلى حيث أمرني ربي بالهجرة، وهو الشام، فخرج من " كوثى " ، وهي من سواد الكوفة، إلى حرّان، ثم منها إلى فلسطين، وهي من بركة الشام، ونزل لوط بسدوم، ومن ثم قالوا لكل نبي هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه، في هجرته، لوط وسارة زوجته.

وقيل: القائل: { إنني مهاجرٌ إلى ربي } هو لوط، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقي: إن أول من هاجر منا في الإسلام بأهله: عثمان. ورفع الحديث

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه قال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط. هـ. يعني: الهجرة إلى الحبشة. وكانت - فيما ذكر الواقدي - سنة خمس من البعثة، وأما الهجرة إلى المدينة؛ ففي البخاري عن البراء: أول من قَدِمَ المدينة من الصحابة، مهاجراً، مُصعبُ بن عُمير، وابن أم مكتوم، ثم جاء عمَّارُ، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم.

{ إنه هو العزيزُ } الذي يمنعي من أعدائي، { والحكيمُ } الذي لا يأمرني إلا بما هو خير لي.

{ ووهبنا له إسحاقَ } ولدًا، { ويعقوبَ } وَلَدَ وَوَلَدٍ، ولم يذكر إسماعيل؛ لشهرته، أو: لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجز عاقراً، فَعَظَمَتْ الْمِنَّةُ بِهِ. { وجعلنا في ذريته النبوةَ } أي في ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء، { والكتابَ } يريد به الجنس، ليتناول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. { وآتيناه أجره في الدنيا } أي: الثناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر، ومحبة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره، أو: المال الحلال، واللفظ عام. وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعجل لأولياته بعض الأجر في الدنيا، ولا يخل بعلو منصبهم { وإنه في الآخرة لمن الصالحين } لحضرتنا، والسكنى في جوارنا. أسكننا الله معهم في فسيح الجنان. أمين.

الإشارة: الهجرة سُنَّة الخواص، وهي على قسمين: هجرة حسية وهجرة معنوية، فالحسية هي هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن الله، أو الإذابة والإنكار، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية: هي هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعاني، وهذه نهاية الهجرة.

قال القشيري: لا تصحُّ الهجرةُ إلى الله إلا بالتبرُّي بالقلب من غير الله، والهجرةُ بالنفس يسيرةٌ بالنسبة إلى الهجرة بالقلب، وهي هجرة الخواص، وهي الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمع، والجمعُ بين التعرُّج في أوطان التفرقة والكون في مشاهدة الجمع متنافية. هـ. وقال في قوله تعالى: { وإنه في الآخرة لمن الصالحين } أي: للدنو والقربة والتخصيص بالزلفة. هـ.

@ { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُنَّ أَلْفَاظٌ مَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ } * { إِنَّكُمْ لَأَنْتُنَّ أَلْفَاظٌ مِّنَ الرِّجَالِ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتُمْ بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ } * { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } * { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ } * { قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا بِحَرِّ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ } * { وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تُحَرِّنْ إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ } * { إِنَّا

مُنزَلُونَ عَلَيَّاهِلْ هَازِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ { * } وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {

يقول الحق جل جلاله: { و } اذكر { لوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة } أي: الفعلة البالغة في الفجح، وهي اللواط، { ما سبَقكم بها من أحدٍ من العالمين } : جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعل، كأن قائلًا قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقال: لأن أحداً ممن قبلهم لم يقدم عليها، قالوا: لم يَنْزُرْ ذكر على ذكر قبل قوم لوط. { أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل } أي: تتعرضون للسبيلة بالقتل وأخذ المال، كما هو شأن قطاع الطريق، وقيل: اعتراضهم السبيلة لقصد الفاحشة، { وتأتون في ناديكم }؛ في مجالسكم الغاصة بأهلها، ولا يقال للمجلس: ناد، إلا ما دام فيه أهله، { المنكر } فعلهم الفاحشة بالرجال، أو المضارطة، أو: السباب والفحش في المزاح، أو الحذف بالحصى، أو: مضغ العلك، أو الفرقة.

وعن أم هانئ - رضي اله عنها - أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله: { وتأتون في ناديكم المنكر }؟ فقال: " كانوا يحذفون من يمرُّ بهم الطريق، ويسخرون منهم " وقال معاوية: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل قصعة من الحصى، فإذا مر بهم عابر قذفوه، فأبهم أصابه؛ كان أولى به " .

{ فما كان جواب قومهِ إلا أن قالوا ائتنا بعذابِ الله إن كنت من الصادقين } فيما تعدنا من نزول العذاب، أو في دعوى النبوة، المفهومة من التوبيخ، { قال رب انصرني } بإنزال العذاب { على القوم المفسدين } بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها، وسنّها لِمَنْ بعدهم.

وصفهم بذلك؛ مبالغة استنزال العذاب، وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب،

{ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى } ، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم؛ بالولد، والنافلة إسحاق، ويعقوب، أي: مروا عليه، حين كانوا قاصدين قوم لوط، { قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية }؛ سدوم، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام، قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم، قاله النسفي. { إن أهلها كانوا ظالمين } ، تعليل للإهلاك، أي: إن الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة، وهم عليه مُصِرُّون، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. { قال إبراهيم: { إن فيها لوطاً } أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، أو: وفيهم نبي بين أظهرهم؟ { قالوا } أي: الملائكة: { نحن أعلمُ } منك { بمن فيها لننجيَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين }؛ الباقيين في العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم، فقال: { ولما أن جاءت رُسُلنا لوطاً سبيء بهم } أي: ساءه مجيئهم وغمه، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. و " أن : صلة؛ لتأكيد الفعلين، وترتيب أحدهما على الآخر، كأنهما وُجِدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لَمَّا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب.

وضاق بهم دَرَعًا { أي: ضاق بشأنهم وتدير أمرهم ذرعُه وطاقته، وقد جعلوا ضيقَ الذرع والذراع عبارةً عن فقد الطاقة، كما قالوا: رُحِبَ الذراع، إذا كان مُطيقاً للأمور، والأصل فيه: إن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

{ وقالوا } ، لَمَّا رَأَوْا فِيهِ أَثَرَ الضَّجْرِ والخوف: { لا تخفْ ولا تحزنْ } على تمكنهم منا، { إنا منجوك وأهلك } أي: وننجي أهلك، فالكاف في محل الجر، و " أهلك " : نصب بفعل محذوف، { إلا إمرأتك كانت من الغابرين } . في الكلام حذف يدل عليه ما في هود، أي: لا تخف ولا تحزن من أجلنا، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك، بل يهلكون جميعاً، وأما أنت؛ فإننا منجوك... إلخ؛ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر: إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا: { إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً }؛ عذاباً { من السماء بما كانوا يفسقون }؛ بسبب فسقهم.

{ ولقد تركنا منها }؛ من القرية { آية بينة } هي حكايتها الشائعة، أو آثار منازلهم الخربة، وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض، حيث بقيت أنهارهم مسودة، وقيل: الحجارة المسطورة، فإنها بقيت بعدهم آية { لقوم يعقلون }؛ يستعملون عقولهم في الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: { وتأتون في ناديكم المنكر } قال القشيري: من جملة المنكر: تخلية الفساق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، ومن ذلك: ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر. هـ. وقال في قوله تعالى: { إن فيها لوطاً } ، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط، تكلم في شأن لوط، إلى أن قالوا: { لننجينه... } إلخ، فدل ذلك على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط، ولو كان بريئاً، لم يكن ظلاماً، لو كان كذلك قبيحاً لما كان إبراهيم - مع وفر علمه - يُشكل عليه، حتى كان يجادل عنه، بل لله أن يعذب مَنْ يعذب ويعافي، من يعافي بلا حرج هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته: وما ذكره واضح من حيث العقيدة، وإن كانت الآية، وقول إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى:

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ }

[الأنفال: 33]. والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى:

{ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ }

[المائدة: 17] الآية. هـ. قلت: ظاهر قوله تعالى:

{ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ }

[هود: 74]؛ أن مجادلتها كانت عن قومه فقط؛ لغلبة الشفقة عليه، كما هو شأنه، ولذلك قال تعالى:

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ }

[هود: 75]... حتى قال له تعالى:

{ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا عَنِ هَذَا }

[هود: 76] لَمَّا تَحَتَّمْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فتأمله.

@ { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } * { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { و } أرسلنا { إلى مدينَ أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله { وحده، { وارجوا اليومَ الآخرَ } أي: خافوه، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه، { ولا تعثوا في الأرض مفسدين }؛ قاصدين الفساد، { فكذبوه فأخذتهم الرجفة }؛ الزلزلة الشديدة، أو: الصيحة من جبريل عليه السلام؛ لأن القلوب رجفت بها، { فأصبحوا في دارهم }؛ بلدهم وأرضهم، { جاثمين }؛ باركين على الرُكب؛ ميتين.

الإشارة: العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلية، لا جدوى لها، كأنها عادة، وخوف العواقب، من غير استعداد لها، خذلان، والاجتهاد في العمل، مع ارتقَاب العواقب الغيبية، فلاح، من شأن أهل البصائر، كما قال تعالى في حق من مدحهم من أكابر

الرسول:
{ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ }
[ص: 45، 46].

@ { وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } * { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } * { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مِّمَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وعاداً وثموداً } أي: اذكر عاداً وثموداً، أو أهلكننا عاداً، وثموداً يدل عليه { فأخذتهم الرجفة }؛ لأنه في معنى الإهلاك، { وقد تبينَ لكم } ما وصفنا من إهلاكهم { من مساكنهم } الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررتم بها خالية. { وزينَ لهم الشيطانُ أعمالهم } من الكفر والمعاصي، { فصدهم عن السبيل }؛ عن الطريق الذي أمروا بسلوكه، وهو الإيمان بالله ورسوله. { وكانوا مستبصرين }؛ متمكنين من النظر والاستبصار وتميز الحق من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل؛ بظهور دلائله، لكنهم عاندوا، حسداً. يقال: استبصر: إذا عرف الشيء على حقيقته. أو: متيقنين أن العذاب لاحق بهم؛ بإخبار الرسول، لكنهم لجّوا. أو: مستبصرين في ضلالتهم معجبين بها.

وقال الفراء: عقلاء ذوو بصائر، يعني: علماء في أمور الدنيا، كقوله:
{ يَعْلمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }

[الروم: 7] الآية. وقال مجاهد: حسبوا أنهم على الحق، وهم على الباطل. هـ.

{ وقارونَ وفرعونَ وهامانَ }؛ أي: أهلكناهم، { ولقد جاءهم موسىٰ بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين }؛ فائتين، بل أدركهم أمر الله فلم يفوتوه. يقال: سبق طالبه: فاته، { فكُلًّا أخذنا }؛ عاقبناه { بذنبه }، فيه رد على من يُجوز العقوبة بغير

ذنب. قاله النسفي، وهو جائز عقلاً في حقه تعالى، لكنه لم يقع؛ لإظهار عدله. { فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً } أي: ريحاً عاصفة فيها حصاء أو: ملكاً رماهم بها.

قال ابن جزي: فيحتمل عندي أنه أراد به المعنيين؛ لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة، وعاداً هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد؛ نقض ذكر لآخر، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد؛ في معنيين، ويقوي ذلك إن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

{ ومنهم من أخذتهم الصيحة }؛ كمدين وشمود، { ومنهم من خسفنا به الأرض } كقارون، { ومنهم من أغرقنا }؛ كقوم نوح، وفرعون وقومه، { وما كان الله ليظلمهم } فيعاقبهم بغير ذنب؛ إذ ليس ذلك من عادته - عز وجل -، وإن جاز في حقه، { ولكن كانوا أنفسهم يظلمون }؛ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان. وبالله التوفيق.

الإشارة: الاستبصار في أمور الدنيا والتحديق في تدبير شؤونها، حمق وبطالة، وقد وسم به الحق تعالى الكفرة بقوله: { وكانوا مستبصرين } ، والاستبصار في أمور الله تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه، والفحص عن ذلك، والتفكر في عواقب الأمور؛ من شأن العقلاء الأكياس، قال صلى الله عليه وسلم: " ألا وإن من علامات العقل: التجافي عن دار الغرور؛ والإجابة إلى دار الخلود، والتهود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور " ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى " ، وقيل للجنيد رضي الله عنه: متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور متميزاً، ولها متصفحاً، وعماً يوجهه عليه العقل باحثاً، فيتخير بذلك طلب الذي هو أولى، ليعمل به، ويؤثره على ما سواه. ثم قال: فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يفنى وينقضي، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل، وبسير جائل، يصدده التشاغل به، والعمل له، عن أمور الآخرة، التي يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقاءها.. إلخ كلامه.

@ { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } * { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } * { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } * { خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ }؛ أصناماً يعبدونها، أي: مَثَلُ من أشرك بالله الأوثان؛ في الضعف، وسوء الاختيار، { كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا } ، أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت؛ فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقى ما تقى البيوت، فكذلك الأوثان، لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أوهى وأضعف، فإن لبیت العنكبوت حقيقةً وانتفاعاً عاماً، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع، { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ } أي: أضعفها { لبیت العنكبوت }؛ لا يبیت أوهن من بيته؛ إذ أضعف شيء يسقطها. عن علي رضي الله عنه: " طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يُورث الفقر " .

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ويجمع على عناكيب وعنكيب وعكاب وعكبة وأعكب. { لو كانوا يعلمون } لعلموا أن هذا مثلهم، وأن ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج: تقدير الآية: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، لو كانوا يعلمون، كمثل العنكبوت. وقيل: معنى الآية: مَثَلُ الْمُشْرِكِ يَعْبُدُ الْوَتْنَ، بِالْقِيَاسِ إِلَى الْمُؤْمَنِ الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ، مِثْلَ عَنكَبُوتٍ تَتَّخِذُ بَيْتًا بِالْإِضَافَةِ إِلَى رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا بِأَجْرٍ وَجِصٍّ، أَوْ جِصٍّ وَصُخُورٍ، فَكَمَا أَنَّ أَوْهِنَ الْبُيُوتِ، إِذَا اسْتَقْرَأَتْهَا بَيْتًا بَيْتًا، بَيْتَ الْعَنكَبُوتِ، كَذَلِكَ أضعف الأديان، إِذَا تَتَّبَعْتَهَا دِينًا دِينًا، عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ.

وقال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها، فلو علموا أن عبادة الأوثان، في عدم الغنى، كما ذكرنا في المثل، لَمَا عبدوها، ولكنهم لا يعلمون، بل الله يعلم صَعْفَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ وَعَجْزَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } ، أَي: يَعْلَمُ حَالَهُ، وَصِفَتَهُ، وَحَقِيقَتَهُ، وَعَدَمَ صَلَاحِيَّتِهِ لِمَا تُؤْمَلُونَهُ مِنْهُ، فَمَا: مُوصُولَةٌ، مَفْعُولٌ " يَعْلَمُ " ، وَهِيَ تَامَةٌ، أَي: يَتَّعَلَقُ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ مَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ. أَوْ نَاقِصَةٌ، وَالثَّانِي مَحْذُوفٌ، أَي: يَعْلَمُهُ وَهِيَ وَبَاطِلًا. وَقِيلَ: اسْتِفْهَامِيَّةٌ مَعْلُوقَةٌ، وَأَمَّا كَوْنُهَا نَافِيَةً فَضَعِيفٌ، وَ" مِنْ " الثَّانِيَّةُ؛ لِلْبَيَانِ، وَمَنْ قَرَأَ بِالْخَطَابِ؛ فَعَلَى حَذْفِ الْقَوْلِ، أَي: وَيُقَالُ لِلْكَفْرَةِ: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، أَوْ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ.

{ وهو العزيز } الغالب الذي لا شريك له، { الحكيم } في ترك المعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا لحكمة وتديبر.

{ وتلك الأمثال } الغربية، أي: هذا المثل ونظائره { نضربها للناس }؛ تَبَيَّنَتْ لَهُمْ؛ تَقْرِيْبًا لِمَا بَعْدَ عَنْ أَفْهَامِهِمْ. كَانَ سَفْهَاءَ قَرِيْشٍ وَجَهْلُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ يَضْرِبُ الْمَثَلَ بِالذِّبَابِ وَالْعَنكَبُوتِ، وَيَضْحَكُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } ، أَي: بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَبِمَوَاقِعِ كَلَامِهِ وَحِكْمِهِ، أَي: لَا يَعْقِلُ صِحَّتَهَا وَحُسْنَهَا، وَلَا يَفْهَمُ حِكْمَتَهَا، إِلَّا هُمْ؛ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ وَالتَّشْبِيْهَاتِ إِنَّمَا هِيَ طَرِيقٌ إِلَى الْمَعَانِي الْمَسْتَوْرَةِ، حَتَّى يَبْرِزَهَا وَيَصَوِّرَهَا لِلْأَفْهَامِ، كَمَا صَوَّرَ هَذَا التَّشْبِيْهَ الَّذِي بَيَّنَّ فِيهِ حَالَ الْمُشْرِكِ وَحَالَ الْمُؤْمَنِ.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا في هذه الآية، وقال: " العالم: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ، فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ " ، وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ.

{ خلق الله السموات والأرض بالحق } أي: محققاً، لم يخلقها عبثاً، كما لم يضرِبْ الْأَمْثَالَ عَبْثًا، بَلْ خَلَقَهَا لِحِكْمَةٍ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ مَسَاكِنَ عِبَادِهِ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْهُمْ وَدَلَّائِلَ عَلَى عَظَمِ قُدْرَتِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ }؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنْفَعُونَ بِهَا. وَقِيلَ: بِالْحَقِّ؛ الْعَدْلُ، وَقِيلَ: بِكَلَامِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي خَلَقَ بِهِ الْأَشْيَاءَ. وَخَصَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ لِأَنَّهَا الْمَشْهُودَاتُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو مال بالمحبة إلى شيء سواه، كان كمن اعتمد على خيط العنكبوت، فعن قريب يذهب ويفوت، يا من تعلق بمن يموت؛ قد تَمَسَّكَتْ بِأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه: الأشياء الحسية جعل الله فيها القوي والضعيف، والعزيز والذليل، والفقير والغني؛ لحكمة، وأما أسرار المعاني القائمة بها؛ فكلها قوية عزيزة غنية، فالأشياء، بهذا الاعتبار - أعني: النظر لحسها ومعناها - كلها قوية في ضعفها، عزيزة في ذلها، غنية في فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شيء وأقوى شيء، وينصر بأذل شيء على أقوى شيء. روي أنه لما نزل قوله تعالى: { وَإِنْ أَوْهَنْ الْبُيُوتَ لَبِثُ الْعَنْكَبُوتِ }؛ شكى العنكبوت إلى الله تعالى، وقال ربّ خلقتني ضعيفاً، ووصفتني بالإهانة والضعف، فأوحى الله تعالى إليه: انكسر قلبك من قولنا، ونحن عند المنكسرة قلوبهم من أجلنا، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش، وأغنيا محمداً عن كل ركن كثيف، فقال: يا رب حسبي أن خلقت في ذلي عزتي، وفي إهانتني قوتي. هـ. ذكره في اللباب.

@ { ائُلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ائُلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ }؛ تتعمماً بشهود أسرار معانيه، وبشهود المتكلم به، فتغيب عن كل ما سواه، واستكشافاً لحقائقه، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وقد كان من السلف من يبقى في السورة يكررها أياماً، وفي الآية يرددها ليلة وأكثر، كلما ردها ظهر له معانٍ آخر.

{ وأقم الصلاة } أي: دم على إقامتها، بإتقانها؛ فعلاً وحضوراً وخشوعاً، { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء }؛ الفعل القبيحة؛ كالزنى، والشرب، ونحوهما، { والمنكر }، وهو ما يُنكره الشرع والعقل. ولا شك أن الصلاة، إذا صاحبها الخشوع والهيبة في الباطن، والإتقان في الظاهر، نهت صاحبها عن المنكر، لا محالة، وإلا فلا.

روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبها، فوصف حاله له صلى الله عليه وسلم فقال: " إن صلاته تنهاه "، فلم يلبث أن تاب. هـ.

وأما من كان يصليها فلم تنهه؛ فهو دليل عدم قبولها، ففي الحديث: " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً " رواه الطبراني. وقال الحسن: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة، وهي بال عليه. وقال ابن عوف: إن الصلاة تنهى؛ إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. هـ. فخص النهي بكونه ما دام فيها، وعليه حمل المَحَلِّي.

قال المحشي: يعني: أن من شأنها ذلك، وإن لم يحصل ذلك فلا تخرج عن كونها صلاة، كما أن من شأن الإيمان التوكل، وإن قدر أن أحداً من المؤمنين لا يتوكل؛ فلا يخرج ذلك عن الإيمان. وقيل: الصلاة الحقيقية: ما تكون لصاحبها ناهيةً عن ذلك، وإن لم ينته فالصلاة ناهيةً على معنى: ورود الزواجر على قلبه، ولكنه أصر ولم يطع. ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فإن كان، وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها. انظر القيشيري.

وقال ابن عطية: إذا وقعت على ما ينبغي؛ من الخشوع، والإخبات لذكر عظمة الله، والوقوف بين يديه، انتهى عن الفحشاء والمنكر، وأما مَنْ كانت صلته لا ذكر فيها ولا خشوع، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان. هـ.

فائدة: ذكر في اللباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السلام، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط، فلما نزل، وجّه الليل خراً مغشياً، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين، شكراً. وأول من صلى الظهر إبراهيم، فلما فدى ولده، وقد كان نزل به أربعة أهوال، هم الذبح وهم الولد، وهم والدته، وهم مرضاة الرب، صلى أربع ركعات، شكراً لله تعالى. وأول من صلى العصر سليمان عليه السلام، لما رد الله عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السلام، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السلام، ولعله هذا الوقت الذي بُذ فيه بالعراء. وأول من توضع آدم؛ كفارة لأكله. هـ. مختصراً بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية؛ لتحوز فصائل تلك الشرائع؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جامعٌ لِمَا افترق في غيره.

ثم قال تعالى { ولذكرُ الله أكبرُ } ، أي: ولذكر الله، على الدوام، أكبر، في النهي من الفحشاء والمنكر، من الصلاة؛ لأنها في بعض الأوقات. فالجزء الذي في الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة، وهو أعظم، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذكر لله، مراقبٍ له، وثواب ذلك الذكر أن يذكر الله تعالى؛ لقوله: { قَادِرُونِيَا أَدْرُكْكُمْ }

[البقرة: 152]. ومن ذكره حفظه وورعاه. أو: لذكر الله أكبر؛ أجراً، من الصلاة، ومن سائر الطاعات، كما في الحديث: " ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال ذكر الله " وسئل أي الأعمال أفضل؟ قال: " أن تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله "

قيل: المراد بذكر الله هو الصلاة نفسها، أي: وللصلوات أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها بذكر الله؛ ليشعر بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر؛ لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس: ولذكر الله لكم إياكم، برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة، وذكركم مشوب بالعلل والأمانى، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم يفنى. أو: لذكر الله أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو: ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية. { والله يعلم ما تصنعون } من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلِّقين بالجوارح الظاهرة، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر والمتعلِّقين بالعوالم الباطنة، وهي المساوئ التي تحجب العبد عن حضرة الغيوب فإذا أكثر العبد من ذكر الله، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل، تنور قلبه، وتطهر سره ولبه، فاتصف بأوصاف الكمال، وزالت عن جميع العلل، ولذلك جعلته الصوفية مُعْتَمَدَ أعمالهم، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير، بل قاموا بالجد والتشمير، فيذكرون أولاً بلسانهم وقلوبهم، ثم بقلوبهم فقط، ثم بأرواحهم وأسرارهم فيغيبون حينئذٍ في شهود المذكور عن وجودهم وعن

ذكرهم، وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، ويصير العبد محوياً في وجود العيان، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة، وشهوداً ونظرة، وهو مقام العيان في منزل الإحسان، فيكون ذكر اللسان عندهم بطلاة، وفي ذلك يقول الشاعر:

مَا إِنَّ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي سِرِّي وَقَلْبِي وَرُوحِي، عِنْدَ ذِكْرِكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيماً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي: إِيَّاكَ، وَيَحْكُ، وَالتَّدْكَارَ، إِيَّاكَ

أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ سَوَاهِدُهُ؟ وَوَأَصَلَ الْكَلَّ، مِنْ مَعْنَاهُ، مَعْنَاكَ؟!!

قال القشيري: ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد، فضلاً أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان. هـ. وقال في القوت على هذه الآية: الذكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين في الآية: ثم قال: ورؤي في معنى الآية؛ عن رسول لله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله - عز وجل - " قال تعالى:

{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }

[طه: 14]، أي: لتذكرني فيها. ثم قال: فإذا لم يكن في قلبك للمذكور، الذي هو المقصود والمُتَبَغَى، عظمة ولا هبة، ولا إجلالٌ مقام، ولا حلاوة فهم، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قسماً من أقسام الدنيا، إذ كان المصلي على مقام من الهوي، فقال: " حُبب إليَّ من دنياكم.. " ذكر منها الصلاة، فهي دنيا لمن كان همه الدنيا، وهي آخرة لأبناء الآخرة، وهي صلة ومواصلة لأهل الله - عز وجل -، وإنما سميت الصلاة؛ لأنها صلة بين الله وعبده، ولا تكون المواصلة إلا لتقي، ولا يكون التقي إلا خاشعاً، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر كما قال الله: { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر }. هـ.

@ { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِّبَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }؛ إلا بالخصلة التي هي أحسن، أي: اللطف وأرفق، وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاعبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله تعالى برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة: قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجج، وأصل: شدة القتل، ومنه قيل للصقر: أجدل؛ لشدة قتل بدنه وقوة خلقه. والآية؛ قيل: منسوخة بأية السيف، وقيل: نزلت في أهل الذمة.

{ إلا الذين ظلموا منهم } ، فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو معناه: ولا تُجَادِلُوا الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الذِّمَّةِ، الْمُؤَدِّينَ لِلْجِزْيَةِ، إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا: فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة في الدين، وعلى جواز تعلم علم الكلام، الذي به تتحقق المجادلة. قاله النسفي. { وقولو آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد }؛ هذا من حسن المجادلة. قال صلى الله عليه وسلم: " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقالوا: آمنا

بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً؛ لم تصدقوهم، وإن كان حقاً؛ لم تكذبوهم " { ونحن له مسلمون }؛ مطيعون له خاصة، وفيه تعريض باتخاذهم أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

الإشارة: المناظرة بين العلماء، والمذاكرة بين الفقهاء، ينبغي أن تكون برفق ولين على قلب سليم، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب، أو تنبيه عن الغفلة، أو ترقية في المنزلة، من غير ملاححة، أو مخاصمة، ولا قصد مغالبة؛ لأن العلم النافع، وذكر الله الحقيقي، يهذب الطبع، ويحسن الأخلاق.

قال في الحاشية: ثم تذكّر حسن رده صلى الله عليه وسلم للقائلين له: السام عليكم، ورفقه، وقوله لعائشة: " متى عهديّني فاحشاً ؟" يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة في الآية مع ما قبلها، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة، الذاكرين الله حقيقة، وأنهم على خلق جميل وحلم وسمت، لا يستفزههم شيء من العوارض؛ لِمَا رَسَخَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ الْقُرْبِ الَّذِي مَحَى الطَّبَعِ وَفُحِّشَهُ. والله تعالى أعلم. هـ.

@ { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ } * { وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْيَابَ الْمُبْطِلُونَ } * { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وكذلك } أي: ومثل ذلك الإنزال البديع { أنزلنا إليك الكتاب } مصدقاً لسائر الكتب السماوية وشاهداً عليها، { فالذين آتيناهم الكتاب }؛ التوراة والإنجيل، { يؤمنون به } ، وهم عبد الله بن سلام ومن آمن معه، وأصحاب النجاشي، أو: من تقدم عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، { ومن هؤلاء } ، من أهل مكة، { من يؤمن به } ، أو: فالذي آتيناهم الكتب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره، ومن هؤلاء الذين أدركوا زمانك من يؤمن به. وإذ قلنا: إنَّ السورة كلها مكية، يكون إخباراً بغيث تحقق وقوعه، { وما يجحد بآياتنا } ، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، { إلا الكافرون }؛ إلا المتوغلون في الكفر، المصممون عليه، ككعب بن الأشرف وأضرابه، أو كفار قريش، إذا قلنا: الآية مكية.

{ وما كنت تتلوا من قبله }؛ من قبل القرآن { من كتاب ولا تخطه بيمينك } ، بل كنت أمياً، لم تقرأ ولم تكتب، فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة، على يد أمي؛ لم يُعَرَفْ بالقراءة والتعلم، خرق عادة، قاطعة لبغيته. وذكر اليمين، لأن الكتابة، غالباً، تكون به، أي: ما كنت قارئاً كتاباً من الكتب، ولا كاتباً { إذاً لارتاب المبطلون } أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا: تعلمه، ولتقطعه من كتب الأقدمين، وكتبه بيده. أو: يقول أهل الكتاب: الذي نجده في كتابنا أمي لا يكتب ولا يقرأ، وليس به. وسماهم مبطلين، لإنكارهم النبوة، أو: لارتبابهم فيها، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا، وكونه صلى الله عليه وسلم أمياً كَمَالاً في حقه صلى الله عليه وسلم، مع كونه أمياً أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية، من غير مدارسة ولا مطالعة، وهو، مع ذلك، يُخبر بما مضى، وبما يأتي إلى قيام الساعة، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفاذ من أحبارهم، الذي يقطع عمره في مدارسته وتعلمه، وهذا كله في جاهلية جهلاء، بَعُدَ فيها العهد بالأنبياء، وبَدَّلَ الناس، وغيَّروا في كتب الله تعالى؛ بالزيادة والنقصان، ففضحهم صلى الله عليه وسلم وقرر الشرائع الماضية، فهذا كله كاف في صحة نبوته، فكانت أميته صلى الله عليه وسلم وصِفَ كمال في حقه، ومعجزة دالة على نبوته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم، مع كونه أمياً، ظهر عليه من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، ما يعجز عنه العقول، ولا تُحيط به النقول، مع إحكامه لسياسة الخلق، ومعالجتهم، مع تنوعهم، وتديبر أمر الحروب، وإمامته في كل علم وحكمة.

وأيضاً: المقصود من القراءة والكتابة: ما ينتج عنهما من العلم؛ لأنهما آلة، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما. والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم لم يكتب قط. وقال الباجي وغيره: إنه كتب، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبي: ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى: { بل هو { أي: القرآن { آيات بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم { أي: في صدور العلماء وحُفَاطه، وهما من خصائص القرآن كون آيات بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزاتٍ، ولم تكن تُقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس: { بل هو { أي: محمد، والعلم بأنه أمي، { آيات بينات {؛ في صدور أهل العلم من أهل الكتاب، يجدونه في كتبهم. هـ. و(بل): للإضراب عن محذوف، ينساق إليه الكلام، أي: ليس الأمر مما يمكن الارتياح فيه، بل هو آيات واضحة. و(في صدور): متعلق ببيانات، أو: خير ثان لهو. { وما يجحدُ بآياتنا { الواضحة { إلا الظالمون {؛ المتوغلون في الظلم. قال ابن عطية: الظالمون والمبطلون هم كل مُكذِبٍ للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن عَظُم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة: كم من وليٍّ يكون أمياً، وتجده عنده من العلوم والحكم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علمه ولقد سمعت من شيخنا البوزيدي رضي الله عنه علوماً وأسراراً، ما رأيتها في كتاب، وكان يتكلم في تفسير آيات من كتاب الله على طريق أهل الإشارة، قل أن تجدها عند غيره، وسمعتة يقول: والله ما جلست بين يدي عالم قط، ولا قرأت شيئاً من العلم الظاهر. قال القشيري: قلوب الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب، فيها أودع براهين حقه وبيانات سرّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فحانون الحقائق في قلوبهم، وكل شيء يُطلب من موطنه ومحلّه، فالدر يُطلب من الصدف؛ لأنه مسكنه، كذلك المعرفة، ووصف الحق يُطلب من قلوب خواصه؛ لأن ذلك قانون معرفته، ومنها ترفع نسخة توحيده. هـ.

@ { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } *
{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } * { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْحَاسِرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وقالوا } أي كفار قريش: { لولا أنزل عليه آية من ربه } تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: بالجمع؛ " آيات " ، كثيرة { قل إنما الآيات عند الله } ، يُنزل منها ما شاء متى شاء، ولست أملك منها شيئاً، { وإنما أنا نذير مبين }؛ إنما كلفت بالإنذار وإبانتته بما أعطيت من الآيات، وليس من شأني أن أقول: أنزل على آية كذا دون آية كذا، مع علمي أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتي، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك. { أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم } ، أي أولم يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات، إن كانوا طالبين للحق، غير متعنتين، وهو هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تنقطع، كما انقطع غيره من الآيات، وفي ذلك يقوم البوصيري:

دَامَتْ لَدَيْنَا؛ فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ، إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمْ
{ إن في ذلك } أي: هذه الآية الموجودة في كل زمان إلى آخر الدهر، { لرحمة }؛
لنعمة عظيمة، { وذكرى }؛ وتذكرة { لقوم يؤمنون } من دون المتعنتين. قال يحيى بن
جعده: إن ناساً من المسلمين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بكتب قد كتبوها، فيها
بعض ما يقول اليهود، فألقاها، وقال: كفى بها حماقة، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء
به نبيهم، فنزل: { أولم يكفهم... } إلخ.

{ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً } أي: شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال
القرآن عليّ، وتكذيبكم، { يعلم ما في السماوات والأرض } ، فهو مطلع على أمري
وأمركم، وعالم بحقي وباطلكم، فلا يخفى عليه شيء. { والذين آمنوا بالباطل } ، وهو
ما يُعبد من دون الله، { وكفروا بالله } وبآياته منكم { أولئك هم الخاسرون }؛
المغبونون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر المؤدي إلى النيران، بالإيمان المؤدي إلى
الخلود في الجنان. رُوي أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا: من يشهد لك
بأنك رسول الله؟ فنزل: { قل كفى... } إلخ.

الإشارة: اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق؛ إذ ليس بيد النبي أو الولي شيء من
ذلك، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على الله، والدعاء إليه، والكرامة لا تدل على
كمال صاحبها، " ربما رُزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة " ، ليس كل من ثبت
تخصيصه كمل تخليصه. وقد تظهر الكرامات في البدايات وتخفى في النهايات،
والكرامة العظمى هي الاستقامة وكشف الحجاب بين الله وعبده حتى يشاهده عياناً،
ويذهب عنه الأوهام والشكوك، وأما غير هذا فقد يكون استدراجاً لمن يقف معه. والله
تعالى أعلم.

@ { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ } * { يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } * { يَوْمَ يَعْسَاهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ قَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ويستعجلونك بالعذاب } ، كقولهم: أمطر علينا حجارة من
السما، { ولولا أجل مسمى } المضروب لعذاب كل قوم، أو: القيامة، أو: يوم بدر، أو:
وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى: ولو أجل قد سماه الله وعيَّنه في اللوح المحفوظ،

{ لجاؤهم العذاب } عاجلاً. والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى،
{ وليأتينهم } العذاب في الأجل المسمى { بغتة } : فجأة { وهم لا يشعرون } بإيتانه.

{ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين } أي: لتحيط بهم، أو: هي
كالمحيطة بهم، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصي. واللام للعهد، على وضع
الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على موجب الإحاطة، وهو الكفر، أو الجنس، فيدخل
المخاطبون دخولاً أولياً. وتكرير استعاجلهم؛ لاختلاف ما يترتب على كل واحد، فترتب
على الأول حكمة تأخيره، وعلى الثاني تهديهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى: { يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم } ، هذا وقت
إحاطتها بهم، أي: تحيط من جميع جوانبهم، كقوله:
{ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ }
[الزمر: 16]. { ويقولوا دُوقُوا ما كنتم تعملون } أي: باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة: ما قيل في حق استعجل العذاب من الأنبياء، يقال في حق استعجله من
الأولياء، بحيث يؤذيه ويقول: لِيُظْهِرُوا ما عندهم، فهذا حمق كبير، ولا بد أن يلحقه وبال
ذلك، عاجلاً، أو أجلاً، إما ظاهراً أو باطناً، وقد لا يشعر، وقد يسري ذلك إلى عقبه،
فيصيبه ذلك الوبال، كما أصاب أباه والعياذ بالله من التعرض لأوليائه.

@ { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون } * { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } * { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } * { الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة } ، فإذا لم يتيسر لكم
إقامة دينكم في بلد، فأخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم، والبقاع
تفاوت في ذلك تفاوتاً كبيراً، والناس مختلفون، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التي
يتيسر لهم فيها استقامة طواهرهم، كالمدن والقرى الكبار، التي يكثر فيها العلم وأهله.
وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التي تسلم فيها قلوبهم من العلائق
والشواغل، أينما وجدوها عمروها، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رضي الله
عنه: إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض، فأخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن
رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من فرّ بدينه من أرض، إلى أرض، وإن كان بشيراً،
استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام ".

{ فإيأي فاعبدون } أي: فخصوني بالعبادة. وإيأي: مفعول محذوف، ومفعول "
اعبدوني ": الإيأي المحذوفة، أي: فاعبدوا إيأي، فاعبدوني. والفاء: جواب الشرط،
محذوف، إذ المعنى، إن أرضي واسعة، فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض، فاخلصوا
لي في غيرها.

ثم شجع المهاجرين بقوله: { كلُّ نفس ذائقة الموت } ، أي: واجدة مرارته وكرهه؛ لأنها إذا تيقنت بالموت؛ سهل عليها مفارقةً وطنها. { ثم إنا نُرْجِعُونَ } بالموت، فتجاوزن على ما أسلفتم. ومن عَلِمَ أن هذا عاقبته، ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له، فإن لم يتهيأ في أرض فليهاجر منها.

{ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئناهم }؛ لنُنزِلَنَّهُمْ { من الجنة عُرفاً }؛ علالي، عالية، وقرأ حمزة والكسائي: { لنثوينهم }؛ لنقيمهم، من التَّوَى، وهو الإقامة، وثوى: عَيَّرَ متعد، فإذا تعدى؛ بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى " لنزلنهم " ، أو: بحذف الجار، وإيصال الفعل، أو: شبه الطرف المؤقت، بالمبهم، أي: لنقيمهم في غرف { تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعَمَ أَجْرِ الْعَامِلِينَ } أجرهم هذا. وهم { الذين صبروا } على مفارقة الأوطان وأذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، ومشاق الطاعات، وترك المحرمات، { وعلى ربهم يتوكلون } ، أي: لم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، فكفاهم شأنهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يَتَأْتَّ له جَمْعُ قَلْبِهِ في بلده؛ فليهاجر منها إلى غير، وليسمع قول سيده: { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة } ، فإن شق عليه مفارقة الأوطان، فليذكر مفارقتة للدينا في أقرب زمان. وكان الصديق رضي لَمَّا هاجر إلى المدينة، وأصابته الحمى، يتسلى بذكر الموت، ويُنشد:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْتَى مِنْ شِرَاكِ تَعْلِهِ
وقد أكثر الناس في الوعظ بالموت وهجومه، نظماً ونثراً، فمن ذلك قول الشاعر:

الْمَوْتُ كَأْسٌ، وَكُلُّ النَّاسِ شَارِبُهُ وَالْقَبْرُ بَابٌ، وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ
وقال آخر:

اعْلَمْ يَا سِيَهَامَ الْمَوْتُ قَاطِعَةٌ بِكُلِّ مُدَّرِعٍ فِيهَا وَمُتَّرِسٍ
رَكُوبُكَ النِّعْشُ يُنْسِيكَ الرُّكُوبَ إِلَى مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ تَعْلٍ وَمَنْ قَرَسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ، وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَهَا إِنَّ السَّقِيَّةَ لَا تَجْرِي عَلَى يَبَسٍ
إلى غير ذلك مما يطول.

@ { وَكَأَيِّنُّ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } * { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قَائِلًا يُوقُونَ } * { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } * { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وكأين من دابة } أي: وكم دابة من داوب الأرض، عاقلة وغير عاقلة، { لا تحمل رزقها }؛ لا تطيق أن تحمله؛ لضعفها عن حمله، { الله يرزقها وإياكم } أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا الله، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها، لكنتم

أعجز من الدواب. وعن الحسن: { لا تحمل رزقها } : لا تدخره، إنما تصبح خِمَاصاً، فيرزقها الله. وقيل: لا يدخر من الحيوان قوتا إلا ابن آدم والفأرة والنملة. { وهو السميع } لقولكم: نخشى الفقر والعيلة إن هاجرنا، { العليم } بما في ضمائرکم من خوف قوات الرزق.

ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال: { ولئن سألتهم { أي: المشركين وغيرهم } مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } على كبرهما وسعتهما، { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } يجريان في فلكهما، { لَيَقُولَنَّ اللَّهُ }؛ لا يجدون جواباً إلا هذا، لإقرارهم بوجود الصانع، { فَأَنى يُؤْفَكُونَ }؛ فكيف يُصرفون عن توحيد الله؟ مع إقرارهم بهذا كله، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.

{ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } هاجر أو أقام في بلده، { وَيَقْدِرُ لَهُ }؛ ويضيق عليه، أقام أو هاجر، فالضمير في { له } لمن يشاء؛ لأنه مبهم غير معين، { إن الله بكل شيء عليم }؛ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، فمنهم من يصله الفقر، ومنهم من يُفسده، ففي الحديث القدسي: " إن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلي الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك " ذكره النسفي.

{ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله }؛ معترفين بأنه الموجد للكائنات بأسرها، أصولها وفروعها، ثم إنهم يُشركون به بعض مخلوقاته الذي هو أضعف الأشياء. { قل الحمد لله } على إظهار قدرته، حتى ظهرت لجميع الخلق، حتى أقرت بها الجاهلية الجهلاء. أو: على ما عصمك مما هم عليه، أو: على تصديقك وإظهار حجتك، أو: على إنزاله الماء لإحياء الأرض، { بل أكثرهم لا يعقلون }؛ لا عقول لهم، فلا يتدبرون فيما يُربهم من الآيات وبقيم عليهم من الدلالات.

والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرزق مضمون بيد من أمر بين الكاف والنون، لا يزيد بحرص قوي، ولا ينقص بعجز ضعيف، بل قد ينعكس الأمر، كما الشاعر:

كَمْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي تَقْلِبِهِ تَرَى عَنْهُ أَمْرَ الرِّزْقِ يَنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِي تَصْرِفِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
وَقَدْ بَيَّسَطَهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْعَفْلةِ وَالتُّبُعدِ، وَيَقْدِرُهُ لِأَهْلِ الْوَالِيةِ وَالتُّقْرَبِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

اللَّهُ يَرْزُقُ قَوْمًا لَا خَلَاقَ لَهُمْ مِثْلَ التَّهَائِمِ فِي خَلْقِ التَّصَاوِيرِ
لَوْ كَانَ عَنْ قُوَّةٍ أَوْ عَنْ مُعَالِيَةِ طَارِ التُّبْرَاءِ بِأَرْزَاقِ الْعَصَافِيرِ
وقال عليه الصلاة والسلام - في بعض خطبه -: " أيها الناس، إن الرزق مقسوم، لن يعدوا أمرؤ ما كُتِبَ له، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب. وإن الأمر محدود، لن يجاوز أحد ما قُدر له، فبادروا قبل نفود الأجل، وإن الأعمال محصاة، لن يُهَمَلَ منها صغيرة ولا

كبيرة، فأكثرُوا من صالح الأعمال... " الحديث. وقال صلى الله عليه وسلم: " لو توكلتم على الله حقَّ توكلِهِ، لَرزقتُم كما تُرزق الطير؛ تغدو خِمْصاً وتروح بِطَاناً ".

@ { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } * { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } * { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب } أي: وما هي؛ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يفترقون متعيين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها، وكيف لا يحقرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذذ به الإنسان، فيلهيه ساعة، ثم ينقضي. { وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان } ، أي: الحياة الحقيقية؛ لأنها دائمة. والحيوان: مصر، وقياسه: حَيَّان، فَقَلَّبَ الْيَاءَ الثانيةَ واوًا. ولم يقل: لهي الحياة؛ لِمَا فِي بِنَاءِ قَعْلَانٍ مِنْ مَعْنَى الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ. وفي المصباح: الحيوان: مبالغة في الحياة، كما قيل: للموت الكثير مَوْتَان. هـ. { لو كانوا يعلمون } حقيقة الدارين؛ لَمَّا اخْتَارُوا اللَّهَ الْفَانِي عَلَى الْحَيَوَانِ الْبَاقِي.

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ } ، هو مرتب على محذوف، دل عليه ما وصفهم به قَبْلُ، والتقدير: هم على ما هم عليه من الشرك والعناد، وإذا ركبوا في الفلك { دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، أي: كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر، { فلما نجاهم إلى البر } ، وأمنوا من الغرق، { إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ، أي: عادوا إلى حال الشرك، { ليكفروا بما آتيناهم } من النعمة، { وَلِيَتَمَتَّعُوا } باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادمهم عليها. واللام فيهما: إما لَأَمْ كِي، أي: يعودون إلى شركهم؛ ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ، لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى توحيده وطاعته، لا إلى التلذذ والتمتع. أو: لام الأمر، علة وجه التهديد، كقوله:

{ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ }

[الكهف: 29]، ويقويه: قراءة مَنْ سَكَنَ الثانية، أي: ليكفروا وليتمتعوا { فسوف يعلمون } تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة: الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق، وبترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل؛ ولا يحيط بها نقل، لأن في هذه الدار: عرفه من عرف، وجهله من جهله. والترقي عند العارفين فيها أكثر؛ لأنه يسير بين جلاله وجماله، وهناك ليس إلا الجمال، والترقي بين الضدين أعظم، فإذا مات بقي يترقى في أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. والله أعلم.

فتحصل أن الدنيا في حق أهل الغفلة لعب ولهو؛ لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة الله والوصول إليه، ولذلك حذر منها صلى الله عليه وسلم، فقد قال في بعض خطبه: " أيها الناس، لا تكونوا ممن حَدَّعَتْهُ الْعَاجِلَةُ، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال؛ إذ لن يبقى من دنياكم هذه في جنب ما

مضى إلا كإناخة راكب، أو درّ حالب، فعلام تعرجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم، والله، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة، لم يزل، فخذوا في الأهبة لأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كل أمرىء على ما قَدَّمَ قَادِمٌ، وعلى ما خَلَفَ نَادِمٌ " وفي حق أهل الجد جدٌ وحق؛ لأنها مزرعة للآخرة، ومنتجر من أسواق الله، فيها ربحهم وغنيمتهم. وبالله التوفيق.

@ { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } * { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمْ يَرَوْا } أي: أهل مكة { أنا جعلنا } بلدهم { حَرَمًا } أي: ممنوعاً مصوناً من الهيب، { آمِنًا }؛ يأمن كل من دخله، أو آمناً أهله من القتل والسبي، { وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } أي: يخطف بعضهم بعضاً، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب، { أفيالباطل يؤمنون }؛ أبعدهم هذه النعمة العظمى يؤمنون بالأصنام ويعبدونها، أو: الشيطان، { وبنعمة الله يكفرون }؛ حيث أشركوا به غيرَه، أو بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو النعمة المهداة، أو: الإسلام. وتقديم المعمولين؛ للاهتمام، أو للاختصاص.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ } أي: لا أحد أظلم { ممن افتري علماً لله كذباً }؛ بأن جعل له شريكاً، { أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ }؛ الرسول صلى الله عليه وسلم، أو: الكتاب، { لَمَّا جَاءَهُ } أي: لم يتعلموا في تكذيبه لَمَّا سمعوه، وفي " لَمَّا "، المقتضية للاتصال، تسفيه لرأيهم، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. { أليس في جهنم مَثْوًى }؛ مقاماً { للكافرين }، وهو تقرير لمثواهم في جهنم، لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفي، صار إثباتاً، كقوله:

أَلَسْتُمْ حَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

أي: أتم خير من ركب المطايا، والتقدير: ألا يستوجبون الثوي فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة، كذبوا على الله وكذبوا بالحق الذي جاء من عنده، أو: ألم يصح عندهم أن في جهنم مَثْوًى للكافرين؟ حين اجترأوا مثل هذه الجرأة، بل لهم فيها مَثْوًى وإقامة. وهذه الآية في مقابلة قوله:

{ لَنُبَوِّئَهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ عُرَفًا }

[العنكبوت: 58]. لا سيما في قراءة الثاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحرم الآمن، في هذه الدار، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها، والتجريد من أسبابها، فمن دخله أمن ظاهراً وباطناً، ومن هجرها، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهاجون عليها، وهو يتفرج عليهم، فالدنيا جيفة والناس كلابها، فإن خالطتهم ناهشوك، وإن تركت لهم جيفتهم سلمت منهم، فمن كذب بهذا فقد كذب بالحق وأمن بالباطل، فلا أحد أظلم منه. وبالله التوفيق.

@ { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { والذين جاهدوا فينا } ، أطلق المجاهدة، ولم يُقيدها بمفعول؛ ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين، أي: جاهدوا نفوسهم في طلبنا أو في حقنا، ومن أجلنا، ولوجهنا، خالصاً، { لنهدينهم سُبُلنا } أي: طُرُق السير إلينا، والوصول إلى حضرتنا، أو لنسهلنهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جانبنا.

وعن الداراني: والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا، لنهدينهم إلى علم ما لم يعلموا. وقال الفضيل: والذين جاهدوا في طلب العلم، أي: لله، لنهدينهم سبل العمل. وقال سهل: والذين جاهدوا في إقامة السنَّة، لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عطاء: جاهدوا في إرضائنا؛ لنهدينهم سبل الوصول إلى محل الرضوان. وقال ابن عباس: جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وقال الجنيد: جاهدوا في التوبة، لنهدينهم سبل الإخلاص، أو: جاهدوا في خدمتنا؛ لنمنحنهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا، { وإن الله لمع المحسنين } بالنصر والمعونة في الدنيا، وبالثواب والمغفرة في العقبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المجاهدة، على قدرها تكون المشاهدة، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له. وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم، وبها تحقق سير السائرين، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم؛ من الجاه والغنى وغيره، والخصوص خالفوا نفوسهم ورفضوا حظوظهم، وخرقوا عوائدهم، فَحُرِّقَتْ لهم العوائد، وانكشفت عنهم الحجب، وشاهدوا المحبوب. فجاهدوا أولاً في ترك الدنيا، وتحملوا مرارة الفقر، حتى تحققوا بمقام التوكل، ثم جاهدوا في ترك الجاه والرئاسة، فتحققوا بالخمول، وهو أساس الإخلاص، ثم جاهدوا في مخالفة النفس، فَحَمَلُوا كل ما يثقل عليها، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها، وارتكبوا في ذلك أهوالاً وأحوالاً صِعَاباً، حتى ماتت نفوسهم مَوْتَاتٍ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم، وأشرفت على البحر الزاخر، بحر التوحيد الخاص، فغابت ظلال الأكوان حين أشرقت شمس العيان، ففني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فدخلوا جنة المعارف، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف؛ لأنها منطوية فيها. ولا بد من صحة شيخ كامل، قد سلك هذه المسالك، يلقيه زمام نفسه، حتى يوصله إلى ربه، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.

وقوله تعالى: { وإن الله لمع المحسنين }؛ تهوينٌ وتسهيلاً على السائرين أَمَرَ نفوسِهِمْ ومجاهدتها، إذا علموا أن الله معهم، هان عليهم كل صعب، وَقَرَّبَ كل بعيد. وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

#سورة الروم §#

@ { الم } * { عَلِيَّتِ الرُّومُ } * { فِيَا أَدْتَى الأَرْضَ وَهُمْ مِّن بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لِيلِيُونَ } * { فِي بِيضِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } * { يَنْصُرُ اللّهُ مَن يَنْصُرُ مَن يَنْشَأُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ } * { وَعَدِ اللّهُ لَآ يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ وَلَآكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَآ يَعْلَمُونَ } * { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: بعد التسمية { الـم } أي: أيها المصطفى، أو: المرسل، { غلبت الرومُ } أي غلبت فارسُ الرومَ { في أدنى الأرض } أي: في أقرب أرض العرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم، أي: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم على إنباء اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم. قال ابن عطية: قرأ الجمهور: " غلبت "؛ بضم الغين. وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيشَ الروم بأذرعَات، وهي أدنى أرض الروم إلى مكة، فسُرَّ لذلك كفاً قريش، فبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله: { وهم } أي: الروم { من بعد غلبهم }، وقرئ: بسكون اللام؛ كالحلب والحلب، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: وهم من بعد غلبة فارس إياهم { سيغلبون } فارس، وتكون الدولة لهم.

وذلك { في بضع سنين }، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفي: قيل: احتربت الروم وفارس، بين أذرعَات وبُصرى، فغلبت فارسُ الروم، والمَلِكُ بفارس، يومئذٍ، كسرى " أبرويز "، فبلغ الخبر مكة، فشوق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ لأنَّ فارسَ مجوسٌ؛ لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمتموا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن فارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنَّ نحن عليكم، فنزلت الآية. فقال أبو بكر: والله ليظهرنَّ الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبيُّ بنُ خلف: كذبت، فناحبه - أي: قامره - على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: " زد في الخطر وأبعد في الأجل "، فجعلها مائة قلوص إلى سبع سنين، ومات أبيُّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم يو أحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو: يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيِّ، فقال عليه الصلاة والسلام -: " تصدَّقْ به ".

وهذه آية بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار، عن قتادة. ومذهب أبي حنيفة ومحمد - رضي الله عنهما -: أن العقود الفاسدة؛ كعقد الربا وغيره، جائز في دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجوا بهذه القصة. هـ. زاد البيضاوي: وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار. هـ وقرئ: " غلبت "؛ بالفتح، " وسيغلبون " بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام، وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها، وفتحوا بعض بلادهم، وعلى هذا يكون إضافة الغلب إلى الفاعل.

لله الأمر من قبل ومن بعد { أي: من قبل كل شيء، ومن بعد كل شيء. أو: من قبل الغلبة وبعدها، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين - وقبله: وهو وقت كونهم مغلوبين - ومن بعد كونهم مغلوبين - وهو وقت كونهم غالبين، يعني: أن كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخرًا، ليس إلا بأمر الله وقضائه.

{ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ }

[آل عمران: 140]. { ويومئذٍ } أي: ويوم تغلب الرومُ فارسَ، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، { يفرح المؤمنون بنصر الله }، وتغلب من له كتاب على من لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. { ينصُر من يشاء } فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى، { وهو العزيزُ } : الغالب على أعدائه { الرحيمُ } : العاطف على أوليائه.

{ وَعَدَّ اللهُ } اي: وعد ذلك وعداً، فسينجزه لا محالة، فهو مصدر مؤكّد لِمَا قبله؛ لأن قوله: { سيغلبون } وعد، { لا يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ }؛ لامتناع الكذب عليه تعالى، فلا بد من نصر الروم على فارس. { ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } صحة وعده، وأنه لا يُخْلِفُ، أو: لا يعلمون أن الأمور كلها بيد الله؛ لجهلهم وعدم تفكيرهم. وإنما { يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا }؛ ما يشاهدونه منها من التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء: إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار، فإنها مجمع الأكدار، ومنبع المضار، وسجن الإبرار، ومجلس الأشرار، الدنيا كالحية، تجمع سموم نوائبها، وتفرغ في صميم قلوب أبنائها. هـ. وباطنها: أنها مجازٌ إلى الآخرة، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتنكير (ظاهراً): مُفيدٌ أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها. { وهم عن الآخرة هم غافلون }؛ لا تخطر ببالهم، ولا يتفكرون في أهوالها ونوائبها. فهم، الثانية: مبتدأ، و(غافلون): خبره، والجملة: خبر الأولى، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرّها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما تقع الدولة بين الأشباح، تقع بين النفوس، والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح، فتحجبها عن الله، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس، فتستر ظلمة حظوظها، ويرتفع الحجاب بين الله وعبده. الم. عُلبت أنوار الأرواح بظلمة كنائف النفوس، في أدنى أرض العبودية، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة، على ظلمة نفوس الظلمانية، وذلك في بضع سنين، مدة المجاهدة، والبُضع: من ثلاث إلى عشر، على قدر الجد والاجتهاد، وعلى قدر تفاوت النفوس والطبع، فمنهم من يظفر بنفسه في مدة يسيره، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر الله، حيث نصرهم على نفوسهم، فظفروا بها.

ينصر من شاء حيث يشاء وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.

وقال الورتجبي: قوله: { عُلبت الروم.. } الآية، إشارة إلى أن الأرواح، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة، والشياطين الكافرة؛ امتحاناً من الله، وتربيةً لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس، من حيث تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيري: قوله تعالى: { يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا }؛ استغراقهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم بما مَنَعهم عن العلم بالآخرة وقيمة كل امرئٍ عِلْمُهُ؛ كما في الأثر عن عليٍّ رضي الله عنه. قال:

وَقِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُتَّقِيهِ وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

فأهل الدنيا في غفلة عن الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة، هم بوجودها، في غفلة عن الله. هـ. قلت: وأهل المعرفة بالله لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. والله تعالى أعلم.

@ { أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ }

قلت: " في أنفسهم " : يحتتمل أن يكون ظرفاً، أي: أو لم يحدثوا التفكير فيها، وأن تكون صلة للتفكر، نحو: تفكر في الأمر: أجال فيه فكره. والأول أظهر.

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ } أي: أو لم يثبتوا التفكير في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فیتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خُلِقَتْ عبثاً، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك. أو: أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك، أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بُدَّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فعلموا أن { مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } أي: ما خلقها باطلاً وعبثاً من غير حكمة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل مسمى، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده.

قال في الحاشية الفاسية: وبالجملة: فخلق السموات والأرض؛ للدلالة على التوحيد بوجودهما، وعلى الآخرة بفنائهما، وانقضاء أجلهما. ثم قال: والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضي جزاء أوليائه، وتعذيب أعدائه. وقد نصب تعالى القلب شاهداً ومُنزلاً منزلة الآخرة، والقلب منزلة الدنيا، وكما أن عمل القلب يعود نفعه، إذا فعل الطاعة، على القلب؛ بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية، ويعود ضرره عليه، إذا فعل ضد ذلك، كما يعرفه أهل القلوب، وأنه مزرعة للقلب، ولا بقاء له، وإنما خلق لقضاء ذلك، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة، وإنما خلقت لذلك، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة، فاعتبر ذلك. هـ.

{ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ }؛ بالبعث والجزاء { لكافرون }؛ لجاحدون.

الإشارة: قد تقدم الكلام على فضل التفكير في آل عمران. وقوله تعالى: { إِلَّا بِالْحَقِّ } أي: ما خلق الكائنات إلا بالحق، من الحق إلى الحق، فهي من تجليات الحق، ثابتة بإثباته، محوطة بأحدية ذاته، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق، فافهم.

@ { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } * { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ }

قلت: من رفع " عاقبة الذين أساءوا "؛ فالسوأى منصوب خبر كان، ومن نصب " عاقبة "؛ فالسوأى: مرفوع اسمها، أو: مصدر لأسأؤوا. انظر البيضاوي. والسوأى: تانيث أسوأ. (وأن كذبوا): مفعول من أجله، أو: بدل، على أن معنى (أساءوا): كفروا.

يقول الحق جل جلاله: { أَوْ لَمْ يَسِيرُوا } أي: أَعْمُوا ولم يسيروا { في الأرض } ، ثم قرره بقوله: { فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم } أي: فينظروا إلى آثار الذين من قبلهم؛ كيف دمرهم الله، وأخلا بلادهم، وبقيت دارسة بعدهم، كعاد وثمرود، وغيرهم من الأمم العاتية، والجبابرة الطاغية، { كانوا أشدَّ منهم قوةً } حتى كان منهم من يقتل الحديد بيده، { وأثاروا الأرض }؛ قلبوا وجهها بالحرارة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وغير ذلك. { وعَمَرُوهَا } أي: عمَّر المدَمَّرُون الأرض { أكثرَ مما عَمَرُوهَا } أي: أهل مكة، فأكثر: صفة لمصدر محذوف. و(ما): مصدرية، أي: عمارة هؤلاء، فإنهم أهل واد غير ذي زرع، ولا تَبَسُّطَ لهم في غيرها. وفيه تهكم بهم؛ من حيث أنهم عمروا الأرض، مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهو أضعف حالاً فيها؛ إذ مدار أمرها على التبسُّط في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء مُلجِئُونَ إلى واد لا نفع فيه. قال البيضاوي.

{ وجاءتهم رسلهم بالبينات }؛ بالمعجزات الواضحات، فلم يؤمنوا؛ فأهلكوا، { فما كان الله ليظلمهم }؛ بأن دمرهم بلا سبب، أو: من غير إعدار، { ولكن كانوا أنفسهم يظلمون }؛ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم.

{ ثم كان عاقبة الذي أساءوا } بالكفر والمعاصي { السُّوأى } أي: العقوبة السوأى، والأصل: ثم كان عاقبتهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم، وهو إساءتهم. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كان عاقبتهم في الآخرة العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وهي انار التي أعدت للكافرين. لأجل { أن كَذَّبُوا } أو: بأن كَذَّبُوا { بآيات الله } الدالة على صدق رسله، أو: على وحدانيته. { وكانوا بها يستهزؤون }؛ حيث قابلوها بالتكذيب، أو: غفلوا عن التفكير فيها. أو: ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة السُّوأى أن طبع الله على قلوبهم، حتى كَذَّبُوا بالآيات، واستهزءوا بها. أو: ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السوأى، وهو أن كَذَّبُوا واستهزءوا، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة، فخير كان، على هذا: محذوف؛ للتهويل. (وأن كذبوا): بيان، أو: بدل من السوأى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السير إلى الله على أقسام: سَيَّرُ النفوس: بإقامة عبادة الجوارح؛ لطلب الأجور، وسَيَّرُ القلوب: بجَوْلَانِهَا في ميادين الأغيار، للتبصر والاعتبار، طلباً للحضور، وسير الأرواح: بجولان الفكرة في ميادين الأنوار؛ طلباً لرفع الستور ودوام الحضور، وسير الأسرار: الترقى في أسرار الجبروت، بعد التمكن من شهود أنوار الملكوت على سبيل الدوام.

قال القشيري: سَيَّرُ النفوس في أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيَّرُ القلوب بجَوْلَانِ الفكر في جميع المخلوقات، وغايته: الظَّفَرُ بحقائق العلوم التي تُوجِبُ ثلج الصدر - ثم تلك العلوم على درجات - وسَيَّرُ الأرواح في ميادين الغيب: يَنْعَتِ حَرْقِ سُرَادِقَاتِ الملكوت. وقصاراه: الوصول إلى ساحل الشهود، واستيلاء سلطان الحقيقة.

وسَيَّرُ الأسرار: بالترقي - أي: الغيبة - عن الحَدَثَانِ بِأسرها، والتحقق، أولاً، بالصفات، ثم بالخمود، بالكلية، عمّا سوى الحق. هـ.

وقال في قوله: { ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السُّوأى } : من زَرَعَ الشوكَ لم يَحْصُدْ الوَرْدَ، وَمَنْ استنبت الحشيش لم يقطف البهار، وَمَنْ سَلَكَ سبيل الغيِّ لم يَحْلُلْ بساحة الرشد. هـ.

@ { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } * { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } * { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ } * { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ بِتَفَرُّقُونَ } * { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } * { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { الله يَبْدَأُ الخلق }؛ ينشئهم، { ثم يُعيدُه }؛ يحييهم بعد الموت، { ثم إليه تُرْجَعُونَ }؛ للجزاء؛ بالثواب والعقاب. والاتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة في إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح: بالغيب، على الأصل. { ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ }؛ يبأس ويتحير { المجرمون }؛ المشركون؛ يُقال: ناظرته فأبلس، أي: أفجم وأيس من الحجة، أو: يسكتون متحيرين، { ولم يكنْ لهم من شركائهم } التي عبدوها من دون الله { شفعاء } يشفعون لهم ويجيرونهم من النار، { وكانوا بشركائهم كافرين }؛ جاحدين لها، متبرئين من عبادتها، حين أبسوا من نفعها. أو: كانوا في الدنيا كافرين بسبب عبادتها.

{ ويوم تقوم الساعة يُؤْمِنُ يتفرقون } أي: المسلمون والكافرون، بدليل قوله: { فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ } ، أي: بستان ذي أزهار وأنهار، وهي الجنة. والتنكير؛ لإبهام أمرها وتفخيمه، { يُحْبَرُونَ }؛ يُسَرَّوْنَ، يقال: حبره، إذا سرّه سروراً تهلل به وجهه، وظهر فيه أثره.

ووجه المسار كثيرة، ف قيل: يُكرمون، وقيل: يُحْلَوْنَ، وقيل: هو السماع في الجنة. قاله غير واحد. قال أبو الدرداء: كان عليه الصلاة والسلام يذكر الناس بنعيم الجنان؛ ف قيل: يا رسول الله؛ هل في الجنة من سماع؟ قال: " نعم، إنَّ في الجنةَ لَنَهْرًا حَاقَتْهُ الأَبْكَارُ مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ حَمْصَانَةٍ، يَتَغَنَّيْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعْ الخلائقُ بِمِثْلِهَا قَطُّ، فَذَلِكَ أَفْضَلُ نَعِيمِ أَهْلِ الجَنَّةِ " قال الرواي: فسألت أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله. والخمصانة: المرهفة الأعلى، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبي. وذكر غيره أن هذا السماع يكون في نُزْهَةٍ تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر، وقد ذكرناها في شرحنا الكبير على الفاتحة.

{ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة }؛ بالبعث { فأولئك في العذاب مُحْضَرُونَ }؛ مقيمون، لا يغيبون عنه. عائداً بالله من غضبه.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو ركن إلى شيء سواه، فهو مجرم عند الخصوص، وذلك الشيء الذي ركن إليه صنم في حقه، يتبرأ منه يوم القيامة، ويُبلس من نفعه،

{ يوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون } : الآية. { ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون }؛ فريق هم أهل الوصلة، وفريق هم أهل القطعة، فريق في المنة، وفريق في المحنة، فريق في السرور، وفريق في الثبور، فريق في الثواب، وفريق في العقاب، فريق في الفراق، وفريق في التلاق. قال القشيري: وإذا كان الأمر هكذا، فجدَّ، أيها المؤمن، في طاعة مولاك، وأكثر من ذكره، صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً؛ لتنال ذلك الوعد، وتنجو من الوعيد.

@ { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } * { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } * { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ }

قلت: " فسبحان " : مصدر لمحذوف، أي: سبحوا سبحان. و(حين): متعلق بذلك المحذوف، وجملة: (وله الحمد): معترضة بين معطوفات الظروف. و(في السموات): حال من الحمد، أي: وله، على عباده، الحمد؛ كائناً في السموات... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: { فسبحان الله } أي: فسبحوا الله ونزهوه تنزيهاً يليق به في هذه الأوقات التي تظهر قدرته، وتجدد فيها نعمه، وهي { حين تُمسون }؛ تدخلون في المساء { وحين تُصبحون } تدخلون في الصباح. { وله الحمد في السماوات والأرض } أي: وله، على المميزين كلهم، من أهل السماوات والأرض، أن يحمده، { وعشيًّا } أي: وسبحوه عشياً؛ آخر النهار، { وحين تُظهِرون }؛ تدخلون في وقت الظهيرة.

قال البيضاوي: وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر، تخصيص الحمد بالعشي - الذي هو آخر النهار، من عشي العين؛ إذ نقص نورها - والظهيرة - التي هي وسطه؛ لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون { عَشِيًّا } معطوف على { حين تُمسون } ، وقوله: { وله الحمد.. } إلخ - اعتراضاً. وعن ابن عباس: الآية جامعة للصلوات الخمس، (تُمسون): صلاتا المغرب والعشاء، (تصبحون): صلاة الفجر، (وعشيًّا): صلاة العصر، (وتُظهِرون) صلاة الظهر. ولذلك زعم الحسن أنها مَدَيِّئَةٌ؛ لأنه كان يقول: كان الواجب عليه بمكة ركعتين، في أي وقت اتفقت، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } ، الطائر من البيضة، والإنسان من النطفة، أو: المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل. { وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } ، البيضة من الطائر، والنطفة من الإنسان، أو: الكافر من المؤمن، والجاهل من العالم. { وَيُحْيِي الْأَرْضَ } بالنبات { بعد موتها } ببسها، { وكذلك تخرجون } ، والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الحي من الميت، وعكسه.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من قرأ { فسبحان الله حين تُمسون } .. إلى الثلاث آيات، وآخر سورة الصافات: { سبحان ربك رب العزة.. } إلخ.. دُبِّرَ كُلُّ صَلَاةٍ، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر

الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات؛ أجرى له بكل لفظ عشر حسنات في قبره " نقله الثعلبي والنسفي. وعنه - عليه الصلاة والسلام: " مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ } ... إلى قوله: { وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }؛ أَدْرَكَ مَا قَاتَهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي: أَدْرَكَ مَا قَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ " رواه أبو داود.

وقال الضحاك: من قال: { فسبحان الله حين تمسون.. } إلخ؛ كان له كعدل مائتي رقية من ولد إسماعيل. هـ. زاد كعب: ولم يفته خيرٌ كان في يومه، ولا يدركه شرٌ كان فيه.

وإن قالها في السماء؛ فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يقرأها ست مرات في كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة: أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح؛ فلأنَّ المجوس كانوا يسجدون للشمس في هذين الوقتين؛ تسليماً وتوديعاً، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عن يستحق العبادة معه، وأما العشي؛ فلأنه وقت غفلة الناس في جميع حوائجهم، وأما وقت الظهيرة؛ فلأن جهنم تشتعل فيه؛ كما في الحديث، وأمر بحمده والثناء عليه في كل وقت؛ لما غمرهم من النعم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري: فمن كان صباحه بالله؛ بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساءه بالله؛ بُورِكَ له في ليلته، وأنشدوا:

وَإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَبِيبٌ
شَتَّانَ بَيْنَ عَبْدٍ: صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِعِبَادَتِهِ، وَمَسَاءُوهُ مُخْتَتِمٌ بِطَاعَتِهِ، وَبَيْنَ عَبْدٍ: صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِمَشَاهِدَتِهِ، وَرَوَاحُهُ مُخْتَتِمٌ بِعَزِيزِ رُؤْيَتِهِ. قلت: الأول من عامة الأبرار، والثاني من خاصة العارفين الكبار، وبقي مقام الغافلين، وهو: من كان صباحه مفتتح بهم نفسه، ومساءه مختتم برؤية حسبه، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس في الآية، كما تقدم - ثم قال: وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية في اليوم واللييلة خمس مرات، فيقف على بساط المناجاة، ويستدرك ما فاتته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } يُخْرِجُ الْذَاكِرَ مِنَ الْغَافِلِ، وَالْغَافِلَ مِنَ الْذَاكِرِ، وَالْعَارِفَ مِنَ الْجَاهِلِ، وَالْجَاهِلَ مِنَ الْعَارِفِ، وَيُحْيِي أَرْضَ النُّفُوسِ بِالْيَقِظَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ عَلَى مَا مَتَمَّ عَلَيْهِ، مِنْ مَعْرِفَةٍ أَوْ جَهْلِ، مِنْ يَقِظَةٍ أَوْ غَفْلَةٍ، يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

@ { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } * { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ومن آياته } الدالة على قدرته، الشاملة للبعث وغيره: أو: ومن علامات ربوبيته: { أن خلقكم } أي: أباكم { من تراب }؛ لأن أصل الإنشاء منه، { ثم إذا أنتم بشر تنتشرون } أي: ثم فاجاتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض، آدم

وذريته. { ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها؛ لآن حواء خلقت من ضلع آدم، والنساء بعدها خلقتن من أصلاب الرجال. أو: من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين - إذ كاتا من جنس واحد - من الألفة والمودة والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه: إذا مال إليه. { وجعل بينكم مودة ورحمة } أي: جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة هي الولد. وقيل المودة للشابة الجميلة، والرحمة للعجوز، وقيل: المودة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان - أي: البغض من الجانبين. { إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون }؛ فيعلمون ما في ذلك من الحكمة، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

الإشارة: أصل النشأة البشرية من الطين، وأصل الروح من نور رب العالمين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين، فكان همها الطين، وهوت إلى أسفل سافلين، فلا تجد فكرتها وحديثها، في الغالب، إلا في عالم الحس، ويكون عملها كله عمَل الجوارح، يفنى بفنائها. وإذا غلبت الروح على الطينة؛ وذلك بدخول مقام الفناء، حتى تستولي المعاني على الحسيات. وتنخس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار، فلا تجد فكرتها إلا في أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعملها كله قلبي وسري. بين فكرة واعتبار، وشهود واستبصار، يبقى مع الروح ببقائها، يجري عليها بعد موت البشرية، ويبعث معها، كما تقدم في الحديث: " يموت المرء... " إلخ.

قال القشيري: يقال: الأصل ثربة، ولكن العبرة بالتربة لا بالتربة. هـ. قلت: إذ بالتربة تغلب الروح على البشرية، ثم قال: اصطفتى الكعبة، فهي خير من الجنة، مع أن الجنة جواهر وبقايت، والكعبة حجر ومدن، أي: كذلك المؤمن الكامل، وإن كان أصله من الطين، فهو أفضل من كثير العوالم اللطيفة. ثم قال في قوله تعالى: { ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً } الآية: رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْلِ، وربط الشكل بالشكل، وجعل يسكون البعض إلى البعض، وذلك للأشباح والصُّور، والأرواح صحت الأشباح؛ كرهاً لا طوعاً، وأما الأسرار فمُعْتَقَةٌ، لا تساكن الأطلال، ولا تتدنس بالأغيار. هـ.

قلت: وكأنه يشير إلى أن المودة التي انعقدت بين الزوجين إنما هي نفسية، لا روحانية، ولا سرية؛ إذ الروح والسر لا يتصور منها ميل إلى غير أسرار الذات العلية؛ إذ محبة الحق، جذبتها عن الميل إلى شيء من السوى. واختلف الصوفية: هل تُخَل هذه المودة بين الزوجين يمحية الحق، أم لا؟ فقال سهل رضي الله عنه: لا تضر الروح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " حُب إلي من دنياكم ثلاث... " فذكر النساء، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة: أنه لا يتغير عند فقدها، ولا يحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. والله تعالى أعلم.

@ { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ } * { وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَابِعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنبِغَاؤُكُمْ مِّنْ قَاضِيهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } * { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فِيحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } * { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ }

قلت: (يُريكم البرق): فيه وجهان، أحدهما: إضمار " أن "؛ كما في حرف ابن مسعود، والثاني: تنزيل الفعل منزلة المصدر، كما قيل في قولهم، في المثل: " تَسْمَعُ بِالْمُعَيَّدِيِّ حَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ ". أي: إن تسمع، أو: سماعك. و(خوفاً وطمعاً): مفعولان له؛ على حذف مضاف، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع، أو: على الحال، أي: خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم): شرطية، و(إذا)، الثانية؛ فجائية، نابت عن الفاء. و(من الأرض): يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله: { ومن آياته { الدالة على باهر قدرته { خلق السماوات والأرض { قال القشيري: السموات في علوّها. والأرض في دنوّها، هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها، هذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدرها، واختلاف لغات أهلها في الأرض، واختلاف تسيح الملائكة - عليهم السلام - الذين هم سكان السماء. هـ. { واختلاف ألسنتكم { باختلاف اللغات، وبأجناس النطق وأشكاله، { وألوانكم { ، كالسواد والبياض وغيرهما، حتى لا تكاد تجد شخصين متوافقين؛ إلا وبينهما نوع تخالف في اللسان واللون، وباختلاف ذلك وقع التعارف والتمايز، فلو توافقت وتشاكنت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بينة، حيث وُلدوا من أب واحد، وهم على كثرتهم متفاوتون. { إن في ذلك لآيات للعالمين {؛ بفتح اللام وكسره. وبشهد للكسر قوله تعالى:

{ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }

[العنكبوت: 43]. قال القشيري: واختصاص كل شيء من هذه ببعض جائزات حكمها؛ شاهدٌ عَدْلٍ، ودليلٌ صِدْقٍ، يناجي أفكار المستيقظين، وتنادي على أنفسها: أنها، بأجمعها، بتقدير العزيز العليم. هـ.

{ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله { ، أي منامكم بالليل، وابتغائكم من فضله بالنهار، أو: منامكم في الزمانين، وابتغائكم من فضله فيهما، وهو حسن؛ لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. { إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون {؛ سماع تدبر، بأذان واعية. قال القشيري: عَلَبَةُ النوم لصاحبه من غير اختيار، وانتباهه بلا اكتساب، يدلُّ على موته ثم بَعَثَهُ، ثم في حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه يدل على حاله في قبره. الله أعلم كيف حاله، في أمره، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ.

{ ومن آياته يُريكمُ البرقَ خوفاً وطمعاً { ، أي: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، أو: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر، { ويُنزّل من السماء ماءً {؛ مطراً { فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون {؛ يتفكرون بعقولهم.

{ ومن آياته أن تقوم السماء { بغير عمد { والأرض { على ماء جماد { بأمره { أي: بإقامته، أو تدبيره وقدرته. { ثم إذا دعاكم { للبعث { دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون { من قبوركم. وسبك الآية: ومن آياته قيام السماوات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة، يا أهل القبور، خرجتم بسرعة.

وإنما عطف هذا بتم؛ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر، وإظهار اقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور، قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، كقوله:
{ تُمْ نَفْحٌ فِيهِ أُخْرًا فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ }

[الزمر:68].

تنبيه: عبّر عن مودة الزوجين ببتكفرون؛ لأن المودة قلبية، لا تُدْرِكُ إلا بتفكير القلب، وعبّر عن خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالمين؛ لأن أمر ذلك يدركه كل أحد، ممن له عقل أو علم، وعبّر عن النوم واليقظة بيسمعون؛ لأن من كان في الغفلة لا يسمع أمثال هذه المواعظ، وإنما يسمعها مَنْ كان متيقظاً، وعبّر عن إظهار البرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض، بيعقلون؛ لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكة عن عقل سليم، ويعلم أنه من الله بلا واسطة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما نُصِبَتْ هذه الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها، فما هذه الأكوان الحسية إلا تجليات من تجليات الحق، ومظاهر من مظاهره، وأنوار من أنوار ملكوته، متدفقة من بحر جبروته. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لا يعرف هذا إلا العارفون بالله، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها، وباهر قدرته وحكمته، فيقوي إيمانهم وبشئد إيقانهم.

قال في الإحياء: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنهه جلال الله محال، وكلما كثرت المعرفة بالله سبحانه، وبأفعال مملكته، وأسرار مملكته، وقويت، كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزعر وحسن، وقال أيضاً، في كتاب شرح عجائب القلب: ويكون سعة ملك العبد في الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله سبحانه، ومن صفاته وأفعاله. هـ.

ومن آياته خلق سماوات وأرواحكم، وأرض نفوسكم، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية، والنفوس بأداب العبودية، واختلاف ألسنتكم؛ فبعضها لا تتكلم إلا في القَرْق، وبعضها إلا في الجمع. وألوانكم؛ بعضها طهر فيها سيما العارفين، وبهجة المحبين، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم في ليل الغفلة والبطالة، وَقَتَّ غَفْلَتِكُمْ، وابتغواكم من فضله؛ بزيادة معرفته وَقَتَّ يَقْظَتِكُمْ. ومن آياته يُرِيكُمْ الْبَرْقَ، أَي: يُلْمِعُ عَلَيْكُمْ أَسْرَارَ الْمَعَانِي، ثم تخفى عند الاستشراق على بحر الحقيقة، خوفاً من الاصطلام والرجوع، وطمعاً في الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون، فتخرجون بأرواحكم إلى سماء وُضِّلْتُمْ وتمكن معرفته. والله تعالى أعلم.

@ { وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ } * { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

يقول الحق جل جلاله: { وله من في السماوات والأرض }؛ ملكاً ومُلكاً، { كل له قانتون } أي: مطيعون، كل لما أراد، لا يستطيع التغير عن ذلك. أو مُقَرَّرُونَ بالعبودية، أو:

قائمون بالشهادة على وجدانيته. { وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده } أي: يُنشئهم ثم يعيدهم للبعث، { وهو } أي: البعث { أهونُ }؛ أيسر { عليه } عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فليَمَ أنكرتم الإعادة، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره: أهونٌ بمعنى "هين"؛ كقوله: { وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } [النساء: 30]، كما قالوا: أكبر، بمعنى كبير. والإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هُوتت بالقياس إلى الإنشاء؛ إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم تُطفأ، ثم عُلقا، ثم مضغاً، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفي.

{ وله المثلُ الأعلى في السماوات والأرض } أي: الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره، وقد عُرف به، ووُصف في السماوات والأرض، على السنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاءٍ وإعادة، وغيرهما من المقدورات، { وهو العزيزُ } أي: القاهر لكل مقدور، { الحكيم } الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس: المثل الأعلى هو: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: 11]. وعن مجاهد: هو قول: " لا إله إلا الله ". ومعناه: وله الوصف الأرفع، وهو اختصاصه بالالوهية في العالم العلوي والسفلي، وبعضه: ما بعده مِنْ ضرب المثل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاشياء كلها، من عرشها إلى فرشها، حيها وجامدها، قانتة وساجدة لله تعالى، من حيث جِسُّها الذي هو مَقَرَّ العبودية، وغنية عن السجود من حيث معناها؛ لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد، من حيث جِسُّها الذي هو مَقَرَّ العبودية، وغنية عن السجود من حيث معناها؛ لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد، من حيث فرقه، عبد خاضع، ومن حيث جمعه: حُرُّ مُطَاع.

قال القشيري: قوله: { وهو أهون عليه } أي: في طَبِّكم وتقديركم. وفي الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز. { وله المثل الأعلى } والصفات العلى في الوجود بحق القَدَم، وفي وجوده - أي: للأشياء - بنعت الكرم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النظرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلق، وفي الحكم بوجود التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العز والجلال، وفي الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت: والحاصل ان المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته، تعالى، وصفاته وأفعاله.

@ { صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } * { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا } لُقْبُح الشرك وبشاعته، منتزعاً { من أنفسكم } التي هي أقرب شيء إليكم، وهو: { هل لكم } ، معاشر الأحرار، { مما

ملكتم أمثالكم { أي من عبيدكم { من شركاء فيما رزقناكم } من الأموال وغيرها. فمن، الأولى: للابتداء، والثانية: للتبويض، والثالثة: مزيدة؛ لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. والمعنى: هل لكم، من بعض عبيدكم، شرك فيما رزقناكم، أي: هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم، فيما رزقناكم؟ { فأنتم فيه سواء }؛ فتكونون أنتم وهم، فيما رزقناكم من الأموال، سواء؛ يتصرفون فيه كتصرفكم، ويحكمون فيه كحكمكم، مع أنهم بشرٌ مثلكم، حال كونكم { تخافونهم } أي: يستبدوا بالتصرف فيه، { كخيفتكم أنفسكم } أي: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض - فيما هو مشترك بينهم - أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو: تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال، أو: يرتونها بعدكم، كما تخافون ذلك من بعضكم، فإذا لم ترصوا ذلك لأنفسكم، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء في استحقاق العبادة؟!

{ كذلك } ، أي: مثل هذا التفصيل البديع، { نُفَصِّلُ الآيَاتِ }؛ بينهما؛ لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها { لقوم يعقلون }؛ يتدبرون في ضرب الأمثال، ويعرفون حكمها وأسرارها، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم، فقال: { بل اتبع الذين ظلموا } أنفسهم بالشرك { أهواءهم بغير علم } ، أي: تبعوا أهواءهم، جاهلين، ولو كان لهم علم؛ لرجي أن يزجرهم، { فمن يهدي من أضل الله }؟ أي: لا هادي له قط، { وما لهم من ناصرين } يمنعونهم من العذاب، أو: يحفظونهم من الضلالة، أو: من الإقامة فيها.

الإشارة: ما قيل في الشرك الجلي يجري مثله في الشرك الخفي؛ فإن الحق تعالى غيور، لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه، وأنشدوا:

لي محبوبٌ إنما هو عيورٌ
يُطَلِّ في القلب كطيرٍ حدورٌ
دَا رَأَى شيئاً امتنع أن يزور

فكما أنك لا ترضى من عبدك أن يحب غيرك، ويخضع له، كذلك الحق تعالى، لا يرضى منك أن تميل لغيره. قال القشيري. قوله: { بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم }؛ أشدُّ الظلم متابعة الهوى؛ لأنه قريب من الشرك. قال الله تعالى:

{ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ }

[الجاثية: 23]، ومن اتبع هواه؛ خالف رضا مولاه، فهو، بوضع الشيء في غير موضعه، صار ظالماً، كما أن العاصي، بوضع المعصية في موضع الطاعة، صار ظالماً، كذلك بمتابعة هواه، بدلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه، صار في الظلم متمادياً. هـ.

@ { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فطرت الله التي قَطَرَتِ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَا كِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } * { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } * { مِنَ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعاً كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }

قلت: (حنيفاً): حال من (الدين)، أو: من المأمور، وهو ضمير (أقم)، و(فطرة): منصوب على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: لنبه صلى الله عليه وسلم، أو: لكل سامع: { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ }
{ أَي: قَوْمَ وَجْهَكَ لَهُ، عَيْرَ مُلْتَفِتٍ عَنْهُ؛ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا. وَهُوَ تَمَثِيلٌ لِإِقْبَالِهِ عَلَى الدِّينِ
بِكَلِّيَّتِهِ، وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَاهْتِمَامِهِ بِأَسْيَابِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ اهْتَمَّ بِالشَّيْءِ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ،
وَسَدَّدَ إِلَيْهِ نَظْرَهُ، { حَنِيفًا }؛ أَي: مَائِلًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ، { فَطَرَّتْ اللَّهُ }؛
أَي: الزموا فطرة الله. والفطرة: الخلقة: ألا ترى إلى قوله: { لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ }؟
فالأرواح، حين تركيبها في الأشباح، كانت قابلة للتوحيد، مُهَيَّأَةً لَهُ، بل عالمة به، بدليل
إقرارها به في عالم الذر، حتى لو تُرِكُوا لَمَا احْتَارُوا عَلَيْهِ دِينًا آخَرَ، وَمَنْ غَوَى فَإِنَّمَا غَوَى
مِنْهُمْ بِإِغْوَاءِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وفي حديث قدسي: " كُلُّ عِبَادِي خَلَقْتُ حَنِيفًا،
فاجتالتهُمُ الشَّيْطَانِيُّ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي غَيْرِي " وفي الصحيح: " كُلُّ
مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، قَابِوَاهُ يُهَوِّدَانِيهِ أَوْ يُنَصِّرَانِيهِ أَوْ يُمَجَّسِّنَانِيهِ "

قال الزجاج: معناه: أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به، على ما جاء في الحديث:
" إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذر، وأشهدهم على أنفسهم بأنه
خالقهم، فقالوا: بلى " ، وكل مولود فهو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله تعالى ربُّها
وخالقها. هـ. قال ابن عطية: الذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة: أنها الخلقة
والهيئة في نفس الطفل، التي هي مهية لمعرفة الله والإيمان به، الذي على الإعداد له
فطر البشر، لكن تعرض لهم العوارض؛ على حسب ما جرى به القدر، ولا يلزم من
الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر، كما في قوله تعالى:
{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }
[الذاريات: 56]، أي: خلقهم معدين لذلك، فأمر من ساعده القدر، وصرف عن ذلك من
لم يوفق لما خلق له. هـ.

فقوله في الحديث: " كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " أي: على القابلية والصلاحية
للتوحيد، ثم منهم من يتمحض لذلك، كما سبق في القدر، ومنهم من لم يوفق لذلك، بل
يخذل ويصرف عنه؛ لما سبق عليه من الشقاء. وقال في المشارق: أي: يخلق سالماً
من الكفر، متهيئاً لقبول الصلاح والهدى، ثم أبواه يحملانه، بعد، على ما سبق له في
الكتاب. هـ. قال ابن عطية: وذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة. ثم
قال: وقد فطر الله الخلق على الاعتراف بربوبيته، ومن لازم ذلك توحيد، وإن لم
يُوقِفُوا لذلك كلهم، بل وَحَّدَهُ بَعْضُهُمْ، وَأَشْرَكَ بَعْضُهُمْ، مع اتفاق الكل على ربوبيته؛
صَرُورَةً أَنَّ الْكُلَّ يَشْعُرُ بِقَاهِرٍ لَهُ مَدِيرٍ.
قال في الحاشية: والحاصل: أنه تعالى فطر الكل في ابتداء النشأة، على الاعتراف
بربوبيته، ولكن كتب منهم السعداء موحدين، وكتب الأشقياء مشركين، مع اعتراف
الجميع بربوبيته، ولم يوفق الأشقياء لكون الربوبية تستلزم الوحدانية، فأشركوا،
فناقضوا لازم قولهم. هـ.

وهذا معنى قوله تعالى: { التي فطر الناس عليها } ، أي: خلقهم في أصل نشأتهم عليها،
{ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } أَي: مَا يَنْبَغِي أَنْ تَبْدَلَ تِلْكَ الْفِطْرَةَ أَوْ تُغَيِّرَ. وقال الزجاج: معناه:
لا تبديل لدين الله، ويدل على قوله: { ذلك الدين القيم } أَي: المستقيم، { ولكن أكثر
الناس لا يعلمون } حقيقة ذلك. حال كونكم.

{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } أي: راجعين إليه، فهو حال من ضمير: الزموا. وقوله: { واتقوه وأقيموا الصلاة } عطف على الزموا. أو: على (فأقم)؛ لأن الأمر له - عليه الصلاة والسلام - أمرٌ لأمرته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم، منيبين إليه، { واتقوه } أي: خافوا عقوبته، { وأقيموا الصلاة } أي: اتقوا وأدوها في وقتها، { ولا تكونوا من المشركين }؛ ممن يشرك به غيره في العبادة.

{ من الذين فرقوا دينهم } بدل من " المشركين "؛ بإعادة الجار، أي: لا تكونوا من الذين جعلوا دينهم أدياناً مختلفة باختلاف ما يعبدونه؛ لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأخوان: (فارقوا) أي: تركوا دين الإسلام الذي أمروا به، { وكانوا شيعاً } أي: فرقا، كل فرقة تشايح إمامها الذي أضلها، أي: تشيعه، وتقوي سواده، { كل حزب } منهم { بما لديهم فرحون }؛ مسرورون، طناً بأنه الحق، ثم يبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ بالله.

الإشارة: الفطرة التي فطر الله الأرواح عليها في معرفة العيان، لأنها كلها كانت عارفة بالله، لصفاتها ولطافتها، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كثافة الأبدان، والاشتغال بحظوظها وهواها، حتى نسيت تلك المعرفة. وفي ذلك يقول ابن البنا في مباحثه:

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نَفْسٍ الْأَحْيَا لَأَمَّةً دَرَاكَةً لِلْأَشْيَا
وَأَيْمًا تَعُوقُهَا الْأَبْدَانُ وَالْأَيْفُسُ الْبُرْعُ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلٌّ مَنْ أذَاهُمْ جِهَادَهُ أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ حَرَقَ الْعَادَةِ

قال بعضهم: إنما حجب الله عنها تلك العلوم؛ غير أن تكشف سر الربوبية، فيظهر لغير أهله، قال القشيري: { فأقم وجهك } أي: اخلص قصدك إلى الله، واحفظ عهدك معه، وأفرّد عملك، في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك، له. { حنيفاً } أي: مستقيماً في دينه، مائلاً عن غيره، مُعْرِضاً عن سواه. والرّم (فطرة الله التي فطر الناس عليها)، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال: { منيبين إليه }؛ راجعين إلى الله بالكلية، من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفائه، منحرفين بكل وجه عن خلافه، مُتَّقِينَ صغير الإثم وكبيره، وقليله وكثيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وأدائها؛ جهراً، متحققين بمرعاة فضلها؛ سراً.

وقال في قوله تعالى: { من الذين فرقوا دينهم }؛ أقاموا في دنياهم في دار الغفلة، وعناد الجهل والفترة، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتملوا بسكر عيهم، وظنوا أنهم على شيء، فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب هجرهم، انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرجوا إلا في أوطان الجهالة. هـ.

@ { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ } * { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } * { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْكِرُونَ } * { وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَبَأٌ مِنْ رَبِّهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتَضُونَ }

قلت: (إِذَا هُمْ): جواب (إِنْ). و(وَإِذَا): الفجائية، تَحْلُفُ الفاء، لتأخيها في التعقيب.

يقول الحق جل جلاله: { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ }؛ كمرض، وفقير، وشدة، أو غير ذلك، { دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ }؛ راجعين { إليه } من دعاء غيره. { ثم إذا أذاقهم منه رحمة }؛ خلاصاً من الشدة { إذا فريق منهم بربهم يُشركون } شركاً جلياً أو خفياً، أي فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذي عافاهم، { ليكفروا }؛ إما: لام كي، أو: لام الأمر؛ للوعيد والتهديد، أي: أشركوا كي يكفروا { بما آتيناهم } من النعم، التي من جملتها: نجاتهم وخلاصهم من كل شدة، { فتمتعوا } بكفركم قليلاً، أمر تهديد، { فسوف تعلمون } وبال تمتعكم.

{ أم أنزلنا عليهم سلطاناً }؛ حجة على عبادة أصنامهم، { فهو يتكلم } ، وتكلمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنه قال: يشهد بصحة ما { كانوا به يشركون } ، فما: مصدرية، أي: بصحة كونهم بالله يشركون، أو: موصولة، أي: بالأمر الذي بسببه يشركون.

{ وإذا أذقنا الناس رحمة } أي: نعمة؛ من مطر، أو: سعة رزق، أو: صحة، { فرحوا بها } فرح بطرّ وافتخار وغفلة. { وإن تُصيهم سيئة }؛ بلاء؛ من جذب، أو ضيق، أو مرض، { بما }؛ بسبب ما { قدمت أيديهم } من المعاصي، أي: بشؤمها، { إذا هم يفتنون }؛ ييأسون من رحمة الله، وفرجه بعد عسره. يقال: قنط يفتن، كفرح يفرح، وكعلم.

الإشارة: الواجب على المؤمنين أن يختلفوا بصد ما تخلق به الكافرون، فإذا مسهم ضر أو شدة، توجهوا إلى الله، إما بالتضرع والابتهال؛ عبودية، منتظرين ما يفعل الله، وإما بالصبر، والرضا، والسكون تحت مجاري الأقدار. فإذا جاء الفرج والنعمة؛ شكروا الله وحمدوه، ونسبوا الفرج إليه وحده، فإن كان وقع منهم سبب شرعي؛ لم يلتفتوا إليه قط؛ إذ لا تأثير له أصلاً، وإنما الفرج عنده لا به، فلا يقولوا: فلان ولا فلانة، وإنما الفاعل هو الله الواحد القهار.

وهذا الشرك الخفي مما ابتلى به كثير من الناس، علماء وصالحين، وخصوصاً منهم من يتعاطى كتب الفلسفة، كالأطباء وغيرهم، إذا أصابهم شيء فزعوا، فإذا فرّج عنهم؛ قالوا: فلان داوانا، وفلان فرّج عنا، والدواء الفلاني هو شفائي، فتعالى الله عما يشكرون. فليشدّ العبدُ يده على التوحيد، ولا يرى في الوجود إلا الفرد الصمد، الفعّال لما يريد.

ومن أوصاف أهل الغفلة: أنهم، إذا أصابتهم نعمة، فرحوا وافتخروا بها، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسوا من روح الله، والواجب: ألا يفرح بما هو عارض فان، ولا ييأس من روح الله عند الشدة، بل ينتظر من الله الفرج، فإنّ مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً. قال تعالى:

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَيْنَا مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } [الحديد: 22-23] الآية. وبالله التوفيق.

@ { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
* { فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } * { وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } أي: يضيق على من يشاء، فينبغي للعبد أن يكون راجياً ما عند الله، غير آيس من روح الله؛ إذ دَوَامُ حَالٍ من قضايا المحال، { إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون }؛ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته، ولا يقفون مع شيء دونه. قال النسفي: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه، تائبين من معاصيهم، التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، يعني: عند البسط؛ فقال: { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى }؛ أعطِ قريبك { حَقَّهُ } من البر والصلة مما بسط عليك. { و } { أعطِ { المسكينَ وَابْنَ السَّبِيلِ } حقهما؛ من الصدقة الواجبة أو التطوعية، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه، أو: للنبي - عليه الصلاة والسلام، وغيره تبع. { ذلك } أي: إيتاء حقوقهم الواجبة، والتطوعية، { خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } أي: ذاته المقدسة، أي: يقصدون، بمعروفهم، إياه، خالصاً. { وأولئك هم المفلحون }؛ الفائزون بكل خير، قد حَصَلُوا، بما بسط لهم، النعيم المقيم.

{ وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس } أي: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه، كَيْفِيَّةً أو كَمِّيَّةً، { فلا يربوا عند الله }؛ ولا يبارك فيه، بل يُسْحَتْه ويمحقه، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة، إجماعاً، وقيل: وما أعطيتم من هدية؛ لتأخذوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لأنكم لم تقصدوا به وجه الله. وهذه؛ هدية الثواب، جائزة، إلا في حقه - عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: { وَلَا تَمُنَّ بِتَمَنِّي تَسْتَكْبِرُ }

[المدثر: 6]. وقرأ ابن كثير: " آتيتم "؛ بالقصر، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع: " لَتُرَبُّوا " بالخطاب، أي: لتصيروا دَوِي ربا، فتزيدوا في أموالكم.

{ وما آتيتم من زكاةٍ }؛ صدقة، { تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ }؛ تبتغون به وجهه؛ خالصاً، لا تطلبون به زيادة، ولا مكافأة، ولا سمعة، { فأولئك هم المضعفون } أي: ذوو الأضعاف من الحسنات، من سبعمائة فأكثر. ونظير المضعف: المقوي، والموسر، لذي القوة واليسار. والإلتفات إلى الخطاب في (أولئك...) إلخ في غاية الحسن؛ لما فيه من التعظيم، كأنه خاطب الملائكة وخواص الخلق؛ تعريفاً بحالهم، وتنويهاً بقدرهم، ولأنه يفيد التعميم، كأنه قيل: مَنْ فَعَلَ هذا فسيبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولا بد من ضمير يعود إلى " ما " الموصولة، أي: المضعفون به. أو: قَمُوْتُوهُ أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج: أي: فأهلها هم المضعفون، أي: يضاعف لهم الثواب، من عشر إلى سبعمائة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البسط والقبض يتعاقبان على العبد تَعَاقُبَ الليل والنهار. فالواجب على العبد: الرجوعُ إلى الله في السراء والضراء، فالبسط يشهد فيه المنة من الله، ومقتضى الحق منك الحمدُ والشكر. والقبض يشهده من الله امتحاناً وتصفية، ومقتضى الحق منك الصبرُ والرضا، وانتظار الفرج من الله؛ فإن انتظار الفرج، مع الصبر، عبادة. قال القشيري: الإشارة إلى ألا يُعلق العبد قلبه إلا بالله، لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله. فالبسط، الذي يسرهم ويؤنسهم منه، وجوده، والقبض، الذي يسوءهم ويحوشهم منه، حصوله. فالواجب: لزوم عهوده بالإسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال في قوله: { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } : القرابة على قسمين؛ قرابة النسب وقرابة الدين، وهي أَمْسٌ، وبالمواساة أَحَقُّ. وإذ كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة، غير متفرغ لطلب المعيشة، فالذي له إيمان بحاله، وإشرافٌ على وقته، يجب عليه أن يقوم بشأنه، بقدر ما يمكنه، مما يكون له عونٌ على طاعته، مما يشوش قلبه، من حديث عياله، فإن كان اشتغال الرجل بشيء من مراعاة القلب فحَقُّه أكد، وَتَفَقَّده أَوْجَب، { ذلك خير للذين يريدون وجه الله } ، والمريدُ هو الذي يُؤْتِرُ حقَّ الله على حطِّ نَفْسِهِ. فإيثارُ الإخوان، لمن يريد وجه الله، أتم من مراعاة حال نفسه، فهمة بالإحسان لذوي القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وَعَيْلَتِهِ، وما يهمله من نصيبه. هـ.

وقال في قوله: { يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } : لا تستخدم الفقير بما تُريده به من رفق، بل أفضل الصدقة على ذي رَحْم كاشح، أي: قاطع؛ حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ. فهؤلاء هم الذين يَتَضَاعَفُ أجْرُهُم بمجاهدتهم لنفوسهم، حيث يخالفونها، وفوزهم بالعَوْض من قِبَلِ اللَّهِ. ثم الزكاة هي التطهير، فتطهيرُ المال معلومٌ ببيان الشريعة، وزكاة البدن، وزكاة القلب، وزكاة السر، كل ذلك يجب القيام به. هـ. قلت: فزكاة البدن: إتيابه في القيام بوظائف العبودية الظاهرة، وزكاة القلب: تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل، وزكاة السر: صيانته من الميل إلى شيء من السُّوَى. والله تعالى أعلم.

@ { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }

قلت: (الله): مبتدأ، و (الذي خلقكم) خبر.

يقول الحق جل جلاله: { الله الذي خلقكم }؛ أظهركم { ثم رزقكم } ما تقوم به أبدانكم، { ثم يميتكم } عند انقضاء آجالكم، { ثم يحييكم }؛ عند بعثكم؛ ليجازيكم على فعلكم، أي: هو المختص بالخلق والرزق، والإماتة، والإحياء. { هل من شركائكم }؛ أصنامكم { من يفعل من ذلكم من شيء } أي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، { هل من شركائكم }؛ أصنامكم { من يفعل من ذلكم من شيء } أي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، { من شيء } أي: شيئاً من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا، عجزاً، فقال استبعاداً وتنزيهاً: { سبحانه وتعالى عما يشركون } . و " من "؛ الأولى، والثانية، والثالثة: زوائد؛ لتأكيد عجز شركائهم، وتجهيل عِبَدَتِهِمْ.

الإشارة: ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها، فأقر الناس بثلاثة، وشكوا في الرزق، وقالوا: لا يكون إلا بالسبب، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده في حق العامة ارتفع حق الخاصة، فيرزقهم بلا سبب، لقوله تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق: 2، 3].

قال القشيري: حين قذفك في بطن أمك قد كنت غنياً عن الأكل والشراب بقدرته أو مفتقراً إليه، فأجرى رزقه عليك مع الطمئ، على ما قالوا، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الشرب والأكل من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر، من الإيمان والعرفان، وأرزاق التوفيق؛ من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان؛ من الأذكار، وغير ذلك مما جرى ذكره. { ثم يُميتكم } بسقوط شهواتكم، ويُميتكم عن شواهدكم، { ثم يحييكم } بحياة قلوبكم، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق، ومنها ما شهود الرزاق، ويقال: لا مُكَنَّةَ لك في تعديل خلقك، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقك. فالمُوسَّع عليه: رزقه بفضل ربه، لا بمناقب نفسه. والمُقْتَر عليه رزقه بحُكم ربه لا بمعايب نفسه. هـ. وبعضه بالمعنى.

@ { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } * { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { ظهر الفساد في البر والبحر } ، أما الفساد في البر، فكالقحط، وقلة الأمطار، وعدم الربيع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، ومحق البركات من كل شيء. وأما في البحر؛ فبكثر الغرق، وانقطاع صيده. { بما }؛ وذلك بسبب ما { كسبت أيدي الناس } من الكفر والمعاصي، ولو استقاموا على الطاعة لدفع الله عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك { ليذيقهم بعض الذي عملوا } أي: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، عن " قُبل ويعقوب ": بنون التكلم. { لعلمهم يرجعون } عما هم عليه من المعاصي.

{ قُلْ لِكُفَّارِ قَوْمِكَ } سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل {؛ لئاعينوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم؛ لأنه { كان أكثرهم مشركين }؛ فدمرناهم، وخربنا ديارهم، فانظروا: كيف كان عاقبتهم، لعلمكم ترجعون عن عيكم.

الإشارة: قال القشيري: الإشارة في البر إلى النفس، وفي البحر إلى القلب، وفساد البرِّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة، مثل سوء العزم، والحسد والحقد، وإرادة الفسوق، وغير ذلك. وعَقْدُ الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أن العزم على الخيرات، قبل فعلها، من أعظم

الخيرات. ومن جملة الفساد: التأويلاتُ بغير حقٍّ، والانحطاطُ إلى الرُّخصِ من غير قيام بحقٍ، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء. هـ.

قال الورتجبي: إن الله غلب الإنسانية على الكون؛ طاعةً ومعصية، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزق المعصية فسد الحدثن بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تواثير لطفه وقهره، علّا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بَرِّ النفوس وبحار القلوب، ففساد بَرِّ النفوس: قَتْرُهَا عن العبودية، وفساد بحر القلب: احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.

قلت: وقد يقال: ظهر الفساد في بر الشريعة؛ بذهاب حَمَلَتِهَا، ومن يحفظها، ويذب عنها، وفي بحر الحقيقة؛ بقلة صدق من يطلبها، وغربة أهلها، واختفائها حتى اندرست أعلامها، وخفي آثارها، والبركة لا تنقطع. وذلك بسبب ما كسبت أيدي الناس؛ من إثارة الدنيا على الله؛ ليذيقهم وبال القطيعة، لعلمهم يرجعون إليه، إما بملاطفة الإحسان، أو بسلاسل الامتحان.

قال في لطائف المنن: سأل بعضُ العارفين عن أولياء العدد، هل ينقصون؟ فقال: لو نقص منهم واحد؛ ما أرسلت السماء قَطْرَهَا، ولا أنبتت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص أمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل الزمان مُعْرِضِينَ عن الله، مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجح فيهم الموعظة، ولا تملهم التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله تعالى فيهم، ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. هـ.

قال القشيري: (قل سيروا)؛ بالاعتبار، واطلبوا الحقَّ بنعت الافتكار، وانظروا: كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حُكْمَكُمْ في جميع الأحوال، (كان أكثرهم مشركين): كان أكثرهم عدداً، ولكن أقل في التحقيق؛ وزناً وقَدْرًا. هـ.

@ { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } * { مَنِ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَانَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ } * { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ } أي: قَوْمَهُ وَوَجْهَهُ { لِلدِّينِ الْقَيِّمِ }؛ البليغ في الاستقامة، الذي لا يتأتى فيه عوج ولا خلل. وفيه، من البديع، جناس الاشتقاق.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمته تبع، أو: لكل سامع. { من قبل أن يأتي يومٌ }؛ وهو البعث، { لا مَرَدَّ لَهُ } أي: لا يقدر أحد على رده، { من الله }؛ متعلق بيأتي، أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد، أو بمرد؛ لأنه مصدر، أي: لا مرد له من جهة الله، بعد أن يجيء؛ لتعلق الإرادة به حينئذٍ. { يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ }؛ يتصدعون، فأدغم التاء في الصاد.

وفي الصحاح: الصدع: الشق، يقال صدعته فانصدع، أي: انشق. وتصدع القوم: تفرقوا. هـ. أي: يفترقون؛ فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم أشار إلى غنائه عنهم، فقال: { من كَفَرَ فعليه كَفْرُهُ }؛ وبال كفره، لا يحمله عنه غيره. { ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمَهَّدُونَ } أي: يسوون لأنفسهم في قبورهم، أو: في الجنة ما يسوي لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه؛ لئلا يصيبه في مَصْجَعِهِ ما ينغص عليه مَصْجَعُهُ. وتقديم الظرف في الموضوعين؛ للاختصاص، أي: فلا يجاوز عمل أحد لغيره.

ثم علل ما أمر به من التأهب، فقال: { ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات } ، أظهر في موضع الإضمار، أي: ليجزيهم، ليدل على أنه لا ينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن، لصالح عمله. أثابه ذلك { من فضله } أي: بِمَحْضِ تفضله، إذ لا يجب عليه شيء، { إنه لا يُحب الكافرين } ، بل يبغضهم ويمقتهم، وفيه إيحاء إلى أنه يحب المؤمنين، وهو كذلك، ولا سيما المتوجهين.

الإشارة: أمر الحق تعالى بالتوجه إليه، والتمسك بالطريق التي تُوصل إليه، قبل قيام الساعة؛ لأن هذه الدار هي مزرعة لتلك الدار، فمن سار إليه هنا وعرفه؛ عرفه في الآخرة، ومن قعد هنا مع هواه، حتى مات جاهلاً به، بُعِثَ كذلك، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه، أو بعلمه، أو بعقله؛ انقطع لا محالة. قال القشيري: { فأقم وجهك للدين القيم }؛ أَخْلِصْ قِصْدَكَ، وَصِدْقَ عَزْمِكَ، بالموافقة للدين القيم، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. وَمَنْ لَمْ يَتَادَبْ بِمَنْ هُوَ إِمَامٌ وَقْتَهُ، وَلَمْ يَتَلَقَفْ الأَذْكَارَ مِمَّنْ هُوَ لِسَانُ وَقْتِهِ، كَانَ حُسْرَانُهُ أَمَّ مِنْ رُبْحِهِ، وَنَقْصَانُهُ أَعَمَّ مِنْ نَفْعِهِ. هـ.

@ { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

قلت: (وليذيقكم)؛ عطف على (مبشرات)؛ على المعنى، كأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، أو: على محذوف، أي: ليغيثكم وليذيقكم.

يقول الحق جل جلاله: { ومن آياته } الدالة على كمال قدرته: { أن يُرْسِلَ الرِّيحَ } ، وهي الجَنُوبُ، والصَّبَا، والشَّمَالُ والدَّبُّورُ، فالثلاث: رياح الرحمة، والدبور: ريح العذاب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً " وقال: " نُصِرْتُ بالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بالدَّبُّورُ " ، وهي الرياح العقيم. وقرأ ابن كثير والأخوان: بالإفراد، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله: { مبشرات } أي: أرسلها بالبشارة بالغيث { وليذيقكم من رحمته }؛ ولإذابة الرحمة، وهي نزول المطر، وحصول الخصب الذي يتبعه، والروح الذي مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، أي: ربوها وزيادتها بالنبات، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن: لو أمسك الله عن أهل الأرض الريح ساعة لماتوا؛ غمًا.

{ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ } في البحر عند هبوبها { بأمره }؛ بتدبيره، أو بتكوينه، لقوله:
{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا... }
[يس: 82] الآية. قيل: إنما زاد بأمره؛ لأنها قد تهب غير مُؤَاتِيَةٍ، فُتْغْرَقُ، وهي عند أمره
أيضاً، فهي على حسب أمره، ولأن الإسناد وقع للفلك؛ مجازاً، فأخبر أنه بأمره،
{ ولتبتغوا من فضله } ، يريد به تجارة البحر، { ولعلكم تشكرون } هذه النعم؛ فيزيدكم
من فضله.

الإشارة: ومن آياتِ قَنَجِهِ على أوليائه: أن يرسل رياح الهداية أولاً، ثم رياح التأييد، ثم
رياح الواردات، تحمل هدايا التَّعَرُّقَاتِ، مبشرات بالفتح الكبير، والتمكين في شهود العلي
الكبير، وليزيدكم من رحمته، وهي حلاوة معرفته، ولتجري سفن الأفكار في ميادين بحار
توحيده، ولتبتغوا من فضله، هو الترقى في الكشوفات والعلوم والأسرار، أبداً سرمداً،
ولعلكم تشكرون؛ بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

قال القشيري: يرسل رياح الرجاء على قلوب العُباد، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد
وعُتَاء النفس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق، فتحملهم إلى بساط الجُهد، وتكرمهم
بقوى النشاط. ويرسل رياح البَسْطِ على أرواح الأولياء فتطهرها من وَخْشَةِ القبض،
وتنشر فيه لذات الوصال، ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء، فتطهرها
من آثار الأغيار، وتبشرها بدوام الوصال، فذلك ارتياحٌ به، ولكن بعد اجتناح عنك. هـ. أي:
بعد ذهاب عنك وزوال. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: (حقاً): خبر " كان " ، و(نصر): اسمها. أو: (حقاً): خبر " كان " ، واسمها: ضمير
الانتقام، فيوقف عليه، و(علينا نصر): مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله: { ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات }؛
بالمعجزات البينات الواضحات، فكذبوهم؛ { فانتقمنا من الذين أجمروا } بالتدمير،
{ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين } أي: وكان نصر المؤمنين، بإنجائهم من العذاب، حقاً
واجباً علينا بإنجاز وعدنا؛ إحساناً. أو: وكان الانتقام من المجرمين حقاً لا شك فيه، ثم
علينا، من جهة الإحسان، نصر المؤمنين. قال البيضاوي: فيه إشعار بأن الانتقام لهم -
أي: من عدوهم - إظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم. وعنه.
صلى الله عليه وسلم: " مَا مِنْ أَمْرٍ إِعْرَاضٌ عَنْ عِزِّ أَخِيهِ، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ
أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ " ، ثم تلا الآية. أي: { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا.. } إلخ. الإشارة: هكذا
جرت سنة الله تعالى، مع خواصه، أن ينتقم ممن آذاهم، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام
باطناً، بنقص الإيمان وقساوة القلب، وهو أقيح. قال القشيري: فانتقمنا من الذين
أجمروا، وأخذناهم من حيث لا يحتسبوا، وَشَوَّشْنَا عَلَيْهِمْ مَا أَمَلُوا؛ ونقصنا عليهم ما
استطابوا وَتَعَمَّموا. { وكان حقاً علينا نصر المؤمنين } . وَطَيْبَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ بِأَعْقَابِهِمْ فَلَمْ
يَلْبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى رَفِئَتْهُمْ فَوْقَ رِقَابِهِمْ، وَخَرَّبْنَا أَوْطَانَهُمْ، وَهَدَمْنَا بَنِيَانَهُمْ، وَأَخْمَدْنَا

نيرانهم، وَعَطَّلْنَا عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، وَمَحَوْنَا، بِقَهْرِ التَّدْمِيرِ، آثَارَهُمْ، فَظَلَّتْ شَمُوسُهُمْ كَاسْفَةً، وَمَكِيدَةٌ قَهْرُنَا لَهُمْ، بِأَجْمَعِهِمْ، خَاسِفَةٌ. هـ.

@ { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } * { وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لِمُبْلِسِينَ } * { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلْنَا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

يقول الحق جل جلاله: { الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون } * { وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين } * { فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو علنا كل شيء قدير }
يقول الحق جل جلاله: { الله الذي يرسل الرياح } الأربع. وقرأ المكي: بالإفراد.
{ فتثير } أي: تزعج { سحابا فيبسطه في السماء } أي: يجعله منبسطا، متصلا بعضه ببعض في سمت السماء، كقوله:

{ وَقَرَّعَهَا فِي السَّمَاءِ }

[إبراهيم: 24]، أي: جهته. فيبسطها في الجو { كيف يشاء }؛ سائرا أو واقفا، مطبقا وغير مطبق. من ناحية الشمال أو الجنوب، أو الدبور، أو الصبا، { ويجعله كسفا } أي: قطعاً متفرقة. والحاصل: أنه تارة يبسطه متصلاً مطبقاً، وتارة يجعله قطعاً متفرقة، على مشيئته وحكمته. { فترى الودق }؛ المطر { يخرج من خلاله }؛ وسطه.

{ فإذا أصاب به }؛ بالودق { من يشاء من عباده }، يريد إصابة بلادهم وأراضيهم، { إذا هم يستبشرون }؛ يفرحون بالخصب، { وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم } المطر { من قبله لمبلسين }؛ آيسين، وكرر " من قبله "؛ للتوكيد، وفائدته: الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار، أو: على أن عهدهم بالمطر قد تطاول؛ فاستحکم بأسئهم، فكان الاستبشار على قدر اعتمامهم بذلك.

{ فانظر إلى آثار رحمة الله } أي: المطر { كيف يحيي الأرض } بالنبات وأنواع الثمار { بعد موتها }؛ يبسها { إن ذلك } أي: القادر عليه { لمحيي الموتى }؛ فكما أحيا الأرض بعد يبسها، يحيي الأجساد بعد رميمها، { وهو على كل شيء قدير }، وهذا من جمل مقدوراته تعالى.

الإشارة: الله الذي يرسل رياح الواردات الإلهية، فتزعج سحب الآثار عن عين الذات العلية، فتبقى شمس العرفان، ليس دونها سحب، فيبسطه في سماء القلوب كيف يشاء، فيقع الاحتجاب لبعضها، ويصرفه عن يبسها فيقع التجلي والظهور، ويجعله كسفا لأهل الاستشراق، فتارة ينجلي عنهم سحب الآثار، فيشاهدون الأنوار، وتارة تغطيهم سحب الآثار، فيشاهدون الأغيار، فترى مطرَ حَمْرَةِ الفناء تخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين، آيسين، حين كانت نفوسهم غالبية عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكاً ثم سقط على شيخ ذي خمرة أزلية، فسقاه حتى حيي بمعرفة الله.

قال القشيري: الله الذي يرسل رياح عطفه وجوده، مبشرات بجوده ووصله، ثم يمطر جود غيئه على أسرارهم، ويطوي بساط الحشمة عن مناجاة قربه، ويضرب قباب الهيبة

بمشاهد كَشَفِهِ، وينشر عليهم أزهار أُنْسِيهِ، ثم يتجلى لهم بحقائق قُدْسِيهِ، ويسقيهم بيده شراب حُبِّهِ. وبعد ما محاهم عن أوصافهم؛ أصحابهم، لا بهم، ولكن بِنَفْسِهِ. والعبارات عن ذلك حُرْسٌ، والإشارات، دونه، طُمَسٌ.

وقال في قوله تعالى: { فانظر إلى آثار رحمة الله... } الآية: يحيي الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء أمطارها، ليُخْرِجَ رَزْعَهَا وثمارها، ويحيي النفوس بعد تَفْرِيقِهَا، وبوفقه للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطان الوفاق بصدق إقدامهم، وتندفع البلياء عن الأنام ببركات أيامهم، وتحيي القلوب، بعد غفلتها، بأنواع المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهل العصر من أهل الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حجبها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسها من بُرْج السعادة، ويتصل، بمشامٍ أسرار الكافة نسيم ما يُفِيضُ عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نَفْسٍ إلا حَطِيٍّ منه بنصيب، وبُحْيِيٍّ الأسرار بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وَفَقَةٌ في بعض الحالات، فتنتفي، بالكلية، آثارُ العَيْرِيَّةِ، ولا يَبْقَى في الديار دَبَّارٌ، ولا من سكانها آثار، وَسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لها دَرَّةٌ من صفات الخلائق؛ هنالك الولاية لله الحق.. انتهى المراد منه مع زيادة بيان.

@ { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } * { فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا يُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } * { وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنِ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ }

قلت: اجتمع القسم والشرط، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط.

والضمير في (رأوه): يعود على النبات المفهوم مما تقدم من أحياء الأرض، أو: على السحاب.

يقول الحق جل جلاله: { و { الله { لئن أرسلنا ريحاً { عاصفة على ما نبت في الأرض من الزروع وسائر الأشجار، الذي هو أثر رحمة الله، { قَرَأُوهُ { أي: ما نبت في الأرض، { مُصْفَرًّا { يابساً { لظلوا { أي: ليظلمون { من بعده { أي من بعد اصفراره { يكفرون { ، ويقولون: ما رأينا خيراً قط، فينسبون النعم السابقة بالنقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة، وأما أهل اليقظة؛ فيشكرون في أوقات النعم، ويصبرون ويرضون في أوقات النقم، ومنتظرون الفرح بعد الشدة، واليسر بعد العسر، غير قَانِطِينَ ولا صَّجِرِينَ. أو: ولئن أرسلنا ريحاً؛ لتعذيبهم، فرأوا سحابة صفراء، لأنَّ اصفراره علامة على أنه لا مطر فيه، لظلوا، أي: للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم، لانهماكهم.

قال البيضاوي: وهذه الآية ناعية على الكفار، لقلّة تثبتهم، وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم، لعدم تفكيرهم، وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه؛ بالاستغفار، إذا احتبس القطر عنهم، ولا يياسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة، إذا أصابهم برحمته، ولم يبطروا بالاستبشار، وأن يصبروا على بلائه؛ إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، ولم يكفروا نعمه. هـ.

قال النسفي: ذمهم الله تعالى بأنهم، إذا حبس عنهم المطر، قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم، مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر، استبشروا، فإذا أرسل الله ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجوا، وكفروا بنعمه، وهم في جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله. فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها صفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله، فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها، وفرحوا وبطروا، وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه، قال تعالى: { فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى } أي: موتى القلوب، وهؤلاء في حكم الموتى؛ فلا تطمع أن يقبلوا منك، { وَلَا تُسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ } أي: لا تقدر أن تُسْمِعَ من كان كالأصم دعاءك إلى الله، أو: لا يقدر أن يسمعوا منك، { إذا ولوا مدبرين } ، فإن قلت: الأصم لا يسمع؛ مقيلاً أو مدبراً، فما فائدة التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مُقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولى فلا يفهم، ولا يسمع، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفي.

{ وما أنت بهادِ العُمي } أي: عُمي القلوب. وقرأ حمزة: " ومات أنت تهدي العمي " ، { عن ضلالتهم } أي: لا تقدر أن تهدي الأعمى عن طريقه إذا ضلَّ عنه، بالإشارة إليه، { إن } ما { تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون }؛ منقادون لأوامر الله ونواهيها.

الإشارة: من أصول طريقة التصوف: الرجوع إلى الله في السراء والضراء، فالرجوع في السراء: بالحمد والشكر، وفي الضراء: بالرضا والصبر. قال القشيري: { فإنك لا تُسمع الموتى.. } إلخ: مَنْ فَقَدَ الحَيَاةَ الأَصْلِيَّةَ؛ لم يَعِشْ بالرُّقَى والتَّمائم، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماء الحقائق، فَسَمِعَ الطَّوَاهِرَ لا يفيد إلا تأكيد الحُجَّة، وكما لم يُسمع الصَّمَّ الدعاء، فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُمي عن ضلالتهم. هـ.

@ { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }

قلت: " الله " : مبتدأ، والموصول: خبره.

يقول الحق جل جلاله: { الله } الذي يستحق ان يعبد وحده هو { الذي خلقكم من ضَعْفٍ } أي: ابتدأكم ضُعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، أو: خلقكم من أصل ضعيف، وهو النطفة؛ كقوله:

{ أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ }

[المرسلات: 20]، { ثم جعل من بعد ضعف قوة } ، يعني: حال الشباب إلى بلوغ الأشد، { ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً } ، يعني: حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد في الشيب ما يسلي عن روعة هجومه فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " من شاب شيبة الإسلام؛ كانت له نوراً يوم القيامة " ، ولما رأى إبراهيم عليه السلام الشيب في لحيته قال: يارب، ما هذا؟ قال: هذا وقار. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: " يا داود، إنني لأنظر الشيخ الكبير، مساءً وصباحاً، فأقول له: عبدي، كبر سنك،

ورق جلدك، ووهن عظمك، وحن قدمك عليّ، فاستحي مني، فإني أستحي أن أعذب شبيبةً بالنار". ومن المُسْتَمْلِحَات، مما يسلي عن رَوْع الشيب، ما أنشد القائل:

لَا يَرَوْعُكَ الشَّيْبُ يَا بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ، فَالشَّيْبُ حُلَّةٌ وَوَقَارٌ
إِنَّمَا تَحْسُنُ الرِّيَاضُ إِذَا مَا صَحِكَتْ فِي خِلَالِهَا الْأَزْهَارُ

ثم قال تعالى: { يَخْلُقْ مَا يَشَاءُ }؛ مِنْ ضَعْفٍ، وَقُوَّةٍ، وَشَبَابٍ، وَشَيْبَةٍ، { وَهُوَ الْعَلِيمُ } بأحوالهم، { الْقَدِيرُ } على تديبرهم؛ فيصيرهم إلى ذلك. والترديد في الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير. وفي "الضعف": لغتان؛ الفتح والضم. وهو أقوى سنداً في القراءة، كما روي ابن عمر. قال: قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من صَعَفٍ " فأقراني: " من صُعْفٍ ".

الإشارة: إذا كُثِفَ الحجاب على الروح، وكثرت همومها، أسرع لها الضعف والهزم، وإذا رِقَّ حجابها، وقلت همومها؛ قويت ونشطت بعد هزمها، ولا شك أن توالي الهموم والأحزان يهزم، وتوالي البسط والفرح ينشط، ويرد الشباب من غير إِبَّانِهِ، والعارفون: فرحهم بالله دائم، وبسطهم لازم؛ إذ لا تنزل بساحتهم الهموم والأحزان، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان، كما قال في الحكم.

قال القشيري: { خلقكم من ضعف }، أي: ضعف عن حال الخاصة، ثم جعل من بعد ضعف قوة؛ بالوصول إلى شهود الوجود القديم، ثم من بعد قوة ضعفاً؛ بالرجوع إلى المسكنة أي: في حال البقاء، قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين " هـ.

@ { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } * { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْيَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَا كَيْفَ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } * { فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {

قلت: " لبثوا ": جواب القسم؛ على المعنى، وإلا لقل: ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله: { ويوم تقوم الساعة }، أي: القيامة. وسميت بذلك؛ لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا، ولأنها تقوم في ساعة واحدة، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، فإذا قامت { يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ }؛ يحلف الكافرون: { ما لبثوا } في قبورهم، أو: في الدنيا، { غير ساعة }، استقلوا مدة لبثهم في القبور، أو: الدنيا، لشدة هول المطلق، أو: لطول مقامهم في أهوالها، أو: ينسون ما لبثوا، أو: يكذبون. { كذلك كانوا يُؤْفَكُونَ }، أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق والتصديق، أو: عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هي عليه، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

{ وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ }، أي: حَصَلُوا الْعِلْمَ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ، وَالْمُؤْمِنُونَ: { لقد لبثتم في كتاب الله }؛ في علم الله المثبت في اللوح، أو: في حكم الله وقضائه، أو: القرآن، وهو قوله تعالى: " ومن ورائهم برزخ.. " إلخ، أي: لقد مكثتم مدة البرزخ { إلى يوم البعث }، ردوا عليهم ما قالوه، وحلقوهم

عليه، وأطلعوهم على حقيقة الأمر، ثم وَبَّخُوهُمْ على إنكار البعث بقولهم: { فهذا يَوْمُ البعث } الذي كنتم تنكرونه، { ولكنكم كنتم لا تعلمون } في الدنيا أنه حق؛ لتفريطكم في طلب الحق، واتباعه. والفاء جواب شرط مقدر، ينساق إليه الكلام، أي: إن كنتم منكرين للبعث؛ فهذا يومه.

{ فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا } كفروا { مَعَذِرَتُهُمْ }؛ اعتذارهم، والمعذرة: تأنيها مجازي، فيجوز التذكير والتأنيث، { ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ } أي: لا يقال لهم: أَرْضُوا رَبَّكُمْ بالتوبة، ولا يُدْعَوْنَ إلى استرضائه، يقال: استعنتني فلان فأعنته، أي: استرضاني فأرضيته.

الإشارة: كل من قصر في هذه الدار، وصرف أيام عمره في البطالة، يقصر عليه الزمان عند موته، ويرجع عنده كأنه يوم واحد، فحينئذ يستعتب؛ فلا يُعْتَب، ويطلب الرجعى؛ فلا يُجاب، فلا تسأل عن حسرته وخسارته، والعياذ بالله، وهذا كله مبين في القرآن.

@ { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ } * { كَذَٰلِكَ يَطِيعُ اللَّهُ عُلَمَاءَ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } * { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ } أي: بيَّنا لهم فيه من كل مثل، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد، وصدق الرسل، وغير ذلك، مما يحتاجون إلى بيانه، { ولئن جئتهم بآية } من الآيات الدالة على صدقك، أو: القرآن. { ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون }؛ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع، مع أن المجيء بالحق واحد؛ مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين، أو: ولقد وصفنا كل صفة، كأنها مثل؛ في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كقصة المبعوثين يقوم القيامة. وما يقولون، وما يُقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم، ولا يُسمع من استعتابهم، ولكنهم؛ لقسوة قلوبهم، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور باطل. { كذلك يطيع الله على قلوب الذين لا يعلمون }، أي: مثل ذلك الطيع - وهو الختم - يطيع الله على قلوب الجهلة؛ الذين عِلِمَ الله منهم اختيار الضلال، حتى سموا المحققين مبطلين، وهم أغرق خلق الله في تلك الصفة.

{ فاصبر } على أذاهم وعدواتهم، { إن وعد الله } بنصرتك، وإظهار دين الإسلام على كل دين، { حق } لا بد من إنجازه والوفاء به، { ولا يستخفك الذين لا يوقنون }؛ لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة في الرد عليهم، أو: لا يحملنك على الخفة والقلق؛ فرعاً مما يقولون؛ فإنهم ضلال، شاكون، لا يستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب: بسكون النون؛ على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة: فقد بين الله في القرآن ما يحتاج السائرون إليه، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية، من غوامض أسراره؛ ليقول أهل الجمود، هذا إلحاد وباطل. فاصبر؛ إن وعد الله بالنصر لأوليائه حق، ولا

يحملنك علنا لعجلة من لا يقين عنده. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم.

#سورة لقمان §#

@ { الاما } * { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } * { هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ } * { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } * { أُولَئِكَ عَلَّمْنَا هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

قلت: { هُدًى وَرَحْمَةً } : حالان من الآيات، والعامل: معنى الإشارة. ورفعها حمزة على الخبر لتلك بعد حبر، أو: خبر عن محذوف، أي: هو، أو: هي هُدًى. والموصول: نعت للمحسنين؛ تفسير لإحسانهم، و(هم): مبتدأ، و(يُوقِنُونَ): خبر. وتكريره الضمير؛ للتوكيد، ولما حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله: { الام }؛ أيها المصطفى المقرب، { تلك } الآيات التي تتلوها هي { آيات الكتاب الحكيم } أي: ذي الحكمة البالغة، أو: الذي أحكمت آياته وأتقنت، أو: المحكم الذي لا ينسخه كتاب. أو: المصون من التغيير والتبديل. حال كونه { هُدًى وَرَحْمَةً }؛ هادياً لظواهرهم بتبيين الشرائع، ورحمة لقلوبهم بتبين حقائق الإيمان، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان في قوله: { إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا }

[المائدة: 93] الآية. ولذلك خصه بقوله: { للمحسنين } ، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان؛ لأنهم هم الذين يغوصون على أسرارهِ ومعانيهِ. وهم { الذين يقيمون الصلاة }؛ يتقنونها، { ويؤتون الزكاة } على الوجه المشروع، ويدفعونها لمن يستحقها، لا جزاءً ولا شكوراً، ولا لجلب نفع أو دفع شر، { وهم بالآخرة هم يوقنون } ، كأنها تُصَبُّ أعينهم. وخص بالذكر هذه الثلاثة؛ لفضلها؛ فإن الصلاة عماد الدين، والزكاة قرينتها؛ لأن الأولى عبادة بدنية، والثانية مالية، والآخرة هي دار الجزاء، فلولا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثاً، وتعالى الله عنه علواً كبيراً.

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال: { أولئك على هُدًى من ربهم } أي: راكبون على متن الهداية، متمكنون منها، { وأولئك هم المفلحون } ، الفائزون بكل مطلوب.

الإشارة: قال القشيري: { الام } ، الألف إشارة إلى آله، واللام إلى لطفه، والميم إل مجده وسنائه، فبالآله دفع الجحد عن قلوب أوليائه، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفياه، وبمجده وسنائه هو مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه. هـ.

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين، رحمة للواصلين؛ إذ لاتكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب، بكلمك وبناجيك، وهذه حالة أهل مقام الإحسان. قال القشيري: وشَرَطَ المحسن أن يكون محسناً إلى عباد الله: دانيهم وقاصيهم، مطيعهم وعاصيهم. ثم قال: { الذين يُقِيمُونَ الصلاة }؛ يأتون بشرائطها في الظاهر - ثم ذكرها - وفي الباطن يأتون بشروطها؛ من طهارة السر عن العلائق، وسر عورة الباطن، بتنقيته من العيوب؛ لأن ما كان فيه فالله يراه. فإذا أَرَدْتَ أن لا يرى الله عيوبك فأحذرْها حتى لا تكون. والوقوف

على مكان طاهر: هو وقوف القلب على الحدّ الذي أذن فيه، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق، بل رَجَمَ الله مَنْ وقف عند حدّه بالمعرفة بالوقت، فيعلم وقت التذلل والاستكانة، ويميز بينه وبين وقت السرور والبسط، ويستقبل القبلة بنفسه، ويعلق قلبه بالله، من غير تخصيص بقطرٍ أو مكان { أولئك على هدى من ربهم }؛ وهم الذين اهتدوا في الدنيا، وسَلِمُوا وَتَجَوَّأُوا فِي الْعُقَبَى. هـ.

@ { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } * { وَإِذَا تُلْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلِمَا مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا كَانٌ فِي آذَانِهِ وَقَرَأَ قَبْسْرَةً بَعْدَابٍ أَلِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { ومن الناس من يشتري لهو الحديث { أي: ما يلهى به عما يقرب إلى الله؛ كالأحاديث التي لا أصل لها، والخرافات التي لا حقيقة لها، والمضاحك، وفضول الكلام. قيل: نزلت في النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، كان يخرج إلي فارس للتجارة، فيشتري أخبار الأعاجم، ثم يُحدث قريشاً بها، ويقول: إن محمداً يُحدثكم بأخبار عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رُسُوم، وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ولا يسمعون القرآن. وقيل: كان يشتري القيان، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام؛ ليصده عنه.

والإشترَاءُ مِنَ الشَّرَاءِ، كما تقدم عن النضر، ومن البدل، كقوله:
{ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ }

[آل عمران: 177]. استبدلوه واختاروه، أي: يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث، للتبيين بمعنى " من "؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فبين بالحديث، والمراد بالحديث: الحديث المكروه، كما جاء في الحديث: " الحديث في المسجد يأكل الحسنات، كما تأكل البهيمة الحشيش "، أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي فيه اللهو. وقال مجاهد: يعني: شراء المغنيات والمغنيين، أي: يشتري ذات لهو، أو ذا لهو الحديث. وقال أبو أمامة: قال عليه الصلاة والسلام: " لا يحل تعليم المغنيات، ولا بيعهن، وأثمأتهنَّ حرام " وفي مثل هذا نزلت هذه الآية، ثم قال: " وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت ".

قلت: هذا مقيد بِشِعْرِ الهوى لأهل الهوى، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق، فلا يتوجه الحديث لهم، وسيأتي في الإشارة تحقيقه إن شاء الله. ثم قال أبو أمامة رضي الله عنه عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إن الله تعالى بعثني هدية ورحمة للعالمين، وأمرني ربي بمحو المعازف والمزامير والأوتان، والصلب وأمر الجاهلية، وحلف ربي بعزته لا يشرب عبد من عبدي جرعة خمر متعمداً إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة، مغفوراً له أو معذباً، ولا سقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك، لا يتركها عبد من مخافتني إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة " انظر الثعلبي.

ثم قال تعالى: { ليضل عن سبيل الله { أي: فعل ذلك ليضل هو عن طريق الله ودينه، أو ليضل غيره عنه، أو عن القرآن، { بغير علم { أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر.

{ ويتخذها } أي: السبيل { هُزُواً } وسخرية. فمن رفع: استأنف، ومن نصب، عطفها على (ليضل)، { أولئك لهم عذاب مهين } يُهَيِّئُهُمْ ويخزيهم، و " مَنْ " ، لإبهامه، يقع على الواحد والجمع، والمراد: النصر وَمِنْ تَبِعِهِ. وإذا تُتلى عليه آياتنا وَلَى مُسْتَكْبِرًا {؛ أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن، { كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا }؛ كأنه لم يسمعها، ولا دُكِرَتْ على سمعه. شَبَّهَ حاله بحال من لم يسمعها قط، { كَأَنَّ فِي أذْنَيْهِ وَقْرًا }؛ تَقَلًّا وصمماً، { فبشره بعذاب أليم }؛ أَحْيَرَهُ بأن العذاب يُوجعه لا محالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا في مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال في المحسنين: { أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون } ، قال في هؤلاء: { أولئك لهم عذاب مهين } ، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال، في مقابلة المحسنين بالهداية والفلاح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لهو الحديث هو كل ما يشغل عن الله، ويصد عن حضرة الله، كائناً ما كان، سواء كان غناء أو غيره، وإذا كان الغناء يهيج لذكر الله، ويحرك الروح إلى حضرة الله، كان حقاً، وإذا كان يحرك إلى الهوى النفساني كان باطلاً. والحاصل: أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة، بشروط الثلاثة: الزمان والمكان والإخوان. وقد ألف الغزالي تأليفاً في تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال في الإحياء، في جملة من احتج به الْمُحَرِّمُ للسمع: احتج بقوله تعالى: { ومن الناس من يشتري لهو الحديث } ، وقد قال ابن مسعود والنخعي والحسن: إنه الغناء. وأجاب ما حاصله: أنه إنما يحرم إذا كان استبدالاً بالدين، وليس كل غناء بدلاً عن الدين، مُشْتَرَىً به، ومضلاً عن سبيل الله، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل الله كان حراماً. كما حكى عن بعض المنافقين؛ أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا بسورة عبس، لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَهَمَّ عَمُرُ بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك، فلا يحرم.

وقال في القوت، في كتاب المحبة: ولم يزل الحجازيون، عندنا بمكة، يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات، التي أمر الله عز وجل عباده فيها بذكره، أيام التشريق، من وقت عطاء بن أبي رباح، إلى وقتنا هذا، ما أنكره عالم، وكان لعطاء جاريتان تُلَخَّنَانِ، فكان إخوانه يستمعون إليهما، ولم يزل أهل المدينة مواطنين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضي، له جوار يسمعون التلحين، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم، ويأمرهن بالإنشاد، وكان فاضلاً. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم، فقيل له: إنك تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازته وسمعه من هو خير مني. هـ.

وقال ابن ليون التجيبي في الإنالة: رُوي عن مصعب بن الزبير، قال حضرت مجلس مالك، فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال: ما أدري، إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبي جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع. قال التجيبي: وعن أنس؛ كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ نزل عليه جبريل، فقال: يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: أفياكم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم، يارسول الله، فقال: هات، هات، فأنشد البدوي يقول:

قَدْ لَسَعَتْ حَبِيَّةُ الْهَوَى كَيْدِي فَلَا طَيْبٌ لَهُ وَلَا رَاقِي
إِلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شَغِفْتُ بِهِ فَعِنْدَهُ رُفِيَّتِي وَتَرْبَا قِي
فتواجد عليه السلام، وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما خرجوا،
أوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية: ما أحسن لعبيكم يا رسول الله! فقال: " مَهْ، مَهْ،
يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، " ثم اقتسم رداءه من حضرهم
بأربعمائة قطعة. وذكر المقدسي هكذا، والسهروردي في عوارفه، وتكلم الناس في هذا
الحديث.

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه، وسئل عن تخلفه، فقال: كان في
جيراننا سماع. وقال الشبلي: السماع ظاهرة فتنة، وباطنه عبرة. فمن عرف الإشارة
حلَّ له سماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة. هـ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: { وإذا تُتلى عليه... } إلخ، هذا مثال لمن يقبل الوعظ؛ لقسوة قلبه وحُكم
المشيئة يُبعده، فلا يزيده كثرة الوعظ إلا نفورًا، فسماعه كلا سماع، ومعالجته عنى
وضياع، كما قال القائل:

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمُلُولَ؛ فَإِنَّمَا أَحْطُ بِأَفْلِكَ عَلَى الْمَاءِ أَحْرَقَا

@ { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ } * { خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ
حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

يقول الحق جل جلاله: { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم } ، قيل:
معكوس، أي: لهم نعيم الجنات، أو: لهم بساتين، أو: ديار النعيم. { خالدين فيها } : حال
من ضمير " لهم ". والعامل: الاستقرار. { وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا } أي: وعدهم ذلك وعدًا، وثبت
لهم حقًا مُهماً، مصدران مؤكدان، الأول لنفسه، والثاني لغيره، إذ قوله: { لهم جنات
النعيم }؛ في معنى: وعدهم الله جنات النعيم: { وحقا }؛ يدل على معنى الثبات
المفهوم من انجاز الوعد. { وهو العزيز } الغالب، الذي لا يُعَارِضُ في حكمه، فينفذ
وعده لا محالة. { الحكيم } الذي لا يفعل إلا ما استدعته حكمته.

الإشارة: إن الذين آمنوا في البواطن، وحققوا ذلك بالعمل الصالح في الظواهر، لهم
جنات المعارف معجلة، وجنات الزخارف مؤجلة، وعدًا حقًا وقولاً صدقًا، فما كَمَنَّ في
السرائر ظهر في شهادة الظواهر، وإلا كان دعوى ونفاقًا، والعيادُ بالله.

@ { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوِيهَا وَالْقِطَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } * { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

قلت: " بغير عمد ": يتعلق بحال محذوفه، أي: مُمَسَّكَةً أو مرفوعة بغير عمد، و(عمد): اسم جمع على المشهور، وقيل: جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها): إما استئنافية، لا محل لها، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله: { خلق السماوات } ورفعها { بغير عمَدٍ ترونها } ، الضمير: إما للسماوات، أي: خلقها، ظاهرة، ترونها، أو لعمد، أي: بغير عمد مرئية يل بعمد خفية، وهي إمساكها بقدرته تعالى. { وألقى في الأرض رواسي } أي: جبلاً ثوابت، كراهة { أن تميد بكم } أي: لئلا تضطرب بكم، { وبث } نشر { فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فانبثنا فيها من كل زوج كريم }؛ صنف من أصناف النبات، { كريم } حسن بهيج، أو كثير المنفعة. وكأنه استدلَّ بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، فهي مقررة لقوله: (العزير الحكيم).

ثم أمر بالتفكير في هذه المصنوعات؛ استدلالاً على توحيد بقلوه: { هذا خلق الله } أي: هذا الذي تُعابنون من جملة مخلوقاته، { فأروني ماذا خلق الذين من دونه } ، يعني: ألهتهم. بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق الله، فأروني ماذا خلق ألهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟ { بل الظالمون في ضلال مبين } ، أضرب عن تبكيتهم؛ إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة: خلق سموات الأرواح - وهو عالم الملكوت - مرفوعاً غنياً عن الاحتياج إلى شيء، وألقى في أرض النفوس - وهو عالم الأشباح - من العقول الراسخة، لئلا تميل إلى جهة الانحراف، إما إلى الحقيقة المحضة، أو الشريعة. ونشر في أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس، وأنبتنا فيها من علوم الحكمة والقدرة، من كل صنف بهيج قال القشيري: { وألقى في الأرض رواسي }؛ في الظاهر: الجبال، وفي الحقيقة: الأبدال، الذين هم أوتاد، بهم يقبهم، وبهم يصرف عن قريبتهم وقاصيتهم، { وأنزلنا من السماء ماء.. }؛ المطر من سماء الظاهر في رياض الحُصْرَة، ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوِّ والحُصْرَة. هذا خلق الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خلق الذين عبَدْتُم من دونه في أرضه وسمائه؟ هـ.

@ { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ إِلَهًا غَنِيٌّ حَمِيدٌ } * { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }

قلت: (يا بُنَيَّ)؛ فيه ثلاث قراءات؛ كسر الياء، وفتحها؛ مُشَدَّدَةً، وإسكانها. وقد تتبعنا توجيهاتها في كتابنا " الدرر النائرة فيه توجيه القراءات المتواترة ".

يقول الحق جل جلاله: { ولقد آتينا لقمان الحكمة } وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب، أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد أزر، وقيل: أخو شداد بن عاد، أعطى شداد القوة، وأعطى لقمان الحكمة، وعاش ألف سنة، وقيل: أكثر، وسيأتي. وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم. وكان يُفتي قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له في ذلك؟ فقال: ألا أكتفي إذا كُفيت. وقيل: كان خياطاً، وقيل: نجاراً، وقيل: راعياً.

وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً، والجمهور على أنه كان حكيماً فقط. وقد خُبر بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة، وهي الإصابة في القول والعمل. وقيل: تتلمذ لألف نبي وتلمذ له ألف نبي. قاله النسفي.

قال ابن عمر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة. كان قائماً فجاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت، فقال: إن خيرني ربي قبلت العافية، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فأني أعلم إن فعل ذلك بي عصمني وأعانني. قالت الملائكة بصوت ولا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ فقال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن يُعَن، فالبحري أن ينجو، وإن أخطأ؛ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً، خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة؛ تفتت الدنيا، ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطى الحكمة، فانتبه وتكلم بها " هـ.

قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود، عظيم الشفتين، مُشقق القدمين. زاد في اللباب: وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل: لم يزل لقمان، ومن زمن داود مظهراً للحكمة والزهد، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمَّر عُمر سبعة أنسر، فكان آخر نسوره " لبذ ". روي أنه أخذ نسرأ صغيراً فربَّاه، وكان يصرفه في حوائجه، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات، قم أخذ نسرأ آخر، فعاش خمسمائة سنة، ثم أخذ آخر، فعاش مثل ذلك، إلى السابع، عاش خمسمائة سنة، واسمه لبذ، فقال له لقمان يوماً: يا لبذ انهض إلى كذا، فأراد النهوض فلم يستطع، وإذا بوتر لقمان قد اختلج، وكان لم يَألم قط، فنادى بأهله وعشيرته، وعلم أن أجله قد قرب، وقال: إن أجلي قد حضر بموت هذا النسر، كما أعلمني ربي، فإذا مت فلا تدفوني في الكهوف والمقابر، كما [تدفنون] الجبابرة، ولكن ادفوني في ضريح الارض، فدفنوه كما أوصاهم، فقال ابن ثعلبة: رَأَيْتُ الْفَتَى يَنْسَى مِنَ الْمَوْتِ حَنْفَهُ حَذُوراً لِرَيْبِ الدَّهْرِ، وَالذَّهْرُ أَكْلُهُ قَلْوُ عَاشٍ مَا عَاشَتْ بِلِقْمَانَ أَنْسُرٌ لَصَرْفِ الْمَتَايَا، بَعْدَ ذَلِكَ، حَافِلُهُ

قال البيضاوي: والحكمة، في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية؛ باقتباس العلوم النظرية واكتساب المَلَكَةِ التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، فقال: نِعَمَ لبوسُ الحرب أنت، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، وأن داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يَدَيَّ غيري. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة وبأتيه بأطيب مُصْعَتَيْن منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمر بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضاً، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب شيء؛ إذا طابا، وأخبث شيء؛ إذا خبثا. والذي عند الثعلبي: أن الأمر له بإتيان المضغتين سيده، لا داود عليه السلام قيل له: يَم نلت هذه الحكم، وقد كنت راعياً؟ فقال بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني. هـ.

قال صلى الله عليه وسلم: " أول ما رؤى من حكمة لقمان: أن مولاه أطال الجلوس في المخرج، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويناً، وقم هويناً " وروي أنه قَدِمَ من سفر، فقيل

له: مات أبوك، فقال: الحمد لله، ملكتُ أمري، فقيل له: ماتت امرأتك، فقال: الحمد لله؛ جُدَّدَ فراشي، فقيل له: ماتت أختك، فقال: سُتِرت عورتِي، فقيل له: مات أخوك، فقال: انقطع ظهري. هـ.

و " أَنْ " - في قوله: { أن أشكر } مفسرة؛ لأنَّ إيتاء الحكمة في معنى القول، أي: وقلنا له اشكر الله على ما أعطاك من الحكمة، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل: لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حليماً في قوله وفعله ومعاشرته وصُحبتِه.

وقال الجنيد: الشكر: ألا يُعصى الله بنعمه. وقال أيضاً: ألا ترى مع الله شريكاً في نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب: المعرفة، وشكر اللسان: الحمد، وشكر الأركان: الطاعة. ورؤية العجز في الكل دليل القبول. { ومن يشكرُ فإنما يشكر لنفسه }؛ لأن منفعته تعود عليه، لأنه يريد المزيد، { ومن كفر فإنَّ الله غنيٌّ }؛ غير محتاج إلى شكر أحد، { حميد }؛ حقيق بأن يُحمد، وإن لم يَحْمَدْهُ أحد. { و } اذكر { إذ قال لقمان لابنه }، واسمه: أنعم، أو أشكم، أو ناران، { وهو يعطهُ يا بُنَيَّ }، تصغير ابن، لا تُشرك بالله؛ { إن الشرك لظلم عظيم }؛ لأنه تسوية بين مَنْ لا نِعْمَةَ إلا منه، ومن لا نعمة منه أصلاً. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال القشيري: الحكمة: الإصابة في الفعل والعقد والنطق. ويقال: الحكمة: متابعة الطريق، مِنْ حَيْثُ توفيق الحق، لا من حيث همة النفس. ويقال: الحكمة: ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال: هي معرفةٌ قدَّرَ نفسك حتى لا تمدَّ رجلِك خارجاً عن كسائك. ويقال: ألا تستعصي على مَنْ تعلم أنك لا تقاومه. وحقيقة الشكر: انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال: الشكرُ: تَحَقُّقُ بعجزك عن شكره. ويقال: ما به يَحْضُلُ كَمَالُ استلذازِ النعمة. ويقال: هو فضلهُ تظهر علي اللسان من امتلاء القلب من السرور، فينطق بمدح المشكور. ويقال: الشكر: نعتٌ كُلُّ غنيٍّ، كما أن الكفران وصف كلُّ لئيم. ويقال: الشكر: قرعُ باب الزيادة. هـ. قلت: والأحسن: أنه فرح القلب بإقبال المنعم، فيسري ذلك في الجوارح.

ثم قال في قوله: { لا تُشرك بالله }؛ الشركُ على ضربين: جَلِيٍّ وخَفِيٍّ، فالجَلِيُّ؛ عبادة الأصنام، والخَفِيُّ؛ حَسْبَان شَيْءٍ من الحدَثان من الأنام - أي: أن تظن شيئاً مما يحدث في الوجود أنه من الأنام - ويقال: الشرك: إثباتُ عَيْنٍ مع شهود العين، ويقال: الشرك ظلمٌ على القلب، والمعاصي ظلمٌ على النفس، فظلم النفس مُعَرَّضٌ للغفران، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.

@ { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلِيًّا وَهْنٌ وَفِصَالُهُ فِي عَمَامِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } * { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

قلت: الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه. (وَهُنَا): جال من (أمه)، أي: حملته حال كونها دَاتٌ وَهْنٍ، أو من الضمير المنصوب، أي: حملته نُطْقَةً، ثم علقه... إلخ، أو مصدر، أي: تهن وهناً.

يقول الحق جل جلاله: { ووصينا للإنسان بوالديه }؛ أن يَبْرَهُمَا وَيُطِيعَهُمَا، ثم ذكر الحامل على البر فقال: { حَمَلْتُهُ أُمَّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ } أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل، كلما ازدادَّ وعظم، ازدادت ثقلاً. { وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ } أي: فطامه لتمام عامين. وهذا أيضاً مما يهيج الولد على بر والديه، فيتذكر مَرْقَدَهُ فِي بطن أمه، وتعبها معه في مدة حَمَلَةٍ، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه، ثم ما عالجتة في أيام رضاعه؛ من تربيته، وغسل ثيابه، وسهر الليل في بكائه، إلى غير ذلك.

{ أن اشكر لي ولوالديك } ، هو تفسير لَوْصِيَّتَا، أو على حذف الجار، أي: وصيناه بشكرنا وبشكر والديه. وقوله: { حملته أمه.. } إلخ: اعتراض بين المفسر والمفسر، لأنه لَمَّا وصى بالوالدين، ذكر ما تُكابده وتُعابنه من المشاق في حمله وفضاله، هذه المدة الطويلة؛ تذكيراً لحقها، مفرداً.

وعن ابن عُيَيْبَةَ: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين، في أدبار الصلوات الخمس، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيري: والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال: فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير، وشكرُ الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى: { إِلَيَّ الْمَصِيرُ } فأحاسبك على شكرك، أو كفرك. { وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } ، أراد بنفي العلم به نفيه من أصله، أي: أن تشرك بي ما ليس بشيء. أو: ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراف مع الله، بل تقليداً لهما، { فَلَا تُطِيعُهُمَا } في ذلك الشرك. { وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } أي: صِحَابًا مَعْرُوفًا يرتضيه الشرع ويفتضيه الكرم، وهو الخُلُقُ الجميل، بِحِلْمٍ، واحتفالٍ، وبر، وصلة. وقد تقدم تفسيره في الإسراء.

{ واتبع سبيل من أناب إلي } أي: اتبع طريق مَنْ رَجَعَ إِلَيَّ بالتوحيد والإخلاص، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، ولا تتبع سبيلهما، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهم في الدنيا، وقال ابن عطاء: اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتي. هـ. { ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ } أي: مرجعك ومرجعهما، { فَأَتَّبِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }؛ فأجازيك على إيمانك وَبِرِّكَ، وأجازيهما على كفرهما. وَأَعْتَرَضَ بِهِاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، على سبيل الاستطراد؛ تأكيداً لِمَا فِي وصية لقمان من النهي عن الشرك، يعني: إنما وصيناه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعهما في الشرك، وإن جاهدا كل الجهد؛ لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، وأنه مضت لأمه ثلاث ليالٍ لم تطعم فيها شيئاً، فشكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت، وقيل: من أناب: أبو بكر؛ لأن سعداً أسلم بدعوته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: بر الوالدين واجب، لاسيما في حق الخصوص، فيطيعهما في كل شيء، إلا إذا منعاه من صحة شيخ التربية، الذي يُظهر من الشرك الخفي، الذي لا ينجو منه أحد، فإن الآية تشمل بطريق العموم والإشارة. أي: وإن جاهدك على أن تشرك بي متابعة هواك وحظوظك ومحبتهم، فلا تُطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليّ، هو شيخ التربية في علم الإشارة. وقد تقدم قول الجنيد: أمرني أبي بشيء، وأمرني السري بشيء، فقدمت أمر السري، فرأيت سراً كبيراً. وكان شيخ شيوخنا الولي الشهير، سيدي يوسف الفاسي، يأتيه شباب من أولاد كبراء فاس، وكان أبوه ينهاه ويذره عن صحبته، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه، فكان الشيخ يقول للشاب: أطلع أباك في كل شيء إلا في الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول: ائتوني ولو بسخط الوالدين، إذ لا يضره ذلك، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسي، في شرح عقائد الجزائري، ما نصه: وحاصل الأمر في النفس: أنها شبيهة، في حالها، بحال الكافر الحزبي، الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هي العليا، وكلمة التوحيد السفلى، وكذلك النفس؛ تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة، المُشغِلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا، وعن القيام بوظائف تكاليفه، على الوجه الذي أمر به، هي العليا، النافذ أمرها ونهيها في مُدُن الأجسام وما تعلق بها، بعد أن نزلت ساحة الأبدان، واتصلت اتصالاً عظيماً لا انفكاك له إلا بالموت، فوجب، لذلك، على كل مؤمن يُعظم حرمان الله تعالى أن ينهض كل النهوض، بغاية قواه العلمية والعملية، لجهادها وقتالها. وفي مثل هذا القتال الذي نزل العدو فيه بساحة الأبدان، وهو فرض عين على كل مؤمن، يسقط فيه استئذان الأبوبن وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد، وحجابها له عن ربه، كعدو يجب جهاده ولو خالف الوالدين، وهو كذلك؛ إذ طاعة الوالدين لا تكون في ترك فرض، ولا في ارتكاب معصية، ومن جملة المعاصي، عند الخواص، رؤية النفس والوقوف معها، وفي ذلك يقول الشاعر:

فَقَلْتُ: وَمَا ذَنْبِي؟ فَقَالَتْ: مُجِيبَةً : وُجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ
وتطهير النفس فرض عين، ولا طاعة للوالدين في فرض العين. وقوله تعالى:
(وصاحبهما في الدنيا معروفاً) قال الورتجبي: المعروف، ها هنا، أن تُعرفهما مكان
الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهم بالله. { واتبع سبيل من أناب إليّ } ، نهاه عن
متابعة المخلطين، وحثه على متابعة المنيبين. هـ. وبالله التوفيق.

@ { يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْهَا حَبَّةٌ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي
الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } * { يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّا مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } * { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } * { وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }

قلت: الضمير في (إنها): للقصة، ومن قرأ " مثقال " بالرفع؛ ففاعلُ كَانَ التامة، ومن
قرأ بالنصب؛ فخيرها، والضمير: للخطيئة أو الهيئة. وأنت " المثقال "؛ لإضافته إلى
الحنة.

يقول الحق جل جلاله: وقال لقمان لابنه، حين قال له: يا أبت: إن عَمِلْتُ بِالْخَطِيئَةِ، حين لا يراني أحد، كيف يعلمها الله؟ فقال: { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا } ، أي: القصة أو الخطيئة { إن تك مثقال حبة من خَزْدَلٍ } أي: إن تك المعصية؛ في الصغر والحقارة، مثال حَبَّةٍ من خردل، أو: إن تقع مثقال حَبَّةٍ من المعاصي { فتكن في صخرة } ، أي: فتكن، مع صغرها، في أخفى مكان، أو في جبل. وقال ابن عباس: هي صخرة تحت الأرضين السبع، وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدي: خلق الله تعالى الأرض على حوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر صَقَاةٍ - أي: صخرة - والصفة على ظهر مَلَكٍ، والمَلَكُ على صَخْرَةٍ. وهي الصخرة التي ذكر لقمان. ليست في السماء ولا في الأرض، والصخرة على الريح. هـ.

أي: إن تقع المعصية في أخفى مكان { يأت بها الله } يوم القيامة؛ فيحاسب عليها عاملها. { إن الله لطيفٌ } : يتوصل علمه إلى كل خفي، { خير } : عالم بكنهه، أو: لطيف باستخراجها خير بمستقرها.

{ يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ } : أتقنها، وحافظ عليها؛ تكميلاً لنفسك، { وأمر بالمعروف وآنه عن المنكر }؛ تكميلاً لغيرك، { واصبر على ما أصابك } في ذات الله تعالى، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؛ فإن فعل ذلك تعرض للأذى، أو: على ما أصابك من الشدائد والمحن؛ فإنها تورث المنح والمنن. { إن ذلك }؛ الذي وصيتك به، { من عزم الأمور } أي: مما عزمه الله من الأمور، أي: قَطَعَهُ قِطْعًا إيجابًا وإلزامًا، أي: أمر به أمرًا حتمًا. وهو مصدر بمعنى المفعول، أي: من معزومات الأمور، أي: مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورًا بها في سائر الأمم.

{ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } أي: ثمله عنهم، ولا تولهم صَفْحَةَ خَدِّكَ، كما يفعله المتكبرون. والتصعير: داء يصيب العير، فيلوي عُقْقَهُ منه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك؛ تواضعًا، ولا تولهم شق وجهك وصفحته؛ { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا }؛ خِيَلًا؛ متبخترًا، فهو مصدر في موضع الحال، أي: مَرِحًا، أو تمرح مَرِحًا، أو: لأجل المرح، { إن الله لا يحب كل مختال فخور } ، علة النهي. والمختال هو المَرِحُ الذي يمشي خيلاء، والفخور هو الْمُصَعَّرُ خَدَّهُ؛ تكبرًا. وتأخير الفخور، مع تقدمه؛ لرؤوس الآي.

{ واقصد في مشيك }؛ توسط فيه بين الدبيب والإسراع، فلا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثوب الشطارين، قال عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ سُرْعَةَ الْمَشِيِّ تُدْهِبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ " وأما قول عائشة - رضي الله عنها: (كان إذا مَشَى أَسْرَعَ)؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب التماوت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا ينهون عن حَبِّ اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: { واقصد في مشيك } : انظر موضع قدميك، أو: اقصد: تَوَسَّطْ بين العلو والتقصير.

{ واغضض من صوتك }؛ وانقص منه، أي: اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت، فنهى الله عن خُلُقِ الجاهلية، فذكره لوصية لقمان، وأنه لو كان شيء يُهَابُ، لرفع صوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل سواء. وهو قوله: { إن أنكَّرَ الأصواتِ }؛

أوحشها وأقبحها { لصوت الحمير }؛ لأن أوله زفير، وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثوري: صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار، فإنه يصيح لرؤية الشيطان، وقد سماه الله منكرًا، وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير؛ تنبيه على أن رفع الصوت في غاية البشاعة، ويؤيده: ما روي أنه: عليه الصلاة والسلام - كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم: رفع الصوت محمود في مواطن؛ منها: الأذان والتلبية. وقال في الحاشية الفاسية: بل ينبغي الاقتصاد في ذلك، كما قال عمر بن عبد العزيز: أَدْنُ أَذَانًا سَتِيًّا، وَإِلَّا اعْتَرَلْنَا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام: " اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِن كُمْ لَا تَدْعُونَ أَصْمًا وَلَا غَائِبًا " وإنما وُجِدَ صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توجيهه.

الإشارة: قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية، تدل على كمال صاحبها، منها: استحضار مراقبة الحق ومشاهدته، في السر والعلانية، في الجلاء والخفاء. وهو قوله: { يا بُنَيَّ إِنهَا تَلَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ... } إلخ. ومنها: القيام بوظائف العبودية، بدينية ولسانية، وهو قوله: { يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ... } إلخ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر عبادات اللسان، ومنها الصبر على النوائب، سواء كانت من جهة الخلق، أو من قهرية الحق، وهو ركن في الطريق. وتقدم تفصيله في آخر النحل. ومنها: التواضع والليونة، وهما مصيدة الشرف، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره. وهو قوله: { وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا }. ومنها: السكينة والوقار والرزانة، وهي نتيجة عمارة القلب بالهبة والإجلال. وهو قوله: { واقصد في مشيك }. ومنها: خفض الصوت في سائر الكلام، وهو من علامة وجدان هبة الحضرة، والقرب من الحق، قال تعالى: { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تُسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } [طه: 108]، وهو من أكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيري: قوله تعالى: { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ... } ، الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن تمنع نفسك عما تنهى عنه، واشتغالك، واتصاف نفسك، بما تأمر به غيرك، ومن لا حُكْمَ له على نفسه؛ لا حُكْمَ له على غيره. والمعروف الذي يجب الأمر به: ما يُوصَلُّ العبدُ إلى مولاه، والمنكر الذي يجب النهي عنه: ما يشغل العبد عن الله. ثم قال: وقوله تعالى: { واصبر على ما أصابك }؛ تنبيه على أن مَنْ قام لله بحقٍ امْتَحَنَ في الله، فسبيله أن يصبر في الله، فإن من صبر لله لم يخسر على الله.

ثم قال: قوله تعالى: { وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ }؛ لا تتكبر عليهم، وطالعهم من حيث النسبة، وتحقق بأنك بمشهد من مولاك. ومن عَلِمَ أن مولاه ينظر إليه؛ لا يتكبر ولا يتناول، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى: { واقصد في مشيك .. } الآية، أي: كن فانيًا عن شواهدك، مُصْطَلِمًا عن صَوْلَتِكَ، مأخوذًا عن حَوْلِكَ وقوتك، متشبهًا بما استولى عليك من كشوفات سِرِّكَ. وانظر من الذي يسمع صوتك حين تستفيق من حُمَارِ غفلتك، { إن أنكر الأصوات لصوت الحمير }؛ في الإشارة: أنه الذي يتكلم بلسان المعرفة بغير

إذن من الحق. وقالوا: هو الصوفي يتكلم قبل أوامه. هـ. أي يتكلم على الناس، قبل أن يأذن له شيخه في التذكير. وبالله التوفيق.

@ { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ * } وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ }

يقول الحق جل جلاله: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، وغير ذلك، { وما في الأرض } ، يعني: البحار والأنهار، والأشجار، والثمار، والدواب، والمعادن، وغير ذلك، { وَأَسْبَغَ } : أتم { عليكم نِعْمَهُ } ، بالجمع، والإفراد؛ إرادة الجنس. والنعمة: ما يسر به الإنسان ويتلذذ به، حال كونها { ظاهرة } ؛ ما تدرك بالحس، { وباطنة } ؛ ما تدرك بالعلم والوجدان. فقول: الظاهرة. السمع، والبصر، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. أو: الظاهرة: الصحة والعافية، والكفاية؛ والباطنة: الإيمان، واليقين، والعلم والمعرفة بالله، وسيأتي في الإشارة بقيتها.

رُوي أن موسى عليه السلام قال: دُلني على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتي عليهم: النَّفْسُ. هـ. قلت: إذ بمجاهدتها تحصل السعادة العظمى، ولا وصول إليه إلا بمجاهدتها والغيبة عنها. وفي هذا المعنى كان شيخ شيخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ ما ربحتنا إلا منها. هـ. وقيل: الظاهرة: تحسين الخلق، والباطنة: حُسْنُ الخلق. وقال ابن عباس: الظاهرة: ما سوى من خلقك، والباطنة: ما ستر من عيوبك.

{ ومن الناس من يُجادل في الله } بعد هذه النعم المتواترة، أي: في توحيدهِ وصفاته ودينه، { بغير علم } مستفاد من دليل ولا برهان، { ولا هُدًى } أي: هداية رسول، { ولا كتاب منير } أنزله الله، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت في النصر بن الحارث. وقد تقدمت في الحج.

{ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله } على رسوله؛ من التوحيد، والشرائع، { قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا } من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد في الأصول. قاله البيضاوي قلت: والمشهور أن إيمان المقلد صحيح. وأما من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ينظر، فهو مؤمن، اتفاقاً. قال تعالى: { أَوْ لَوْ } ؛ أيتبعونهم، ولو { كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير } ، يحتمل أن يكون الضمير لهم، أي: أيقلدونهم، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب، أو: لأبائهم، أي: أيتبعون آبائهم، ولو كان الشيطان في زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة: الأكوان كلها حُلِقَتْ لك أيها الإنسان، وأنت حُلِقْتَ للحضرة، فاعرف قَدْرَكَ، ولا تتعدَّ طَوْرَكَ، واشكر النعم لتي أسبغ عليك؛ ظاهرة وباطنة. الظاهرة: استقامة الطواهر في عمل الشرائع، والباطنة: تصفية البواطن؛ لتتهدى لأنوار الحقائق، أو: الظاهرة: المنن، والباطنة: المحن. قال القشيري: قد تكلموا في الظاهرة وباطنة وأكثروا.

فالظاهرة: وجودُ النعمة، والباطنة: شهوؤُ المنعم، أو: الظاهرة: الدنيوية، والباطنة: الدينية. أو: الخلق والخلق، أو: نفس بلا رلة، وقلب بلا غفلة، أو: عطاء ورضى. أو: الظاهرة: في الأموال ونمائها، والباطنة: في الأحوال وصفائها، أو: الظاهرة: النعمة، والباطنة: العصمة، أو: الظاهرة: توفيقُ الطاعات، والباطنة: قبولها، أو: الظاهرة: صحبة العارفين، والباطنة: حفظُ حُرْمَتِهِم وتَعْظِيمِهِم.
أو: الظاهرة: الزهدُ في الدنيا، والباطنة: الاكتفاءُ بالله من الدنيا والعُقبى. أو: الظاهرة: الزهد، والباطنة: الوَجْدُ. أو: الظاهرة: توفيقُ المجاهدة، والباطنة: تحقيقُ المشاهدة، أو: الظاهرة: وظائف النفس، والباطنة: لطائف القلب، أو: الظاهرة: اشتغالك بنفسك عن الخلق، والباطنة: اشتغالك برَبِّكَ عن نفسك، أو: الظاهرة: طلبُهُ، والباطنة: وجودُهُ، أو: الظاهرة: أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، والباطنة: أَنْ تَبْقَى مَعَهُ. هـ. ببعض المعنى.

ثم قال القشيري: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... } الآية: لم يتخطوا أمثالهم، ولم يهتدوا إلى تحوُّل أحوالهم. هـ. يعني: قلدوا أسلافكم في الإقامة مع الرسوم والأشكال، والانهماك في الحظوظ، فعاقبهم ذلك عن السير والوصول. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

@ { وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } * { وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِنْ تَبَا مَرَجُعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } * { تُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ تَضَاطَّرَّهُمْ إِلَيْنَا عَذَابٌ غَلِيظٌ }

قلت: قال في الحاشية: لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكَافِرِ الْمَجَادِلِ ذَكَرَ حَالَ الْمُسْلِمِ، وَعَدَّاهُ هُنَا بِإِلَى، وَفِي قَوْلِهِ:

{ تَبَا مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ }

[البقرة: 112]، باللام؛ لأنه لَمَّا كَانَ الْمَجَادِلُ غَيْرَ مُعِينٍ، وَلَمْ يَخْصُ لَهُ وَاحِدًا بَعَيْنَهُ، عَقَّبَهُ بِحَالٍ مِنْ حَصْلِ مِنْهُ مَطْلُوقِ الْاسْتِسْلَامِ، وَمَدَّحُهُ يَتَنَاوَلُ مَدْحَ مَنْ اتَّصَفَ بِأَخْصِ الْاسْتِسْلَامِ. أو: فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَتَى بِهِ خَاصًّا، لَمَّا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ بِقَوْلِهِ: { فَلَهُ أَجْرُهُ... } { إِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا إِلَّا بَعْضَهُ، فَإِنَّ اللَّامَ تَقْتَضِي الْاِخْتِصَاصَ وَالْقَصْدَ إِلَى الشَّيْءِ، وَ" إِلَى " لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ. انظر ابن عرفة.

وقال النسفي: عدَّاه هنا بإلى وهناك باللام؛ لأن معناه، مع اللام: أنه جعل وجهه - وهو ذاته ونفسه - سالماً لله، أي: خالصاً له، ومعناه، مع " إلى " : أنه سلم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل، إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أي: فهو أبلغ من اللام، ومثله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: { وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ } أي: ينقد إليه بكليته، وينقطع إليه بجميع شراشره، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكليته عليه، { وهو محسن } في أعماله. قال القشيري: من أسلم نفسه، وأخلص في الله قَصْدَهُ، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص، فلذلك قال: { وهو محسن }. قاله المحشي. وقلت: وفيه نظر؛ فإن الحق تعالى إنما عبَّرَ بالإسلام لا بالاستسلام، وإنما المعنى: أسلم وجهه في الباطن، وهو محسن بالعمل في الظاهر، { فقد استمسك بالعروة الوثقى } ،

أي: تعلق بأوثق ما يتعلق به؛ فالعروة: ما يهتمسك به. والوثقى: تأنيث الأوثق. مَثَّلَ حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من جبل متين، مأمون انقطاعه. قال الهروي: أي: تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهري: أصله: من عروة الكلاء، وهو: ماله أصل ثابت في الأرض، من الشئ وغيره من الشجر المستأصل في الأرض. ضُرِبَتْ مثلاً لكل ما يُعْتَصَمُ به ويُجاء إليه. هـ.

وهو إشارة لكون التوحيد سبباً وأصلاً، والآخذُ به، مُتصلاً بالله، لا يخشى انقطاعاً ولا هلاكاً، بخلاف الشرك، فإنه على الضد، كما يرشد إليه قوله تعالى:
{ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ... }
[إبراهيم: 26] الآية. وقوله تعالى:
{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ }
[الحج: 31] الآية.

{ وإلى الله عاقبة الامور } أي: صائرة إليه فيجازى عليها.

{ ومن كَفَرَ }؛ ولم يسلم وجهه لله، { فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ }؛ فلا يهملك شأنه، فَسَيَقْدِمُ علينا ونجازه، { إنا مرجعهم فننبئهم بما عملوا } ، أي: فنعاقبهم على أعمالهم، { إن الله عليم بذات الصور } ، أي: عالم بحقائق الصدور، وما فيها، فيجازى على حسبها، فضلاً عما في الظواهر، { ثم نمتهم قليلاً } ، أي: نمتهم زماناً قليلاً بدنياهم، { ثم نضطرهم } ، نلجئهم { إلى عذاب غليظ } شديد. شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إليه، بأضطرار المضطر إلى الشيء. والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة، والمراد: الشدة والثقل على المُعَذَّبِ. عائداً بالله من موجبات غضبه.

الإشارة: ومن يَتَّقِدْ بكليته إلى مولاه، وغاب عن كل ما سواه، وهو من أهل مقام الإحسان، بأن أشرقت عليه شمس العيان، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبداً. ومن أمارات الانقياد: ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. { وإلى الله عاقبة الأمور }؛ فيوصل من يشاء برحمته، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه؛ فلا يحزنك، أيها العارف، فعله، إنا إياهم، وعلينا حسابهم، فَسَتُمَتَّعُهُمْ بحظوظهم، والوقوف مع عوائدهم، زماناً قليلاً، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ بالله.

@ { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } * { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيِّ الْحَمِيدُ }

يقول الحق جل جلاله: { ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله }؛ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، فيضطرون إلى الإقرار بذلك، { قل الحمد لله } على إلزامهم وإجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدتهم من شرك الأصنام، { بل أكثرهم لا يعلمون } إن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه، ولم ينتبهوا، فالإضراب

عن كلام محذوف، أي: فيجب عليهم أن يعبدوا الله وحده، لَمَّا اعترفوا، ولكنهم لا يعلمون، { لله ما في السماوات والأرض } ملكاً وعبداً، { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } ، أي: الغني عن حمد الحامدين، المستحق للحمد وإن لم يحمده.

الإشارة: قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول في مقام الحيرة والاستدلال، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها، فمن وَجَدَتْ عارفاً كاملاً سلك بها الطريق، حتى أوقعها على عين التحقيق، فأشرفت على البحر الزاخر، فغرقت في بحر الذات وتيار الصفات، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد لله أَنْ وَجَدَتْ من يعرفك بالله، وأكثر الخلق حائدون عن العلم بالله.

@ { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا تَفِدَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } * { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }

قلت: (ولو أنما في الأرض) مذهب الكوفيين وجماعة: أن ما بعد " لو " فاعل بفعل محذوف، أي: ولو ثبت كون ما في الأرض.. إلخ. ومذهب سيبويه: أنه مبتدأ، أي: ولو كون ما في الأرض واقع، و(البحر): مبتدأ، و(يمده): خبره، أي: يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعة أبحر): مبتدأ وخبر. وحذف التمييز، أي: (مداداً)، يدل عليه (يمده)، أو (سبعة): فاعل (يمده)، أي: يصب فيه سبعة أبحر، والجملة: حال، أي: ولو أن الأشجار أقلام، في حال كون البحر ممدوداً، ما نفذت... إلخ. وجملة (يمده): خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم " إن " ، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله: { ولو أن ما في الأرض من شجرة { من الأشجار } أقلام { ، والبحر يمد تلك الأقلام، يصب في ذلك البحر { سبعة أبحر } ، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات الله الدالة على عظمته وكمالاته، { ما تَفِدَّتْ } كلماته، ونفذت الأقلام، وجفت تلك الأبحر، وهذا كقوله:

{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي } [الكهف: 109] مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر، يقال: مد الدواء وأمدها: جعل فيها مداداً، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواء، والأبحر السبعة مدادها، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر، قبل ان تنفذ كلماته تعالى؛ لأنها تابعة لعلمه، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحدَّ الشجرة؛ لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها؛ شجرة شجرة، حتى ما يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا وقد بُرِيت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهي من حيز جمع القلة، على الكلم، الذي هو جمع الكثرة؛ لأن المعنى: أن كلماته لا يفي بها الأقلام؛ فكيف بكلامه الكثير؟.

{ إن الله عزيزٌ } لا يُعجزه شيء، { حكيم } لا يخرج عن علمه وحكمته شيء، فلا تنفذ كلماته وحكمته. والآية جواب اليهود، سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن قلنا: الآية مدنية، أو: أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله: { وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء:85]، فقالوا: هل عنيتنا أم قومك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " كَلَّا قد عنيت " فقالوا: أليس فيما قد أوتيت أُنَّا قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " هي في علم الله قليل " ، فأنزل الله: { ولو أنما... } إلخ.

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه؛ ذكر شأن قدرته، فقال: { ما خلُقكم ولا بعثكم إلا كنُفُسٍ واحدةٍ } ، أي: إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. فحذف، للعلم به، أي: القليل والكثير في قدرة الله تعالى سواء، فلا يشغله شأن عن شأن، وقدرته عامة التعلق، تُنفذُ أسرع من لمح البصر. قال الغزالي في الإحياء: ومن غريب حِكَم الآخرة أن الرجل يُدعى به إلى الله تعالى، فيحاسب ويؤبخ، ويُوزن له حسناته وسيئاته، وهو في ذلك كله يظن أن الله لم يحاسب إلا هو، ولعل آلاف آلاف ألف مثله في لحظة واحدة. وكل منهم يظن ظنه، لا يرى بعضهم بعضاً، ولا يسمعه، وهو قوله تعالى: { ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنُفُسٍ واحدةٍ } . هـ.

{ إن الله سميع } لقول من يُنكر البعث من المشركين، { بصيرٌ } بأعمالهم، فيجازيهم.

الإشارة: أوصاف الباري سبحانه كلها كاملة، غير محصورة ولا متناهية؛ من علم، وقدرة، وإرادة، وكلام، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية، وقد يمد الحقُّ عبده بصفة من صفاته التي لا تتناهى، فإذا أمده بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول، لا يقدر على إمساكه، فلو بقي يتكلم عمره كله ما نفذ كلامه، حتى يُسكته الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه، حين يتكلم عليهم: إني لأستفيد من نفسي كما تستفيدون أنتم مني، وذلك حين الفيض الإلهي. وإذا أمده بصفة القدرة، قدر على كل شيء، وإذا أمده بصفة السمع؛ سمع كل شيء، وإذا أمده بصفة البصر، أبصر كل موجود... وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة في العبد من حيث معناه، احتجبت بظهور أضدادها؛ صوتاً لسر الربوبية. والله تعالى أعلم.

@ { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَيَسْخَرُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } * { ذَلِكَ بَإِنَّ إِلَهَهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ التَّاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } * { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } * { وَإِذَا عَشِيَهِمْ مَّوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ }

يقول الحق جل جلاله: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ }؛ يُدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، إذا أقبل الليل، { وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ }؛ يُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل، إذا أقبل النهار. أو: بإدخال جزء أحدهما في الآخر؛ بزيادة الليل أو النهار. { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } لمنافع العباد، { كُلٌّ } ، أي: كل واحد من الشمس والقمر { يَجْرِي } في فلكه، ويقطعه، { إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى }؛ إلى يوم القيامة: أو: إلى وقت معلوم

للسمسم، وهو تمام السنة، والقمر إلى آخر الشهر. { وإن الله بما تعملون خبير }؛ عالم بكنهه، لا يخفى عليه شيء. فدل، بتعاقب الليل والنهار، أو بزيادتهما ونقصانهما، وَجَزِي النيرين في فلكهما، على تقدير وحساب معلوم، وبإحاطته جميع أعمال الخلق، على عظيم قدرته، وكمال علمه وحكمته.

{ ذلك } شاهد { بأن الله هو الحق } ، وما سواه باطل، { وأن ما تدعون من دونه الباطل }؛ المعدوم في حد ذاته، لا حقيقة لوجوده. أو: ذلك الذي وصف بما وصف به، من عجائب قدرته وباهر حكمته، التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية، وأن مَنْ دونه باطل ألوهيته، { وأن الله هو العلي الكبير } ، أي: العلي الشأن، الكبير السلطان.

{ ألم تر أن الفلكَ }؛ السفن { تجري في البحر بنعمة الله } بإحسانه ورحمته، أو: بالريح، لأن الريح من نعم الله. أو: ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع، فالباء، حينئذٍ، للأرزاق، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وكمال حكمته، وشمول إنعامه. { ليرىكم من آياته }؛ من عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموه، { إن في ذلك لآياتٍ } دالة على وحدانيته وكمال صفاته؛ { لكل صبارٍ } في بلائه، { شكورٍ } لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان، نصف شكر ونصب صبر، فلا يَغْتَبِرُ بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

{ وإذا غشيهم } ، أي: الكفار، أي: علاهم وغطاهم { موجٌ كالظلل } ، أي: كشيء يظل؛ من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل؛ جمع ظلة، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك؛ { دَعَوْا الله مخلصين له الدين } ، لا يدعون معه غيره، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. { فلما نجاهم إلى البر فمنهم مُقْتَصِدٌ }؛ مقيم على الطريق القصد، باق على الإيمان، الذي هو التوحيد، الذي كان منه في حال الشدة، لم يعد إلى الكفر، أو: متوسط في الظلم والكفر، انزجر بعض الانزجار. ولم يَعْلُ في الكفر والعدوان. أو مُقْتَصِدٌ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني: أن ذلك الإخلاص لحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط، إلا النادر، { وما يجحد بآياتنا } أي: بحقيقتها { إلا كل ختار }؛ غدار.

والختار: أقبح الغدر، { كفورٍ } لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة؛ لفظاً ومعنى، فَخَتَّارٌ: مقابل صَبَّارٍ، وكفور: مقابل شكور؛ لأن من غدر لم يصبر، ومن كفر لم يشكر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ألم تر أن الله يُولج ليل القبض في نهار البسط، ونهار البسط في ليل القبض، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار، فإذا تأدب مع كل واحد منهما؛ زاد بهما معاً، وإلا نقص بهما، أو بأحدهما. فآداب القبض: الصبر والرضا، والسكون تحت مجاري الأقدار. وآداب البسط: الحمد، والشكر، والإمساك عن الفضول في كل شيء. وسخر شمس العيان وقمر الإيمان، كل يجري إلى أجل مسمى؛ فقمر الإيمان يجري إلى طلوع شمس العرفان، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن الله هو الحق، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق، بطلوع شمس العيان، زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. وإنما أثبتة الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجري في بحار التوحيد، لترى

عجائب الأنوار وغرائب الأسرار، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن في ذلك لآياتٍ لكل صَبَّارٍ على مجاهدة النفس، شكورٍ على نعمة الظفرِ بحضرة القدوسِ.

وإذا غشيهم، في حال استشرافهم على بحر الحقيقة، موج من أنوار ملكوته، فكادت تدهشهم، تضرعوا والتجأوا إلى سفينة الشريعة، حتى يتمكنوا فلما نجاهم إلى بر الشريعة، فمنهم مقتصد؛ معتدل بين جذب وسلوك، بين حقيقة وشريعة، ومنهم: غالبٌ عليه السكر والجذب، ومنهم: غالب عليه الصحو والسلوك. وكلهم أولياء الله، ما ينكرهم ويجردهم إلا كل خنَّارٍ جاحد. قال القشيري: { وإذا غشيهم موج كالظلل }؛ إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير، تمنوا أن تلفظهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة، فإذا جاء الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فَكَمْ قَدْ جَهَلْتُمْ، ثم عُدْنَا يَحْلِمْنَا، أَجِبَاءًا: كَمْ تَجْهَلُونَ وَتَحْلُمُوا!

رُوي أن ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: مَنْ هذا؟ فقال: ملك الموت، فقال: كأنه يُريدني، فسأل سليمان أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك. هـ.

وجعل العلم لله والدراية للعبد، لِمَا في الدراية من معنى التكسب والحيلة، فهذه الأمور الخمسة قد اختص الله بعلمها. وأما المنجم الذي يُخبر بوقت الغيث والموت؛ فإنه يقول بالقياس والنظر في المطالع، وما يُدرك بالدليل لا يكون غيباً، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم. وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب. وجاءه يهودي منجم، فقال: إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحول عليّ الحول حتى أموت. قال له: أين موتك؟ قال: لا أدري، فقال ابن عباس: صدق الله: { وما تدري نفس بأي أرض تموت } ورأى المنصورُ في منامه ملك الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها المعبرون بخمس سنين، وبخمس أشهر، وبخمس أيام. فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو إشارة إلى هذه الآية، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته: قيل: أن الله تعالى يعلم الأشياء بالوَسْم والرسم، والرسم يتغير، والوَسْم لا يتغير، فقد أخفى الله تعالى الساعة، ولم يخف أمارتها، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه، ولكن لا من كل وجوهه، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره، وبالجملة فعلم ما يكون من الخواص، جُملة لا تفصيلي، وجزئي لا كلي، ومقيد لا مطلق، وعرضي لا ذاتي، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلي: روى البخاري؛ عن ابن عمر حديث مفاتيح الغيب الخمس: { إن الله عنده علم الساعة... } إلى آخر السورة.. ونقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة، بعد كلام، ما نصه: والحكمة في جعلها خمسة: الإشارة إلى حصر العوالم فيها، ففي قوله: { ما تغيض الأرحام }؛ الإشارة إلى ما يزيد في الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفي أن يعرفها أحد بحقيقتها، فغيرها بطريق

الأولى. وفي قوله: لا يعلم متى يأتي المطر: إشارة إلى أمور العالم العلوي، وخص المطر مع أن له أسباباً قد تدل على وقوعه، لكنه من غير تحقيق. وفي قوله: " لا تدري نفس بأي أرض تموت ": إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، وإن مات ببلده لا يعلم بأي بقعة يُدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه، بل قبر أعده هو له.

وفي قوله: " ولا يعلم ما في غد إلا الله ": إشارة إلى أنواع الزمان، وما فيها من الحوادث، وعبر بلفظ (غد)؛ لكون حقيقته أقرب الأزمنة إليه، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمانة والعلامة، فما بعد عنه أولى. وفي قوله: " متى تقوم الساعة إلا الله ": إشارة إلى علوم الآخرة، فإن يوم القيامة أولها، وإذا نفى علم الأقرب انتقى علم ما بعد، فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة. وقد بين في قوله تعالى، في الآية الأخرى، وهي قوله:

{ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّا أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَا }

[الجن: 26، 27] الآية، أن الإطلاع على شيء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوقيف. هـ ملخصاً.

والحاصل: أن العوالم التي اختص الله بها خمسة: عالم القيامة وما يقع فيه، والعالم العلوي وما ينشأ منه، وعالم الأرض وما يقع فيه، وعالم الإنسان وما يجري عليه، وعالم الزمان وما يقع فيه. { إن الله عليم خبير } عليم بالغيوب، خبير بما كان وبما يكون. وعن الزهري: أكثرُوا من قراءة سورة لقمان؛ فإن فيها أعاجيب هـ.

الإشارة: يا أيها الناس المتوجهون إلى الله، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْفَتْحِ، لَمَنْ أَنهَضَ هِمَّتَهُ إِلَيْهِ، حَقٌّ، فَلَا تَغْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِأَشْغَالِهَا، عَنِ النَّهْوِضِ إِلَيْهَا، وَلَا يَغْرَنُكُمْ بِكَرَمِ اللَّهِ الشَّيْطَانُ الْغُرُورَ، فَيَغْرَكُم بِكَرَمِ اللَّهِ، وَيَصْرَفُكُمْ عَنِ الْمَجَاهِدَةِ وَالْمُكَابَدَةِ؛ إِذْ لَا طَرِيقَ إِلَى الْوَصُولِ إِلَّا مِنْهُمَا، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الَّتِي يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْعَبْدَ فِيهَا، وَيَنْزِلُ غَيْثُ الْمَوَاهِبِ وَالْوَارِدَاتِ، وَيَعْلَمُ مَا فِي أَرْحَامِ الْإِرَادَةِ، مِنْ تَرْبِيَةِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصَانِهِ، وَمَا تَلْقَاهُ مِنَ الْمَقَادِيرِ الْغَيْبِيَّةِ، فَيَجِبُ عَلَيْهَا التَّفْوِيزُ وَالِاسْتِسْلَامُ، وَانْتِظَارُ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهَا فِي كُلِّ غَدٍ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ تَمُوتُ فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ خَبِيرٌ.

قال القشيري: في قوله: { يا أيها الناس اتقوا ربكم } : خوْفهم، تارةً، بأفعاله، فيقول: { اتقوا الله } [البقرة: 48 وغيرها]، وتارةً بصفاته، فيقول: { أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } [العلق: 14]، وتارةً بذاته، فيقول: { وَيُجِدُّكُمْ اللَّهُ تَفْسَهُ } [آل عمران: 28]. هـ. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

@ { الإِمْا } * { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } * { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مَّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }

قلت: (تنزيل): إما خبر عن (الام)، إن جُعِلَ اسماً للسورة، أو: خبر عن محذوف، أي: هذا تنزيل. أو: مبتدأ، خبره: (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب): خبر بعد خبر، و(من رب العالمين): خبر ثالث. أو: خبر عن "تنزيل"، و(لا ريب فيه): معترض. والضمير في (فيه): راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: كونه منزلاً من رب العالمين، و"أم": منقطعة بمعنى: "بل".

يقول الحق جل جلاله: { الام }؛ أيها المصطفى المقرب، هذا الذي تتلوه هو { تنزيل الكتاب لا ريب فيه } ، لأنه معجز للبشر، ومثله أبعد شيء عن الريب، وهو { من رب العالمين } لا محالة. { أم يقولون افتراه } ، أي: اختلقه محمد من عنده، وهو إنكار لقولهم، وتعجيب منه؛ لظهور أمره في عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى: { بل هو الحق } الثابت { من ربك } ، ولم تفتره، كما زعموا؛ تعنتاً وجهلاً، أنزله عليك { لتنذر قوماً } أي: العرب، { ما أتاهم من نذير من قبلك } ، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى - عليهما السلام - { لعلهم يهتدون } إلى الصواب من الدين، والتبرجي مصروفٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كان { لعله يتذكر } [طه: 44] مصروفاً إلى موسى وهارون.

الإشارة: (الام) الألف: أَلَفَ المحبون قُربى، فلا يصبرون عني. اللام: لمع نوري لقلوب السائرين، فزاد شوقهم إليّ. الميم: مَلَك الواصلون ملكي وملكوتي، فلا يغيبون عني. تنزيل الكتاب، إذا طال أمد لقاء الأحباب، فأعزّ شيء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابي كتابي، وحمَلت إليهم بالرسول خطابي، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابي، فإنهم مني في أمان من عذابي. { أم يقولون افتراه } ، إنكار الأعداء على المحبين سُنة لازمة. فإن أليس الحق على الأعداء فلا يضركم، ولا عليكم، فإن صحبة الحبيب للحبيب ألد ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

@ { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } * { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } * { ذَالِكَ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }

يقول الحق جل جلاله: { اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي } مقدار { ستة أيام ثم استوى على العرش } أي: استولى بقهره ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة. وسبأتي شيء في الإشارة. { ما لكم من دونه }؛ من دون الله { من وليٍّ ولا شفيع } أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصرًا ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم، { أفلا تتذكرون }؛ تتعظون بمواعظ الله.

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } أي: أمر الدنيا. وما يكون من شأنه تعالى في ملكه، فهو كقوله:
{ كَلَّ يَوْمٌ هُوَ فِي شَأْنٍ }
[الرحمن: 29]، أي: يُدَبِّرُ لا يتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلي، الجزئي، لا الكلي،
فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير { من السماء إلى الأرض } ، فيدبر أمر الدنيا بأسباب
سماوية، نازلة أثارها إلى الأرض. { في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون } من أيام
الدنيا.

قال الأقليشي: جاء في حديث: " إن بُعد ما بين السماء والأرض، وما بين سماء إلى
سما، مسيرة خمسمائة سنة " وفي حديث آخر: " إن بين ذلك ثيِّفاً وسبعين سنة " ،
وإنما وقع الاختلاف في ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة. وإن سرعة بعضها أكثر من
سرعة بعض. كما يقول القائل: من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين
للراجل، وعليه يخرج قوله تعالى: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ } . وقال في آية أخرى:

{ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }

[المعارج: 4]. وهكذا الوجود مَنْ علوه إلى سفله، مِنْ الملائكة من يقطعه في مدة ما،
ويقطعه غيره في أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل: المعنى: أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم
الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، أو خمسين
ألف سنة. فقد قيل: إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة. وقد
حكى هذا ابن عطية، فقال: يُدَبِّرُ الأمر في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم
القيامة: مقداره ألف سنة؛ من عَدْنَا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة؛ لهوله،
حسبما في سورة المعارج. هـ.

قلت: والتحقيق، في الفرق بين الآيتين، أن الحق تعالى، حيث لم يختص بمكان دون
مكان، وكانت الأمكنة في حقه تعالى كلها واحدة، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار
ذاته، كان العروج إنما هو إليه على كل حال، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علق
العروج بتدبير الأمور وتنفيذها، قَرَّبَ المسافة؛ ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة.
ولمَّا عُلِّقَ عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بَعَدَ المسافة؛ زيادة في
علو شأنه ورفعة قدره. وكل هذا العروج في دار الدنيا. على قول من عُلِّقَ (في يوم)
بَتَّعْرَجَ في سورة المعارج. فتأمل.

{ ذلك عالم الغيب والشهادة } ، أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما
غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت، وما شوهد في عالم الحس من
عجائب عالم الملك. { العزيز }؛ الغالب أمره وتدييره، { الرحيم }؛ البالغ لطفه
وتيسيره.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات، قطعة من نور ذاته، على ترتيب
وتمهيل. فتجلى بالعرش، ثم بالماء، فكان عرشه على الماء، ثم بالكروسي، ثم بالأرض،
ثم بالسموات، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بنور صمداني رحماني من بحر جبروته،
استوى به على عرشه؛ لتدبير ملكه، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلي. ولذلك قال
صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق آدم على صورته " وفي رواية: " على صورة

الرحمن " وبذلك التجلي يتجلى يوم القيامة لفصل عباده، ولرؤيته - باعتبار العامة -، وهذا التجلي كله، من جهة معناه، متصل بسائر التجليات، جزئي من جهة تشكيله للمعنى الكلي، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس: أن التجلي المستولي غير مُرْتَدٍ برداء الحس؛ إذ لا عبودية فيه، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء، لأن كنزه ما زال مدفوناً، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل، وسلّم، إن لم تفهم، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقية، فتفهم أسرار التوحيد. وبالله التوفيق.

@ { الذِّبَا أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } * { ثُمَّ جَعَلَ نَبْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ } * { ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } * { وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ }

قلت: (الذي): صفة للعزیز، أو: خير عن مضمرة. ومن قرأ { خَلَقَهُ }؛ بالفتح؛ فصفة لكل، ومن سَكَنَهُ، فبدل منه، أي: أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

يقول الحق جل جلاله في وصف ذاته: { الذي أحسن كل شيء خلقه } أي: أبدع خلق كل شيء، أتقنه على وفق حكمته. أو: أتقن كل شيء من مخلوقاته، فجعلهم في أحسن صورة. ثم { بدأ خلق الإنسان }؛ آدم { من طين ثم جعل نسله }؛ ذريته { من سلالة } أي: نطفة مسلوطة من سائر البدن، { من ماء } أي: مَنِيٍّ، وهو بدل من سلالة، { مَّهِينٍ }؛ ضعيف حقير. { ثم سواه } أي: سوَّى صورته في أحسن تقويم، { ونفخ فيه من روحه }، أضافه إلى نفسه، تشریفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأنًا ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم في سورة الإسراء، في الكلام على الروح، وجه المعرفة منه. { وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة } لتسمعوا كلامه، وتُبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته، وتَعْقِلُوا، فتعرفوا صانعكم ومُدبِّرَ أمرِكُمْ. { قليلاً ما تشكرون } أي: تشكرون شكراً قليلاً على هذه النعم؛ لقلة التدبير فيها.

{ وقالوا }؛ منكربين للبعث: { أنذا ضللنا في الأرض }، أي: صِرْنَا تَرَابًا، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض، لا تتميز منه، كما يضل الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها، يقال: ضَلَلَّ؛ كضرب، وضلل؛ كفرح. وانتصب الطرف في (إذا) بقوله: { أننا لفي خلق جديد }. أي: أنبعث، وتُجدد، إذا ضللنا في الأرض؟ والقائل لهذه المقالة أبي بن خلف، وأسند إليهم؛ لرضاهم بذلك، { بل هم بلاء ربهم كافرون }؛ جاحدون. لَمَّا ذكر كفرهم بالبعث؛ أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده. وقال المحشي: أي: ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم، وأنهم لا يَلْقَوْنَ الله تعالى، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أظهر الحق تعالى: من تجلياته الكونية؛ فهي في غاية الإبداع والاتفاق في أصل نشأتها، كما قال صاحب العينية:

وَكُلُّ قَبِيحٍ، إِنَّ نَسَبَتْ لِحُبِّهِهِ أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكْمَلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا تَمَّ نُقْصَانٌ، وَلَا تَمَّ بَاشِعُ
وأكملها وأعظمها: خلقه الإنسان، الذي خُلِقَ على صورة الرحمن، حيث جعل فيه
أوصافه؛ من قدرة، وإرادة، وعلم، وحياء، وسمع، وبصر، وكلام، وهياها لحضرة القدس
ومحل الأنس، وسخر له جميع الكائنات، وهياها لحمل الأمانة، إلى غير ذلك مما خص به
عبده المؤمن. وأما الكافر فهو في أسفل سافلين. قال الورتجبي: ذكر حسن الأشياء،
ولم يذكر هنا حسن الإنسان؛ غيره، لأنه موضع محبته، واختياره الأزلي، كقول القائل:

وكم أبصرت من حُسن، ولكن عليك، من الوري، وقع اختياري
قال الواسطي: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدة فردانية، لا تستحسن
شيئاً. وقال ابن عطاء في قوله: { ثم سواه... } : قومه بفنون الآداب، ونفخ فيه من
روحه الخاص، الذي، به، فَصَّلَهُ على سائر الأرواح، لما كان له عنده من محل التمكين،
وما كان فيه من تدبير الخلافة، ومشرفة الخطاب - بعد أن قال الورتجبي -: أخص
الخصائص هو ما سقط من حُسنِ تجلي ذاته في صورته، كما ذكر بقوله: { ونفخ فيه من
روحه }.

@ { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَا رَبُّكُمْ تُرْجَعُونَ } * { وَلَوْ تَرَى إِذِ
الْمُجْرِمُونَ تَاكُسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
مُوقِنُونَ } * { وَلَوْ نَشَاءُ لَأْتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا وَلَا كُنْ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ
الْحَبَّةِ وَالنَّبَاسِ أَجْمَعِينَ } * { فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَآذًا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا
عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } * { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم }؛ بقبض أرواحكم
فتموتون، { ثم إلى ربكم تُرجعون }؛ بالبعث للحساب والعقاب. وهذا معنى لقاء الله
الذي أنكروه. والتوفي: استيفاء الروح، أي: أخذها، من قولك: توفيت حقي من فلان، إذا
أخذته وافيًا من غير نقصان. وعن مجاهد: رُويت الأرض لملك الموت، وجُعِلت مثل
الطست، يتناول منها حيث يشاء. وعن مقاتل والكلبي: بلغنا أن اسم ملك الموت "
عزرائيل " وله أربعة أجنحة: جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، والخلق بين رجليه ورأسه
وجسده كما بين السماء والأرض، وله الدنيا مثل راحة اليد، فهو يقبض أنفس الخلائق
بمشارك الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وعن معاذ بن
جبل: أن لملك الموت حربة، تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الموتى،
فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين - وفي حديث آخر، خمس مرات، فإذا
رأى إنساناً قد انقضى أجله؛ ضربه بتلك الحربة. وقال: الآن يُزار بك عسكر الأموات.

فإن قيل: ما الجمع بين قوله:

{ تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا }

{ الأنعام: 61 } و

{ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ }

{ النبیاء: 97 } و { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ } وقوله:

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ }

[الزمر: 42]؟ فالجواب: أن توفي الملائكة، القبض والنزع، وتوفي ملك الموت الدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أَعوانه بقبضها، ثم يذهبون بها إلى عليين، وقبض الحق تعالى: خَلَقُ الموتِ فيه: والحاصل: أنَّ قبض الملك: المباشرة، وقبض الحق: الإخراج؛ حقيقةً.

قال الورتجبي: قال الحسن: ملك الموت هو الموكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم. فانظر فيه. وأما حديث ملكي الموت والحياة، فقال العراقي: لم أجد له أصلاً. ويعني بملك الحياة: كون الأرواح أنفاسَ ملك الحياة؛ كما في الإحياء. ومذهب أهل السنة قاطبة: أن ملك الموت هو الذي يقبض جميع الأرواح، من بني آدم والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تقبض أرواحها أَعوانُ ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت في حق غير بني آدم، إنما هو عَدَمٌ مَحْضٌ، كيبس الشجر وجفاف الثياب، فلا قبض لأرواحها، وهو أعم من كونها تُبعث، أو: لا؛ بأن تعاد عن عَدَمٍ، بخلاف المكلف، فإن روحه لا تعدم، خلافاً للملاحدة، فإنهم جعلوا الموت كله عَدَمًا محضاً، كجفاف العود الأخضر، وهو كفر.

هذا وقد اختلف في كون الموت ضد الحياة، فيكون معنىً وجودياً، أو هو عدم الحياة، فيكون عَدَمًا، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان، منعمة أو معدبة.

{ ولو ترى { يا محمد { إذِ المجرمون { وهو الذين قالوا: { أتذا ضللتنا في الأرض... } إله، و " لو " و " إذ " للماضي، وإنما جاز هنا؛ لأن المُنْتَرِقَبَ محقق الوقوع، و " ترى " هنا، تامة لا مفعول لها، أي: لو وقعت منك رؤية { إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم { أي: وقت كون المجرمين ناكسي رؤوسهم من الذل والحياء والندم، { عند ربهم {؛ عند حساب ربهم، قائلين: { ربنا أبصرنا وسمِعنا { أي: صدّقنا الآن وعدك ووعيدك، وأبصرنا ما حدثتُنا به الرسل، وسمعنا منك تصديق رسلك، { فارجعنا { إلى الدنيا { نعمل صالحاً { من الإيمان والطاعة، { إنا موقنون { بالبعث والحساب الآن. }
وجواب " لو " : محذوف، أي: لرأيت أمراً فظيماً.

{ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها { أي: ما تهتدي به إلى الإيمان والطاعة، أي: لو شئنا لأعطيناه في الدنيا، كل نفس ما عندنا من اللطف الذي، لو كان منهم اختيار ذلك، لاهتدوا. لكن لم نعطهم ذلك اللطف؛ لِمَا علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة؛ فإن عندهم: قد شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاه، لكنها لم تهتد وأولوا الآية بمشيئة الجبر، وهو فاسد. قال تعالى: { ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين { ، أي: ولكن وجب القول مني لأعمرن جهنم من الجنة والناس، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفي تخصيص الجن والإنس: إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عمل يستوجبون به جهنم. وفي الآية ما يقتضي تخصيص أهل النار بالجن والإنس، فيرد ما يُذكر أنه كان قبل آدم أمم كفروا، ولا يصح ذلك، إلا أن يكونوا من الجن.

{ فدوِّقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا { أي: باشروا وبال ترككم العمل للقاء يومكم هذا، وهو الإيمان به. { إنا نسيناكم { : تركناكم في العذاب، { وذوقوا عذاب الخلد { أي: العذاب الدائم الذي لا انقطاع له { بما كنتم تعملون { من الكفر والمعاصي.

ثم ذكر ضدّهم بقوله: { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا }؛ القرآن { الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا }؛ سجدوا لله؛ تواضعاً وخشوعاً، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام، { وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } أي: نزهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه؛ حامدين له، { وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } عن الإيمان والسجود له. جعلنا الله منهم بمته، أمين.

الإشارة: أهل القَرْق من أهل الحجاب، يتوفاهم ملك الموت، وأهل الجمع مع الله من أهل العيان؛ يتولى قبض أرواحهم ذو الجلال الإكرام؛ كما قيل في الأخفياء من الأولياء؛ الذين اختص الله تعالى بعلمهم - أنه يتولى قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يُبعثوا بها، مُشْرِقَةً بنور البقاء المجعول فيهم، بالرجوع إليه من الفناء، فيكون بقلوبهم بقاءً الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. وقد ورد في الخبر: " من واطب على قراءة آية الكرسي، دُبر كل صلاة، كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال الإكرام "

يعني: من تدبر معناها. والمراد بذلك خطفتها بالتحلي، واستغراقها في الشهود، وغيتها عن الغير في ذلك الوقت الهائل، فيغيب عن الواسطة في شهود المتوسط، مع وجود الواسطة؛ لعموم الآية. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: لولا غفلة القلوب لما أحال قبض أرواحهم على مَلَكَ الموت؛ لأنَّ مَلَكَ الموت لا أتر منه في أحد، وما يحصل في التوقي فمن خصائص قدرة الحق، ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ، فخاطبهم على قدر أفهامهم، وعلق بالأغيار قلوبهم. وكلُّ يُخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال في قوله: { ولو ترى إذ المجرمون.... } الآية: مَلَكَتْهُمُ الدَّهْشَةُ وَعَلَبَتْهُمُ الْحِجَةُ، فاعترفوا، حين لا عُذْر، واعترفوا، حين لا اعتراف. هـ.

قوله تعالى: { ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها.. }. قال القشيري: لو شاء سَهَّلَ سبيل الاستدلال، وأدام التوفيق لكلِّ أحدٍ، ولكن تَعَلَّقَتِ المشيئة بإغواء قوم، وأردنا أن يكون للنار قُطان، كما يكون للجنة سُكان، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قومٌ وقومٌ. فمن المحال أن نريد ارتفاع معلومنا، إذ لو لم يقع، ولم يحصل؛ لم يكن علماً. فإذا لا أكون إليها. ومن المحال أن أريد ذلك. ويقال: من يتسلط عليه من يحبه؛ لم يجد في مُلكه ما يكرهه. يا مسكين أفنيت عُمرَكَ في النكد والعناء، وأمضيت أيامك في الجهد والرجاء، غيّرت صفتك، وأكثرت مجاهدتك، فما تفعل فيما مضى، كيف تبدله؟ وما تصنع في مشيئتي، وبأي وسع تزُدُّها؟ وأنشدوا:

شكا إليك ما وَجَدُ من حَآئِهِ فِيكِ الْجَلْدُ

حيرانٌ، لو شئت، اهتدى ظمآنٌ، لو شئت، وَرَدُ. هـ.

قوله تعالى: { إِنَّمَا يُؤْمِنُ... } الآية، خروا سُجَّدًا بطواهرهم في التراب، وبسراثرهم، بالخشوع لهيبة الكريم الوهاب، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد الله، كانت وسيلة بلا غاية. وبالله التوفيق.

@ { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } *
{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { تتجافى } أي ترتفع وتتنحى { جُنُوبَهُمْ } عن المضاجع {؛ عن الفُرْش ومواقع النوم للصلاة والذكر. قال سهل: وَهَبْ لِقَوْمِ هِبَةً، وهو ان أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته ثم مدحهم عليه فقال: ({ تتجافى جنوبهم عن المضاجع })، { يَدْعُونَ } أي: داعين { رَبَّهُمْ } خوفاً { ، أي: لأجل خوفهم من سخطه { وطمعاً } في رحمته، وهم المجتهدون أو المتفكرون في الليل. وسيأتي في الإشارة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيرها: " هو قيامُ العبد من الليل ". وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القرية، وعن أنس: كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم. وقال ابن عمر رضي الله عنه: قال صلى الله عليه وسلم: " من عَقَبَ - أي: أحيا - ما بين المغرب والعشاء؛ بُني له في الجنة قصران مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يُرد: الدعاء بين المغرب والعشاء " هـ. وقيل: هم الذين يَصَلُونَ الْعَتَمَةَ، ولا ينامون عنها.

{ ومما رزقناهم ينفقون } في طاعة الله، يعني: أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين } أي: لا يعلم أحد ما أعد الله لهم من الكرامة، مما تقرُّ به العينُ من نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب: " أَخْفَى "؛ علي المضارع. { جزاء بما كانوا يعملون } ، وعن الحسن: في القوم أعمالهم في الدنيا؛ فأخفي الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً. قاله النسفي.

وفي حديث أسماء، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَاءَ مُتَادٍ يُنَادِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ كُلَّهُمْ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ، الْيَوْمَ، مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقْمَ الَّذِينَ كَانَتْ لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَيَقُومُونَ، وَهُمْ قَلِيلٌ. ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، فَيَقُومُونَ، وَهُمْ قَلِيلٌ، يَسْرَحُونَ جَمِيعًا إِلَى الْجَنَّةِ. ثُمَّ يَحَاسِبُ سَائِرَ النَّاسِ " وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: " يقول الله - عز وجل -: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " قال أبو هريرة: واقرؤوا، إن شئتم: { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين }.

وقال في " البدور السافرة ": أخرج الترمذي، عن أبي سعيد الخدري؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ، لَوْ أَنَّ الْعَالَمِينَ اجْتَمَعُوا فِي إِحْدَاهُنَّ لَوَسَعَتْهُمْ " هـ. وقال ابن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عُتْبَةَ بْنَ عُبَيْدِ بْنِ الصُّمَيْ، يذكر عن حدِّثه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين ما بين السماء والأرض، أول درجة منها دورُّها وبيوتها وأبوابها وسرُّرها ومغاليقها، من فضة، والدرجة الثانية: دورها وبيوتها وسرُّرها ومغاليقها من ذهب، والدرجة الثالثة: دورها وبيوتها وأبوابها وسرُّرها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد. وسبع وتسعون درجة، لا يعلم ما هي إلا الله تعالى " هـ.

وقيل: المراد بقرة الأعين: النظر إلى وجه الله العظيم. قلت: قررة عين كل واحد: ما كان بغيته وهيمته في الدنيا، فمن كانت همته القصور والهور، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، ومن كانت بغيته وهيمته النظرة، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، على الدوام. قال أبو سليمان: شتان بين مَنْ هَمُّهُ القصور والهور، ومن همه الحضور ورفع الستور. جعلنا الله من خواصهم. آمين.

الإشارة: قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية، وهم العباد والزهاد من الصالحين، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم؛ من نعيم الصقور، والهور، والولدان، وغير ذلك. وقوم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية، ثم عن مضاجع القرق، إلى حال الجمع، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهؤلاء على صلاتهم دائمون، وفي حال نومهم عابدون، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون، وفي معاريح بحر عرفانهم سائحون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهؤلاء من دوام النظرة، والعكوف في الحضرة، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية، سرية؛ خفية عن الكرام الكاتبين، بين فكرة وشهود، وعبرة واستبصار، الذرة منها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد ورد: (تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة). هذا تفكر الاعتبار، وأما تفكر الشهود والاستبصار، فكل ساعة، أفضل من ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَفِيٍّ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ

أي: سنة، ومع هذا لا يُخلون أوقاتهم من العبادة الحسية، شكراً، وقياماً بآداب العبودية، وهي في حقهم كمال، كما قال الجنيد: عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفي مثل هؤلاء ورد الخبر: " إن أهل الجنة بينما هم في نعيمهم، إذ سطع عليهم نور من فوق، أضاءت منه منازلهم، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجال من فوقهم، أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدرّي في أفق السماء، وقد فُضِّلُوا عليهم في الأنوار والنعيم، كما فضل القمر على سائر النجم، فينظرون إليهم، يطيرون على نجب، تسرح بهم في الهواء، يزورون ذا الجلال الإكرام، فينادون هؤلاء: يا أخواننا، ما أنصفتُمونا، كنا نُصلي كما تُصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فضلتُمونا به؟ فإذا النداء من قبل الله تعالى: كانوا يجوعون حين تشبعون، وبعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تسكتون، ويكونون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تآمنون، فلذلك فُضِّلُوا عليكم اليوم " فذلك قوله تعالى: " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قررة أعين جزاء بما كانوا يعملون ". هـ.

قال القشيري: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، في الظاهر، عن الفراش، قياماً بحق العبادة والجهد والتهجد، وفي الباطن: يتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قدر النفس، وتوهم المقام؛ لأن ذلك بجملته، حجاب عن الحقيقة، وهو للعبد سُمُّ قاتل، فلا يساكنون أعمالهم، ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مآلِقهم، ويهجرُون معارفهم. والليل زمان الأحياب، قال الله تعالى:

{ لِنَسْكُتُوا فِيهِ }

[القصص: 73] يعني: عن كل شغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبوبكم، والنهار زمان أهل الدنيا. قال الله تعالى:

{ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا }
[النبأ:11].. انظر بقية كلامه.

@ { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ } * { أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } * { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { أفمن كان مؤمناً } بالله ورسوله { كمن كان فاسقاً }؛ خارجاً عن الإيمان { لا يستوون } أبداً عند الله تعالى. وأُفرد، أولاً؛ مراعاةً للفظ " من " ، وجمع ثانياً مراعاةً لمعناها. ثم فصل حالهم بقوله: { أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جناتُ المأوى } أي: المسكن الحقيقي، وأما الدنيا، فإنها منزل انتقال وارتحال، لا محالة، وقيل: المأوى: جنة من الجنان. قال ابن عطية سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوي إليها. هـ. أي: في الدنيا؛ لأنها في حواصل طير خضر، كما ورد في الشهداء، وأما الصديقون فإنها تشكل على صور أجسادها، تسرح حيث شاءت. { نُزُلًا } بما كانوا يعملون { أي: عطاءً معجلاً بأعمالهم. والنُّزْل: ما يقدم للنازل، ثم صار عاماً.

{ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار } أي: هي ملجأهم ومنزلهم، { كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها } ، فلا خروج منها، ولا موت، { وقيل } لهم: { ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ } ، هذا دليل على أن المراد بالفاسق: الكافر؛ إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزري: فإن قيل: لِمَ وصف، هنا، العذاب، وأعاد عليه الضمير، ووصف، في سياق، النار وأعاد عليها الضمير، فقال:

{ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ }
[سيا:42]؟ فَالجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أنه خص العذاب في السجدة بالوصف؛ اعتناءً به؛ لَمَّا تكرر ذكره في قوله: { لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر.. } ، الثاني: أنه تقدم في السجدة ذكر النار، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمير، لكنه جعل الظاهر مكان المضمير، فكما لا يوصف المضمير؛ لم يوصف ما قام مقامه، وهو النار، فوصف العذاب، ولم يصف النار، الثالث - وهو الأقوى: أنه امتنع في السجدة وصف النار، فوصف العذاب، وإنما امتنع وصفها؛ لتقدم ذكرها، فإنك إذا ذكرت شيئاً ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: رأيت رجلاً فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يوهم أنه غيره. هـ.

الإشارة: أفمن كان مصدقاً بطريق الخصوص، داخلاً فيها، شارباً من خمرتها، كمن كان فاسقاً خارجاً عنها، مشتغلاً بنفسه، غريقاً في هواه، لا يستوون أبداً. أما الذين آمنوا بها، وصدقوا أهلها، ودخلوا في تربيتهم، فلهم جنات المعارف، هي مأواهم ومعيشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم، فمأواهم نار القطيعة، وعذاب الحرص، وعم الحجاب، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها؛ إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم: ذوقوا وبال الإنكار، وحرمان الخصوصية، التي كنتم بها تكذبون.

@ { وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } * { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ولنذيقنهم من العذاب الأدنى { أي: عذاب الدنيا؛ من القتل، والأسر في بدر، أو ما مُحنوا به من السنّة، سَبْعَ سنين. { دون العذاب الأكبر { أي: قبل عذاب الآخرة، الذي هو أكبر، وهو الخلود في النار. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخذلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: النار. { لعلمهم يرجعون }؛ يتوبون عن الكفر.

{ ومن أظلم { أي: لا أحد أظلم { ممن ذُكِّرَ { أي: وُعط { بآياتِ ربه {؛ القرآن، { ثم أعرض عنها { أي: تولى عنها، ولم يتدبر في معناها. و " ثم "؛ للاستبعاد؛ فإن الإعراض عن مثل هذه في ظهورها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى، بعد التذكير بها، مُسْتَبَعِدٌ في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت تلك الفرصة ثم لم تنتهزها -؛ استبعاداً لتركه الانتهاز. { إنا من المجرمين منتقمون } ، ولم يقل: " منه " ، تسجيلاً عليه بإعراضه بالإجرام، ولأنه إذا جعله أظلم من كل ظالم، ثم توعد المجرمين، عامة، بالانتقام، دلّ على إصابة الأظلم أوفر نصيب الانتقام، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

الإشارة: ولنذيقن أهل الغفلة والحجاب، من العذاب الأدنى، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع، قبل العذاب الأكبر، وهو غم الحاجب وسوء الحساب. قال القشيري: قومٌ: الأدنى لهم: محنُ الدنيا، والأكبر: عقوبة العقبى. وقومٌ: الأدنى لهم: فترةٌ تُدخلهم في عبادتهم، والأكبر: قسوةٌ تُصيبهم في قلوبهم. وقومٌ: الأدنى لهم: وقفة مع سلوكهم تمسهم. والأكبر: حَجَبَةٌ عن مشاهدتهم بسرهم - قلت: الأول في حق العوام، والثاني: في حق الخواص، وهم العباد والزهاد. والثالث: في حق أهل التربية من الواصلين - ثم قال: ويقال: الأدنى: الخذلان في الزلّة، والأكبر: الهجران في الوصلة. ويقال: الأدنى: تكذُّرٌ مَسَارِيهِمْ، بعد صفوها، والأكبر: تَطَاوُلُ أيامِ الحَجَبِ، من غير تبين آخرها. وأنشدوا:

تَطَاوُلَ بُعْدَتَا، يا قوم، حتى لقد نَسَجَتْ عليه العنكبوتُ
هـ. ببعض المعنى.

أذقناهم ذلك؛ لعلمهم يرجعون إلى الله، في الدنيا؛ بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يُذكِّرهم بالله؛ من الداعين إلى الله، ثم أعرضوا عنه، فلا أحد أظلم منهم، ولا أعظم جرماً. إنا من المجرمين منتقمون.

@ { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } * { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرٍ لَّمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } * { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { ولقد آتينا موسى الكتاب {؛ التوراة { فلا تكن في مِرْيَةٍ {؛ شك { من لقائه {؛ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقاءك موسى ليلة المعراج، أو: يوم

القيامة، أو: من لقاء موسى ربه في الآخرة، كذا عن النبي صلى الله عليه وسلم، { وجعلناه هدى لبني إسرائيل }؛ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام هدى لقومه، { وجعلنا منهم أئمةً يَهْدُونَ } الناس، ويدعون إلى الله وإلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، { بأمرنا } إياهم بذلك، أو بتوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم، { لَمَّا صَبَرُوا } على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو: على طاعة الله وترك معصيته. وقرأ الأَخَوَان: بكسر اللام، أي: لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها. وفيه دليل على أن الصبر؛ ثمرته إمامة الناس والتقدم في الخير. { وكانوا بآياتنا }؛ التوراة { يُوقِنُونَ }؛ يعلمون علماً لا يخالجه شك ولا وَهْم؛ لِإِمْعَانِهِمُ النَّظَرَ فِيهَا، أَوْ هَبْتَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: { إِنْ رَبُّكَ هُوَ يُفَصِّلُ }؛ يقضي { بينهم يومَ القيامة } أي: بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين، { فيما كانوا فيه يختلفون } من الدين، فيظنه الْمُحِقُّ من المبطل.

الإشارة: أئمة الهدى على قسمين: أئمة يهدون إلى شرائع الدين، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون: من عامة أهل اليمين، والآخرين: من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم، والآخرين صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس، حتى وردوا حضرة القُدُّوس. قال القشيري، في شأن القسم الثاني: لَمَّا صَبَرُوا عَلَى طَلْبِنَا؛ سَعِدُوا بِوُجُودِنَا، وَتَعَدَّى مَا نَالُوا مِنْ أَفْضَالِنَا إِلَى مَتَبِعِيهِمْ وَانْبَسَطَ شِعَاعُ شَمُوسِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِيهِمْ، فَهَمَّ لِلْخَلْقِ هُدَاةً، وَفِي الدِّينِ عِيُونَ، وَلِلْمُسْتَرشِدِينَ نَجُومًا. هـ.

وفي الإحياء: للإيمان ركنان: أحدهما اليقين، والآخر: الصبر؛ والمراد باليقين: المعارف القطعية، الحاصلة بهداية الله عَبْدَهُ إِلَى أَصُولِ الدِّينِ، وَالْمُرَادُ بِالصَّبْرِ، الْعَمَلُ بِمَقْتَضَى اليقين؛ إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى: { إِنْ رَبُّكَ هُوَ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ.. } ، قال القشيري: يحكم بينهم، فيبين المقبول من المردود، والمهجور من الموصول، والرّضي من العوّي، والعدو من الولي. فكم من بهجةٍ دامت هناك! وكم من مهجةٍ ذابت كذلك. هـ.

@ { أَوْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ }

قلت: فاعل " يهد " هو الله، بدليل قراءة زيد عن يعقوب " نهد " بالنون، ولا يجوز أن يكون الفاعل، " كم "؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يَعْمَلُ فيه بما قَبْلَهُ.

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ } أي: يبين لهم الله تعالى ما يعتبرون به، فينظروا { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ }؛ كعاد وثمرود، وقوم لوط، { يمشون } يعني: قريشاً، { في مساكنهم } حين يمرّون على ديارهم، ومنازلهم، خاوية، في متاجرهم إلى الشام، { إن في ذلك لآياتٍ } دالة على قدرتنا، وقهرتنا { أفلا يسمعون } المواعظ، فيتعظون بها؟.

الإشارة: قال القشيري: لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا في حَبْرَةَ، فصاروا في عَبْرَةَ، كانوا في سرور، فألوا إلى ثبور، فجميع ديارهم وتراثهم صارت لأغيارهم، وُصُوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وفي مثلهم قيل:

نَعَمْ، كانت على قو م زمانا، ثم فاتت،
هكذا النعمة والإح سَأُنْ قد كانت وكانت.

@ { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ } * { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } * { قُلْ يَوْمَ
الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } * { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ
مُنْتَظَرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ } : المطر { إلى أرض الجُرْزِ } أي:
التي جُرِّزَ نباتها، أي: قُطِعَ، ولم يَبْقَ منه شيء؛ إما لعدم الماء، أو لأنه رُعِيَ. يقال:
جرزت الجراد الزرع؛ إذ استأصلته، وفي القاموس: وأرض جرز: لا تنبت، أو أكل نباتها،
أو لم يصبها مطر. ثم قال: وأرض جارزة: يابسة غليظة، وفيه أربع لغات: جُرْزٌ وجُرْزٌ
وجَرَزٌ وجُرْزٌ. ولا يقال للتي لا تنبت؛ كالسباح: جرز، بدليل قوله: { فَنُخْرِجُ بِهِ } أي:
بالماء، { زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ } أي: الزرع، { أَنْعَامُهُمْ }؛ كالتين والورق، { وَأَنْفُسُهُمْ }؛
كالحب والتمر، المراد بالزرع: كل ما يُزْرَعُ وَيُسْتَنْبَتُ، (أفلا يُبْصِرُونَ)، فيستدلون به
على قدرته على إحياء الموتى؟.

{ ويقولون متى هذا الفتح } أي: النصر، أو الفصل بالحكومة؛ من قوله
{ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا }

[الأعراف: 89]. وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفتح
بيننا وبينهم، فإذا سمع المشركون، قالوا: متى هذا الفتح؟ أي: في أي وقت يكون { إن
كنتم صادقين } في أنه كائن؟.

{ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ } أي: يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو: يوم
نصرهم عليهم. أو: يوم بدر، أو يوم فتح مكة، { لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ }؛ لفوات
محلها، الذي هو الإيمان بالغيب، { ولا هُمْ يُنظَرُونَ }؛ يُمَهَّلُونَ، وهذا الكلام لم ينطبق؛
جواباً عن سؤالهم؛ ظاهراً، ولكن لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً
منهم، على وجه التكذيب والاستهزاء، أُجيبوا على حسب ما عُرف من غرضهم من
سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا، فكأنني بكم وقد حصلت في ذلك اليوم
وأمنتم، فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم عند درك العذاب فلم تُمهلوا. ومن فسره بيوم
بدر أو بيوم الفتح، فهو يريد المقتولين منهم؛ فإنهم لا ينفعهم إيمانهم في حال الفعل،
كما لم ينفع فرعون إيمانه عند دَرَكِ الغرق. { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ } النصر وهلاكهم،
{ إنهم مُنْتَظَرُونَ } الغلبة عليكم وهلاككم.

قال عليه الصلاة والسلام: " من قرأ { الم تَنْزِيلُ } في بيته، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام "

الإشارة: أولم يروا أنا نسوق الماء الذي تحيا به القلوب على يد المشايخ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة، فنخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح، تأكل منه، من لذة حلاوته، جوارحهم وقلوبهم، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء: متى هذا الفتح، إن كنتم صادقين في أنه موجود؟ قل: يوم الفتح الكبير - وهو يَوْمَ يَرْفَعُ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ فِي أَعْلَىٰ عَالَمِينَ - لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية، في دار الدنيا، إيمانهم في الالتحاق بهم، ولا هم يُمهلون حتى يعلموا مثل عملهم، فأعرض عنهم اليوم، واشتغل بالله، وانتظر هذا اليوم، إنهم منتظرون لذلك.

قال القشيري: " أو لم يروا.. " الآية. الإشارة فيه: تَسْقِي حَدَائِقَ وَصَلَهُمْ، بعد جفاف عُودِهَا، فيعود عُودُهَا مَوْرِقًا بعد ذبوله، حاكياً حاله حال حصوله، (ويقولون متى هذا الفتح..) استبعدوا يوم التلاق، وجدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه. قوله تعالى: { فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ.. } أي: باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد وَصَلْنَا وَعَوَائِدَ لطفنا، إنهم منتظرون هواجم مقتنا وخفايا مكرنا. وعن قريب وَجَدَ كُلُّ مُنْتَظِرٍ مُمْتَصِرًا هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، عين الوصول إلى التحقيق، وعلى آله المبينين سواء الطريق، وسلم.

#سورة الأحزاب §#

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } *
{ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } * { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها النبي { أي: المُشْرِفُ؛ حالاً، المفخم؛ قدرًا، العلي؛ رتبة؛ لأن النبوة مشتقة من التَّيَّوَّة، وهو الارتفاع. أو: يا أيها المخبرُ عنا، المأمون على وحينا، المبلغُ خطابنا إلى أحبائنا. وإنما لم يقل: يا محمد، كما قال: " يا آدم، يا موسى "؛
تشريفًا وتنويهاً بفضله، وتصريحه باسمه في قوله:

{ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ }

[الفتح: 29]، ونحوه، ليعلم الناس بأنه رسول الله. { اتق الله } أي: اثبت على تقوى الله، { ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين }؛ لا تساعدهم على شيء، واحترس منهم؛ فإنهم أعداء لله وللمؤمنين.

رُوي أن أبا سُفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السُّلمي، نزلوا المدينة على ابن أبي، رأس المنافقين، بعد أحد، وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن أبي سرح، وطُعْمَةُ بن أبيرق، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم، وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر الهتنا؛ اللات، والعزى، ومناة، وقل: إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشقق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم، فقال عمر: ائذن لنا، يا رسول الله، في قتلهم، فقال صلى الله عليه

وسلم: " إني قد أعطيتهم الأمان " فقال عمر: اخْرُجُوا فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَتْ.

أي: اتق الله في نقض العهد، ولا تُطع الكافرين من أهل مكة، كأبي سفيان وأصحابه، والمنافقين من أهل المدينة، فيما طلبوا، { إن الله كان عليماً } بخبث أعمالهم، { حكيماً } بتأخير الأمر بقتالهم.

{ واتبع ما يوحى إليك من ربك } في الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو: كل ما يوحى إليك من ربك، { إن الله كان بما تعملون خبيراً } أي: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم. وقيل: إنما جمع؛ لأن المراد بقوله: " اتبع " هو أصحابه، وقرأ بالغيب، أبو عمرو، أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون، من كيدهم لكم ومكرهم. { وتوكل على الله }؛ أسند أمرك إليه، وكنه إلى تدييره. { وكفى بالله وكيلًا }؛ حافظاً موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه، وإن كان لفظ الخبر، فالمعنى: اكتف بالله وكيلًا.

الإشارة: أمر بتقوى الله، وبالغيبه عما يشغل عن الله، وبالتوكل على الله، فالتقوى أساس الطريق، والغيبه عن الشاغل: سبب الوصول إلى عين التحقيق، والتوكل زاد رفيق. قال القشيري بعد كلام: يا أيها المرقي إلى أعلى المراتب، المُتَلَقَّى بِأَسْنَى الْقُرْبِ وَالْمُنَاقِبِ؛ اتق الله أن تلاحظ غيراً معناه، أو تُسَاكِنَ شَيْئاً دُونَنا، أو تُثَبِتَ شَيْئاً سِوَانَا، { ولا تطع الكافرين }؛ إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم، بموافقتهم في شيء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء، تمنعهم، في أنفاسهم وسكناتهم وحركاتهم، أن ينظروا إلى غيره، أو يُثَبِتُوا مَعَهُ سِوَاهُ، إلا منصوباً بقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قَضِيَّتِهِ.

التقوى لجامٌ يمنعك عما لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تُحِبُّ، سوطٌ يسوقك إلى ما أمر به، حِزْرٌ يعصمك من تَوَضُّلِ عِقَابِهِ إِلَيْكَ، عَوْدَةٌ تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلة إلى ساحة كرمه، ذريعةٌ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى عَفْوِهِ وَجُودِهِ. { واتبع ما يوحى إليك ... }؛ لا تبتدع، واقفد بما نامرك، ولا تقنّد، باختيارك، غَيْرَ مَا نَخْتَارُ لَكَ، وَلَا تُعْرَجْ - أي: تقم - في أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك. " وتوكل " انسلخ عن إهابك لنا، واصدق في إيابك إلينا، وتشاغلك عن حُسْبَانِكَ مَعَنَا، واحذرْ ذِهَابَكَ عَنَا، وَلَا تُقَصِّرْ فِي خِطَابِكَ مَعَنَا. ويقال: التوكل: تَخْلُقُ، ثُمَّ تَخْلُقُ، ثُمَّ تَوْتِقُ، ثُمَّ تَمَلُقُ، تحقّق في العقيدة، وتخلق بإقامة الشريعة، وتوْتِقُ بالمقسوم من القضية، وتملق بين يديه بحسن العبودية. ويقال: التوكل: استواء القلب في العدم والوجود.

@ { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } * { ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَا كُنْ مِمَّنْ تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه }؛ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، أو: يتقي بأحدهما ويعصي بالآخر، أو: يُقبل على الله بأحدهما ويُقبل على الدنيا بالآخر، بل ما للعبد إلا قلب واحد، إن أقبل به على الله؛ أدبر عن سواه، وإن أقبل

به على الدنيا، أدبر عن الله. قيل: الآية مثل المنافقين، أي: إنه لا يجتمع الكفر والإيمان، وقيل: لا تستقر التقوى ونقض العهد في قلب واحد. وقال ابن عطية: يظهر من الآية، بجملتها، أنها نفي لأشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر فيها، فمنها: أن العرب كانت تقول: الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه، وكان تصاد الخواطر يحملها على ذلك.. الخ كلامه.

قال النسفي: والمعنى: أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو: إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة، غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، فيؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً في حالة واحدة. هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضاً أن المرأة المظاهرة منها: أمّا، فرد ذلك بقوله: { وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم } أي: ما جمع الزوجية والأمومة في امرأة واحدة؛ لتضاد أحكامهما؛ لأن الأم مخدومة، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدعي ابن، فرد عليهم بقوله: { وما جعل أديعكم أبناءكم } أي: لم يجعل المتيب من أولاد الناس ابناً لمن تبناه؛ لأن البينة أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع في شيء واحد أن يكون أصيلاً وغير أصيل.

ونزل هذا في " زيد بن حارثة " ، وهو رجل من كلب، سبي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام، لعتمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له، فطلبه أبوه وعمه، وجاءا بفدائه، فخير، فاختر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتقه وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب؛ وكانت تحت زيد - على ما يأتي - قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، قلب معكم، وقلب مع أصحابه. وقيل: كان " أبو مَعْمَر " أحفظ العرب، فقيل: ذو القلبين، فأكذب الله قولهم. والتنكير في رجل، وإدخال " من " الاستغراقية على " قلبين " ، وذكر الجوف للتأكيد. و " اللائي " : جمع " التي " . وفيها قراءات: " اللائ " ؛ بالهمزة مع المد والقصر، وبالتسهيل، وبالياء، بدلاً من الهمز.

وأصل { تظاهرون } : تتظاهرون، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف؛ من: طَاهَر. ومعنى الظهار: أن تقول للزوجة: أنت علي كظهر أمي. مأخوذ من الظهر، وتعديته بمن؛ لتضمنه معنى التجنب؛ لأنه كان طلاقاً في الجاهلية. وهو في الإسلام يقتضي الحرمة حتى يكفر، كما يأتي في المجادلة. والأديعاء: جمع دعي، فقيل: بمعنى مفعول، وهو الذي يدعى ولداً، وجمعه على أفعلاء؛ شاذ؛ لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل؛ كتقي وأتقيا، وشقي وأشقيا. ولا يكون في ذلك نحو رمي وسمي، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعيل بمعنى فاعل، فجمع جمعة.

{ ذلكم قولكم بأفواهكم }؛ إذ إن قولكم للزوجة: أمّا، والدعيّ: هو ابن، قول تقولونه بالسنتكم لا حقيقة له، إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأم. { واللّه يقول الحقّ }؛ ما له حقيقة عينية، مطابقة له ظاهراً وباطناً { وهو يهدي السبيل }؛ سبيل الحق.

ثم بين ذلك الحقّ، وهدى إلى سبيله، فقال: { أدعوهم لآبائهم }؛ انسابهم إليهم. { هو }، أي: الدعاء { أقسّط }؛ أعدل { عند الله }؛ بين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في العدل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل؛ ضمّه إليه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده، من ميراثه. وكان ينسب إليه، فيقال: فلان بن فلان. { فإن لم تعلموا آباءهم } أي: فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، { فأخوانكم في الدين ومواليكم } أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم فيه. فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، وبا أخي، وبا مولاي، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه، { وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به } أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك، مخطئين جاهلين، قبل ورود النهي، أو بعده، نسياناً. { ولكن ما تعمدت قلوبكم } أي: ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي. أو: لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بنيّ، على سبيل الخطأ، أو: الشفقة، ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. { وكان الله غفوراً رحيماً }؛ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المعتمد.

الإشارة: العبد إنما له قلب واحد، إذا أقبل به على مولاه؛ أدبر عن ما سواه، وملاه الله تعالى بأنواع المعارف والأسرار، وأشرق عليه الأنوار، ودخل حضرة الحليم الغفار، وإذا أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله، وحشي بالأغيار والأكدار، وأظلمت عليه الأسرار، وطبع فيه صور الكائنات، فحجب عن المكوّن. وكان ماوى للخواطر والوساوس، فلم يسوّ عند الله جناح بعوضة. قال القشيري: القلب إذا اشتغل بشيء؛ اشتغل عما سواه، فالمشتغل بما من العدم؛ منفصل عن له القدم، والمتصل بقلبه بمن تعنه القدم؛ مشتغل عما من العدم، والليل والنهار لا يجتمعان، والغيب والغير لا يلتقيان. هـ.

وقوله تعالى: { وما جعل أزواجكم... } الآية، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أن من ظاهر الدنيا، وتباعدها عنها؛ لا يحل له أن يرجع، ويتخذها أمّا؛ في المحبة والخدمة. وقوله تعالى: { وما جعل أدياءكم أبناءكم.. }؛ تشير إلى أنه لا يحل أن يدعيّ الفقير حالاً، أو مقاماً، ما لم يتحقق به، وليس هو له، أو: ينسب حكماً أو علماً ربيعاً لنفسه، وهو لغيره، { ادعوهم لآبائهم هو أقسّط عند الله }؛ وقوله: { فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين.. }؛ إخوان الدين أولى، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري: وقرابة الدين، في الشكلية، أولى من قرابة النسب، وأنشدوا.

وَقَالُوا: قَرِيبٌ مِنْ أَبِي وَعَمُومَةٌ فَقُلْتُ: وَإِخْوَانُ الصَّقَاءِ الْأَقَارِبُ
مَتَّاسِبُهُمْ شَكْلًا وَعِلْمًا وَالْفَةُ وَإِنْ بَاعَدْتَنَا فِي الْأُصُولِ النَّاسِبُ

@ { النَّبِيُّ أَوْلَا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَا بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْنَا أُولِيَاءُكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { النبيُّ أولى بالمؤمنين } أي: أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم { من أنفسهم } ، فإنه لا يأمرهم، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، فيجب عليهم أن يبذلوا دونه، ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء: يعني: " إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى شيء، ودعوتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلم أولى). أو: هو أولى بهم، أي: أرف، وأعطف عليهم، وأنفع لهم، كقوله:

{ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }

[التوبة: 128] وفي الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام: " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: { النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم } فأئماً مؤمناً هلك، وترك مالا؛ فلورثته ما كانوا، ومن ترك ديناً أو صياعاً فليأتني، فإنني أنا مؤلاه "

وفي قراءة ابن مسعود " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم ". وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين، وأزواجه أمهاتهم، في تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدّ التحريم إلى بناتهن.

{ وأولوا الأرحام } أي: ذوو القرابات { بعضهم أولى ببعض } في الموارث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ، وجعل التوارث بالقرابة. ذلك { في كتاب الله } أي: في حكم الله وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله، فهم أولى بالميراث، { من المؤمنين } بحق الولاية في الدين، { و } من { المهاجرين } بحق الهجرة. وهذا هو الناسخ. قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، ولا يرث الأعرابي المسلم من المهاجر شيئاً. فنزلت وقال الكلبي: أذى النبي صلى الله عليه وسلم بين الناس، فكان يواخي بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر، دون عصبته، حتى نزلت: { وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله }؛ في حكمه، { من المؤمنين والمهاجرين } ، ويجوز أن يكون { من المؤمنين }؛ بياناً لأولي الأرحام، أي: وأولو الأرحام، من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، { إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً } أي: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً، وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون له ذلك بالوصية، لا بالميراث؛ فالاستثناء منقطع. وعُدّي " تفعلوا " بالي، لأنه في معنى تُسندُوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون، والمهاجرون: المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. { كان ذلك } أي: التوارث بالأرحام { في الكتاب مسطوراً } أي: اللوح المحفوظ، أو: القرآن. وقيل: في التوراة.

الإشارة: متابعتة عليه الصلاة والسلام، والاقْتباس من أنواره، والاهتداء بهديه، وإيثار محبته، وأمره على غيره؛ لا ينقطع عن المرید أبداً، بدايةً ونهايةً؛ إذ هو الواسطة العظمى، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه صلى الله عليه وسلم، وعلى يده، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك في تربية المریدين، فهو جزء من الذي جاء به. وهم في ذلك بحسب النياحة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهي معجزة له صلى الله عليه وسلم، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره صلى الله عليه

وسلم، قال ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه: اعلم أن كل وَلِيٍّ لله تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بِوَاسِطَةٍ رُوحَانِيَّةٍ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنهم مَنْ يعرف ذلك، ومنهم مَنْ لا يعرفه، ويقول: قال لي الله، وليس إلتك الروحانية. هـ. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه، حيث قال: الوليُّ إنما يكشف بالمثل، كما يرى مثلاً البدر في الماء بواسطة، وكذلك الحقائق الغيبية، والأمور الإلهادية مجلوة وظاهرة في بصيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وله عياناً لا مثلاً. والوليُّ لقربه منه ومناسبته له؛ لهدية بهديه، ومتابعته له يُكاشف بمثال ذلك فيه، فظهر الفرق وثبتت مزية النبي صلى الله عليه وسلم، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوينا سيدي " عبد الرحمن العارف " .

قال القشيري: { النبي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } الإشارة: تقديم سُنته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به مُنَاك، وإيثار مَنْ تتوسل به نسباً وسبباً على أَعْرَتِكَ وَمَنْ وَالَاك، { وأولوا الأرحام.. } الآية: ليكن الأجنبُ منك على جانب، ولتكن صلتك للأقارب وصله الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار، وليكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحجوب.

أرؤا حنا في مكان واحد، وإن كانت أشبا حنا بِشَامٍ أَوْ حُرَاسَانِ. هـ

@ { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } * { لَيْسَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { و { اذكر { إذ أخذنا }؛ حين أخذنا { من النبيين ميثاقهم } بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم، وإرشاد العباد ونصحهم. وقيل: أخذه عليهم في عالم الذر. قال أبي بن كعب: لما أخرج الله الذرية، كانت الأنبياء فيهم مثل السُّرُج، عليهم النور، فحُصُّوا بميثاق وأخذ الرسالة والنبوة، وقال القشيري: أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم، عوند بعثة كل رسول، ونبوة كل نبي، أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، ومن اختصه بإسماعه كَلَامُهُ بلا واسطة ملك كنبينا ليلة المعراج، وموسى - عليهما السلام - فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة، وكان لنبينا - عليه الصلاة والسلام - زيادة حال؛ بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ المواثيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم. هـ.

قال في الحاشية: والذي يظهر: أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا يوحى، وذلك في الغيب، ولذلك قدّم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه النور الأول قبل آدم، ثم انتقل إلى ظهره، وحينئذ، فأخذ الميثاق هنا غيبياً، ولذلك قدّمه. وفي قوله: { سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ... }

[الشورى: 13]؛ في عالم الظهور، فلذلك قدّم نوحاً، وثنى بنينا؛ لأن نوحاً أول أولي العزم، ونبينا خاتمهم. والله أعلم. هـ. والحاصل: أن أخذ الميثاق كان مرتين؛ في عالم الغيب وفي عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أو الثاني؟ قولان.

{ ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم } ، قال النسفي: وقدم رسول الله صلى اله عليه وسلم على نوح ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، فلما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. هـ { وأخذنا منهم ميثاقا غليظا }؛ وثيقا. وأعاد ذكر الميثاق؛ لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك { لَيْسَ أَلِ { الله { الصادقين { أي: الأنبياء: { عن صدقهم }؛ عما قالوه لقومهم، وهلم بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبيكيت للكفار، كقوله: { قَلَسَأَلَنَ الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَلَسَأَلَنَ الْمُرْسَلِينَ { [الأعراف: 6]، أو: ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم: هل كان بإخلاص أم لا؟ لأن من قال للصادق: صدقت؛ كان صادقاً في قوله. أو: ليسأل الأنبياء: ما الذي أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله:

{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ { [المائدة: 109]، { وأعدَّ للكافرين { بالرسول { عذاباً أليماً } ، وهو عطف على " أخذنا " ، لأن المعنى: أن الله تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه؛ لأجل إثابة المؤمنين، وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً. أو: على ما دل عليه: { ليسأل الصادقين } ، كأنه قال: فإتاب المؤمنين، وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً.

الإشارة: كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسول؛ أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أمل العلماء؛ فعلى تبين الشرائع وتغيير المناكر، وألا تأخذهم في الله لومة لأئم، وأما أخذه على الأولياء؛ فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة الله، وتربية من تعلق بهم، وسياسة الخلق، ودلالتهم على الحق، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب. قال القشيري: فلكل من الأولياء والأكابر حال، على ما يؤهلهم له؛ قال صلى الله عليه وسلم: " لقد كان في الأمم محدثون، وإن يكن في أمتي قُعمر " ، وغير عُمر مشارك لعُمر في خواص كثيرة، وذلك سر بينهم وبين ربهم.

ثم قال: قوله تعالى: { لَيْسَ أَلِ { الصادقين عن صدقهم }؛ سؤال تشریف لا تعنيف، وإيجاب لا عتاب، والصدق: ألا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في عملك عيب، ويقال: من أمارات الصدق في المعاملة. وجود الإخلاص من غير ملاحظة، وفي الأحوال: تصفيئها [من غير مداخلة الحجاب]، وفي القول: سلامته من المعارض، فيما بينك وبين نفسك. وفيما بينك وبين الناس: تباعد في التلبيس والتدليس، وفيما بينك وبين الله: إدامة التبري من الحول والقوة، ومواصلة الاستقامة، وحفظ العهود معه على الدوام. في التوكل: عدم الانزعاج عند القفد، وزوال البشر بالوجد، وفي الأمر بالمعروف: التحرز من تخلل المداهنة، قليلها وكثيرها، وألا يترك ذلك لقرع ولا طمع، ولكن تشرب مما تسقى، وتتصف بما تأمر، وتنتهي عما تزجر. ويقال: الصدق: أن يهتدي إليك كل أحد، ويكون عليك، فيما تقول وتضمّر، اعتماد. ويقال: الصدق: ألا تجنح إلى التأويلات. انتهى كلام القشيري.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } * { إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ قَوَقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْإِبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } * { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم } ، أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بسنة. { إذ جاء تكلم جنود { أي: الأحزاب، وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير، وهو السبب في إيتانهم، { فأرسلنا عليهم ريحاً } أي: الصّبا، قال عليه الصلاة والسلام: " نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلَكْتُ عَادَ بِالذَّبُورِ " قيل: كانت هذه الريح معجزة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريباً منها، ولم يكن بينهم إلا عُرض الخندق، وكانوا في عافية منها. { و } لا شعور لهم بها. وأرسلنا عليهم { جنوداً لم تروها } وهو الملائكة، وكانوا ألقاً، فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفت النيران، وأكفأت القدور.

وكان سبب غزوة الأحزاب: أن نفرًا من اليهود، منهم ابن أبي الحقيق، وحَيِّي بن أخطب، في نفر من بني النضير، لما أجلاههم النبي صلى الله عليه وسلم من بلدهم، قَدِمُوا مكة فحَرَّضُوا قريشاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرجوا إلى غطفان، وأشجع، وفزارة، وقبائل من العرب، يُحَرِّضُونَهُمْ على ذلك، على أن يعطوهم نصف تمر حَيِّر كل سنة. فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن، والحارث بن عوف في مُرة، وسعد بن رخيلة في أشجع، وعامر بن الطفيل في هوازن.

فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بهم، ضرب الخندق على المدينة، برأي سليمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يؤمئذ حُر. وقال: يا رسول الله: إنا كنا بفارس، إذا حُوصرنا: حَنَدَقْنَا علينا، فحفر الخندق، وباشر الحفر معهم بيده صلى الله عليه وسلم. فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من الجُرف والغابة، في عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنوب تَقَمِّي، إلى جانب أحد. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الأطام.

واشتد الخوف، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام المشركون، بضعاً وعشرين ليلة، ولم يكن حرب غير الرمي بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمنّ معهما، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإِشهاد، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، فقال سعد بن معاذ: أشيء أمرك الله به، لا بدّ من العمل به، أم شيء تُحبه فتصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: " لا، بل شيء أصنعه لكم، أردت أن أكسر عنكم شوكتهم "

فقال سعد: يا رسول الله! لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة، إلا قِرِيء، أو شِراء، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا! لا نعطيهم إلا السيف. فقال عليه الصلاة والسلام: " فأنت وذاك " ، فمحا سعد ما في الكتاب، وقال: ليجهدوا علينا.

ثم إن الله تعالى بعث عليهم ريحاً باردة، في ليلة شاتية، فأحصرتهم، وأحنت الترابَ في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأكفأت القدور، وأطفأت النيران، وجالت الخيل بعضها في بعض. وأرسل الله تعالى عليهم الرُّعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل خباء يقول: يَا بَنِي فلان، علمُوا، فإذا اجتمعوا إليه قال: النَّجَا، النَّجَا، أوتيتم. فانهزموا من غير قتال.

{ وكان الله بما تعملون بصيراً } ، أي: بصيراً بعملكم، من حفر الخندق، ومعاونة النبي صلى الله عليه وسلم، والثبات معه، فيجازيكم عليه، وقرأ أبو عمرو: بالغيب، أي: بما يعمل الكفار؛ من البغي، والسعي في إطفاء نور الله، { إذ جاؤوكم } هو بدل من: { إذ جاءتكم }، { من فوقكم }؛ من أعلى الوادي، من قِبَل المشرق. وهم بنو غطفان. { ومن أسفل منكم }؛ من أسفل الوادي من قِبَل المغرب، وهو قريش. { وإذ زاغَتِ الأبصارُ }؛ مالت عن مستوى نظرها؛ حَيْرَةً وشخوصاً. أو: مالت إلى عدوها، لشدة الخوف، { وبلغت القلوبُ الحناجرَ }؛ رُعباً. والحنجرة: رأس العَلَصَمَة، وهي منتهى الحلقوم، الذي هو مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة، من شدة الفرع والغضب، رَبَّتْ، وارتفع بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.

رُوي أن المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: " نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وأمن روعاتنا."

{ وتظنون بالله الظنونا }؛ الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف؛ منهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم المنافقون. فظنُّ الأقوياء، المخلصون، التَّبُّثُ القلوب؛ أن ينجز الله وعده في إعلاء دينه، ويمتحنهم، فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون؛ فظنُّوا ما حكى عنهم، وهو الذين زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، دون الأقوياء رضي الله عنهم، وقرأ أبو عمرو وحمزة: { الظنون }؛ بغير ألف، وهو القياس. وبالألف فيهما: نافع، والشامي، وشعبة؛ إجراء للوصول مجرى الوقف. والمكي، وعلي، وحفص: بالألف في الوقف. ومثله:

{ الرَّسُولُ }

[الأحزاب: 66] و

{ السَّبِيلُ }

[الأحزاب: 67]، زادوها في الفاصلة، كما زادوها في القافية، كقوله:

" أَقْلِي اللَّوْمَ، عَاذِلَ؛ وَالْعِتَابَا "

وهو في الإمام: بالألف.

{ هنالك ابتلي المؤمنون } أي: اختبروا، فظهر المخلص من المنافق، والثابت من المنزل، { وزلزلوا زلزالاً شديداً }؛ وحركوا بالخوف، تحريكاً شديداً.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص؛ اذكروا نعمة الله عليكم بالتأييد والنصر، فحين تَوَجَّهْتُمْ إِلَيَّ، ودخلتم في طريق ولايتي، رفضتكم الناس، ونكرتكم، ورمتكم عن

قوس واحدة، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس من كل جانب، حتى هممتم بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار: مالت عن قصدتها؛ بالاهتمام بالرجوع، وبلغت القلوب الحناجر، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين، وتظنون بالله الظنون، فمنهم من يظن الامتكان بعد الامتحان، فيفرحون بالبلاء، ومنهم من يظن أنه عقوبة... إلى غير ذلك، هنالك ابتلي المؤمنون المتوجهون؛ ليظهر الصادق، في الطلب، من الكاذب فيه، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، ويظهر الخوافون من الشجعان، وزلزلوا زلزالاً شديداً؛ ليتخلصوا ويتمحصوا، كما يتخلص الذهب والفضة من الناس، ومن عرف ما قصد؛ هان عليه ما ترك.

قال القشيري: { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم.. } يعني: بمقابلتها بالشكر، وتذكر ما سلف من الذي دفع عنك، يهون عليك مقاساة البلاء في الحال. وبذكرك لما أولاك في الماضي؛ يقرب من الثقة بوصول ما تؤمل في الاستقبال. فمن جملة ما ذكرهم قوله: { إذ جاءتكم جنود.. } الآية: كم بلاء صرّقه عن العبد وهو لا يشعر، وكم شغل كنت بصدده، فصده عنك ولم تعلم، وكم أمر صرفه، والعبد يضج، وهو - سبحانه - يعلم أن في تيسيره هلاكه، فيمنعه منه؛ رحمة عليه، والعبد يتهمه ويضيق به صدّره. هـ.

يقول الحق جلّ جلاله: { و } اذكر { إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض } عطف تفسير؛ إذ هو وصف المنافقين، كقول الشاعر:

إلى الملك القرم، وابن الهمام وليت الكتيبة في المردح
فابن الهمام هو القرم، والقرم - بالراء - السيد. وقيل: { الذين في قلوبهم مرض } هم الذين لا بصيرة بهم في الدين من المسلمين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم، قالوا، عند شدة الخوف: { ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً }.

رؤي أن معتب بن قشير، المنافق حين رأى الأحزاب قال: إن محمداً يعدنا فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز، خوفاً، ما هذا إلا وعد غرور. هـ.

{ وإذ قالت طائفة منهم }؛ من المنافقين، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه: { يا أهل يثرب } ، وهم أهل المدينة، { لا مقام لكم } أي: لا قرار لكم هنا، ولا مكان تقيمون فيه - وقرأ حفص: بضم الميم - اسم مكان، أو مصدر، { فارجعوا } من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ هارين، أو: إلى الكفر، فيمكنكم المقام بها، أو: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى الشرك وأظهروا الإسلام لتسلموا، { ويستأذن فريق منهم النبي } أي: بنو حارثة، { يقولون إن بيوتنا عورة }؛ ذات عورة، أي: خالية غير حصينة، وهي مما يلي العدو. وأصلها: الخلل. وقرأ ابن عباس؛ بكسر الواو: (عورة)، يعني: قصيرة الجدران، فيها خلل. تقول العرب: دار فلان عورة؛ إذا لم تكن حصينة، وعورة المكان: إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق، ويجوز أن يكون عورة: تخفيف عورة.

اعتذروا أن بيوتهم عُرضة للعدو والسارق؛ لأنها غير محصنة، فاستأذنوا ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله تعالى بقوله: { وما هي بعورةٍ } ، بل هي حصينة، { إن يريدون إلا فراراً } من القتل.

{ ولو دُخِلت عليهم } مدينتهم، أو: بيوتهم. من قولك: دخلت على فلان داره. { من أقطارها } ، من جوانبها، أي: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة - التي يفرون؛ خوفاً منها - مدينتهم، أو بيوتهم، من نواحيها كلها؛ ناهبين سارقين، { ثم سئِلوا }؛ عند ذلك الفرع، { الفتنة } أي: الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، أو: القتال في العصبية، وهو أحسن؛ لأنهم مسلمون، { لأنثوا }؛ لجاؤوها وفعلوا. ومَن قرأ بالمد فمعناه: لأعطوها من أنفسهم، { وما تلبثوا بها }؛ بإجابتها وإعطائها، أي: ما احتسبوا عنها { إلا يسيراً } ، أو: ما لبثوا بالمدينة، بعد ارتدادهم، إلا زماناً يسيراً، ثم يهلكهم الله؛ لأن المدينة كالكير؛ تنفي خبثها، وينصع طيبها، والمعنى أنهم يتعللون بأعوار بيوتهم؛ ليفرّوا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم رُعباً، وهؤلاء الأحزاب كما هم؛ لو سألوهم أن يقاتلوا؛ فتنة وعصبية؛ لأجابوهم، وما تعللوا بشيء، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم، والعياذ بالله. الإشارة: وإذ قالت طائفة من شيوخ التربية لأهل الفناء: لا مقام تقفون معه؛ إذ قد قطعت المقامات، حين تحققت بمقام الفناء، فارجعوا إلى البقاء؛ لتقوموا بأداب العبودية، وتنزلون في المقامات ثم ترحلون عنها، كما تنزل الشمس في بروجها، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضي النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضي التوبة، وتارة ما يقتضي الخوف والهيبة، أي: خوف القطيعة، وتارة ما يقتضي الرجاء والبسط، وتارة ما يقتضي الشكر، وتارة الصبر، وتارة ما يقتضي الرضا والتسليم، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل في المقامات ويرحل عنها، ولا يقيم في شيء منها. ويستأذن بعض المريدين في الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام، أو شيء من أمور البدايات، يقولون: إن بيوت تلك المقامات لم تُتقنها، بل فيها عورة وخلل، وما هي بعورة، ما يريدون إلا فراراً من ثقل أعباء الحضرة. ولو دخلت بيوت قلوبهم من أقطارها، ثم سئلوا الرجوع إلى الدنيا لأنثوا؛ لأنها قريبة عهدٍ بتركها، وما تلبثوا بها إلا زماناً يسيراً، بل ييغتهم الموت، ويندمون، قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى.

@ { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا } * { قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ قَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَيْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا } * { قُلْ مَنْ دَلَّ الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل } أي: قبل غزوة الخندق، وهو يوم أحد. والضمير في " كانوا " لبني حارثة، عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، حين فشلوا، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله، وقالوا: { لا يؤلون الأدبار }؛ منهزمين أبداً، { وكان عهد الله مسؤلاً } عن الوفاء له، مُجازئٍ عليه، أو: مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. { قل لن ينفَعكم الفرارُ إن قررتم من الموت أو القتل } ، فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنفه، أو: قتل في وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم، { وإذا لا تُمتعون إلا قليلاً } أي: إن حضر أجلكم لم ينفَعكم الفرار، وإن لم يحضر، وفررتم، لن

ثُمْتَعُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا زَمَانًا قَلِيلًا، وَهُوَ مَدَّةُ أَعْمَارِكُمْ، وَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَ الْمَوْتِ الَّذِي لَا انْقِضَاءَ لَهُ.

{ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ } أي: يمنعكم مما أراد الله إنزاله بكم؛ { إن أراد بكم سوءاً } في أنفسكم، من قتل أو غيره، { أو أراد بكم رحمةً } أي: أراد بكم إطالة عمر في عافية وسلامة. أو: مَنْ يمنع الله من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمة، فَحَذِفْ؛ سوءاً، أو يصيبكم بشيء، إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام. { ولا يجدون لهم من دون الله ولياً } ينفعهم، { ولا نصيراً } يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: ولقد كان عاهدَ الله؛ مَنْ دخل في طريق القوم، ألا يولي الأديار، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير، وكان عهد الله مسؤولاً، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرداة، ولماذا حَرَمَ نَفْسَهُ من لذيذ المشاهدة؟ قل - لمن رجع، ولم يقدر على مجاهدة نفسه: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم، أو القتل؛ بمجاهدتها وتحميلها بعكس مرادها، وتحميلها ما يثقل عليها، وإذا لا تُمتعون إلا قليلاً، ثم ترحلون إلى الله، في غم الحجاب وسوء الحساب. قل: مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ، إن أراد بكم سوءاً؟ وهو البُعد والطرْد، أو: مَنْ يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة، وهي التقريب إلى حضرته، فلا أحد يعصمكم من إبعاده، ولا أحد يمنعكم من إحسانه؛ إذ لا وليَّ ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين، وارحمنا برحمتك الخاصة، حتى نُقَرَّبَنا إلى حضرتك، بفضل منك وجودك، يا أرحم الراحمين.

@ { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا } * { أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقُولُونَ الْبَأْسَ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { قد يعلم الله المعوّقين منكم } أي: يعلم مَنْ يُعَوِّقُ عن نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَمْنَعُ، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو، { والقائلين لإخوانهم } في الظاهر؛ من ساكني المدينة من المسلمين: { هَلُمَّ إِلَيْنَا }؛ تعالوا إلينا، ودعوا محمداً. ولغة أهل الحجاز في " هلم " أنهم يُسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون: هلم يا رجل، وهلموا يا رجال.. وهكذا. { ولا يأتون البأس }؛ الحرب { إلا قليلاً }؛ إلا إتياناً قليلاً، أو يحضرون ساعة، رياءً، ويقفون قليلاً، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. { أشِحَّةً عليكم }؛ جمع شحيح، وهو البخيل، نُصب على الحال من ضمير { يأتون } أي: لا يأتون الحرب؛ بخلاً عليكم بالمعونة أو بالنفقة في سبيل الله، أو: في الظفر والغنيمة، أي: عند الظفر وقَسَمُ الغنيمة. { فإذا جاء الخوف } من قبَل العدو، أو: منه صلى الله عليه وسلم، { رأيتهم ينظرون إليك }؛ في تلك الحالة، { تدور أعينهم } يميناً وشمالاً { كالذي يُغشى عليه من الموت }؛ كما ينظر المغشي عليه معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ولو أداً بك.

{ فإذا ذهب الخوف } أي: زال ذلك الخوف وأمنوا، وحيزت الغنائم { سلقوكم بالسنة جِدَادٍ }؛ خاطبوكم مخاطبة شديدة، وأذوكم بالكلام، يقال: خطيب سلق؛ فصيح، ورجل

مَسْلُوقٌ وَسَلَّاقٌ: مبالغ في الكلام. يعني: بسطوا ألسنتهم فيكم، وقت قسم الغنيمة، ويقولون: أعطنا؛ فإننا قد شهدنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم. { أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ } أي: خاطبوكم؛ أشحة على المال والغنيمة. فهو حال من فاعل سلقوكم، فهم أشح القوم عند القسم، وأجنبهم عند الحرب، { أولئك لم يؤمنوا } في الحقيقة، بل بالأسنة فقط، { فأحبط الله أعمالهم }؛ أبطلها، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة، { وكان ذلك } الإحباط { على الله يسيراً }؛ هيناً.

الإشارة: هذه صفة منافقي الصوفية، يدخلون معهم على تذبذب، فإذا رأوا قوماً توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب طواهرهم، أو: أرادوا الخروج عن دنياهم، عَوَّفُوهُمْ عن ذلك، وثبطوهم، وكذلك إذا توجهوا في سفر لشقة بعيدة؛ ليستتروا بهم، وقالوا لأخوانهم في الطريق: هلم إلينا، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلاً. أشحة بأنفسهم عليكم، فإذا جاء الخوف، وتجلى لهم الحق تعالى باسمه الجليل؛ بأن نزلت بالفقراء محنة، رأيتهم ينظرون إليك، تدور أعينهم، نظر المغشي عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف، وجاء النصر والعز؛ سلقوكم بالأسنة حداد، وقالوا: إنا كنا معكم، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. والله تعالى أعلم.

@ { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يَحْسَبُونَ } أي: هؤلاء المنافقون { الأحزاب } ، يعني: قريشاً وغطفان، الذين تحزّبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: اجتمعوا، أنهم { لم يذهبوا } ولم ينصرفوا؛ لشدة جبنهم، مع أنهم انصرفوا. { وإن يأت الأحزاب } كرة ثانية؛ { يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب } ، والبادون: جمع باد، أي: يتمنى المنافقون - لجبنهم - أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب؛ ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب، { يسألون } كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ { يتساءلون } ، بالشدة. أي: يتساءلون، بعضهم بعضاً { عن أنبائكم }؛ عن أخباركم و عما جرى عليكم، { ولو كانوا } أي: هؤلاء المنافقون { فيكم } أي: حاضرهم في عسكركم، وَصَرَ قِتَالٌ، { ما قاتلوا إلا قليلاً }؛ رياءً وسمعة، ولو كان لله؛ لكان كثيراً؛ إذ لا يقل عمل لله.

الإشارة: الجبان يخاف والناس آمنون، والشجاع يأمن والناس خائفون، ولا ينال من طريق القوم شيئاً جباناً ولا مستحي ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء: أنهم، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة - كما أمّثجن الجنيد وأصحابه - يتمنون أنهم خارجون عنهم، وربما خرجوا بالفعل، وإن ذهبت شوكتهم؛ يحسبون أنهم لم يذهبوا؛ لشدة جزعهم. ومن أوصافهم: أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم، والبحث عما جرى بهم؛ خوفاً وجزعاً، ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئاً. والله تعالى أعلم.

@ { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } * { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ }

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا } * { مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَصَبْنَا نَجَبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } * { لِيَجْزِيَ اللَّهُ
الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا }

يقول الحق جل جلاله: { لقد كان لكم في رسول الله }؛ محمد صلى الله عليه وسلم {
أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ}؛ حَصَلَةُ حَسَنَةٍ، من حقها أن يُؤْتَسَى بها؛ كالثبات في الحرب، ومقاساة
الشدائد، ومباشرة القتال. أو: في نفسه قدوة يحسن التأسى به. كما تقول: في البيضة
عشرون رطلاً من حديد، أي: هي في نفسها عشرون. وفيه لغتان: الضم والكسر،
كالعدوة والعدوة، والرثوة والرثوة. وهي { لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ } أي:
يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو: لأجل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. و " لمن "؛ قيل:
بدل من ضمير " لكم " ، وفيه ضعف؛ إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما يدل على
الإحاطة. وقيل: يتعلق بحسنة، أي: أسوة حسنة كائنة لَمَنْ آمَنَ، { وذكر الله كثيراً }
أي: في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، فإن المؤتسي بالرسول يكون كذلك.

{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ } قد أقبلوا عليهم؛ ليستأصلوهم، وقد وعدهم الله أن
يسلط عليهم المحن؛ وَبُرِّلُوا حَتَّى يَسْتَغِيثُوا وَيَسْتَنْصِرُوا بقوله:
{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ .. }
[البقرة:214] إلى قوله:

{ تَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ }

[البقرة: 214]، فلما جاء الأحزاب واضطربوا؛ { قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله } ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّصْرَةَ قَدْ وَجِبَتْ لَهُمْ. وعن ابن عباس رضي الله
عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " إِنَّ الْأَحْزَابَ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ، فِي آخِرِ
تِسْعِ لَيَالٍ، أَوْ عَشْرٍ " ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد، قالوا ذلك. و { هذا }؛ إشارة إلى
الخطب والبلاء، أي: هذا الخطب الذي وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، { وما
زادهم } ، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم، { إلا إيماناً } بالله وبمواعيده
{ وتسليماً } لقضائه وأقداره.

{ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه } أي: صدقوا فيما عاهدوه، فحذف
الجار، وأوصل المفعول إلى " ما "؛ وذلك أن رجالاً من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حرباً
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا، وقتلوا حتى يُسْتَشْهِدُوا، وهم: عثمان بن
عفان، وطلحة، وسعيد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر، وغيرهم. { فمنهم
مَنْ قَضَى نَجَبَهُ }؛ نذره؛ بأن قاتل حتى استشهد؛ كحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر.
والتَّحَبُّ: النذر، واستعير للموت؛ لأن كل حي من المحدثات لا بد له أن يموت، فكأنه نذُرٌ
لازم في رقبته، فإذا مات؛ فقد قضى نجه، أي: نذره. وقال في الصحاح: النحب: النذر،
ثم قال: والتَّحَبُّ: المدة والوقت. يقال: قضى فلان نَجَبَهُ، إذا مات. هـ. فهو لفظ
مشترك بين النذر والموت. وصحح ابن عطية أن النحب الذي في الآية ليس من شرطه
الموت. بل معناه: قَضَى نذره الذي عاهد الله عليه من نصره الدين، سواء قُتِلَ أو بقي
حيًّا.

بدليل قوله - عليه الصلاة والسلام - في طلحة: " هذا ممن قَضَى نَجَبَهُ " هـ.

{ ومنهم مَن ينتظرُ } أي: الموت على الشهادة؛ كعثمان وطلحة، { وما بدلوا }؛ العهد { تديلاً }؛ ولا غيروه، لا المسْتَشْهَد، ولا مَن ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمَن بدل من أهل النفاق، كقوله تعالى فيما مر: { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآذِتَارَ... } [الأحزاب: 15]. { ليجزي الله الصادقين بصدقهم }؛ بوفائهم بالعهد، { ويُعذّب المنافقين إن شاء } إذا لم يتوبوا، { أو يتوب عليهم } إن تابوا { إن الله كان غفوراً } يقبول التوبة، { رحيماً } بعفو الحوبة.

الإشارة: قد تقدّم ما يتعلق بالافتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - والاهتداء بهديه، وأنه منهاج الأكابر. وقوله تعالى: { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ... } الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيماناً وتسليماً، ويقيناً وطمأنينة، وتحققوا بصحة الطريق؛ إذ هو منهاج السائرين والأولياء الصادقين، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: 2] الآية. وتقدم في إشارتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم: نحن كالنجوم، كلما اشتدت الظلمة قَوِيَ نُورُنَا. وقال القشيري: كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين زادوا ثِقَةً، وعلى الأعداء جرأة، ولحكم الله استسلاماً. وفي الله قوة. ثم قال: قوله تعالى: { من المؤمنين رجال صدقوا... } الآية، شَكَرَ صَنِيعَهُمْ فِي الْمِرَاسِ، ومدح يقينهم عند شهود الناس، وسمّاهم رجالاً؛ إثباتاً لهم بالخصوصية في الرتبة، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلو الحال، فمنهم مَن خرج من دنياه على صدقه، ومنهم مَن ينتظر حكم الله في الحياة والممات، وحقيقة الصدق: حفظ العهد وترك مجاوزة الحد. ويقال: استواء السرّ والجهر. ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمر جدّاً.

قوله تعالى: { ... ليجزي الله الصادقين بصدقهم.. } في الدنيا بالتمكين، والنصرة على العدو، وإعلاء الرتبة، وفي الآخرة بجزيل الثواب، وجميل المآب، والخلود في النعيم المقيم، والتقدم على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله: { ويُعذّب المنافقين إن شاء } يقال: إذا لم يجز بعقوبة المنافق، وتعلق القول فيه على الرجاء، فبالحريّ ألا يُخَيَّبَ المؤمنَ في رجائه. انتهى كلام القشيري.

يقول الحق جلّ جلاله: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } أي: الأحزاب { بَعِيْظِهِمْ }؛ ملتبسين بغيظهم، فهو حال كقوله: { تَنَبُّتٌ بِالذَّهْنِ }

[المؤمنون: 20] أي: ردهم غائظين { لم ينالوا خيراً }؛ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه " خيراً " بزعمهم، وهو أيضاً حال، أي: غير ظافرين، { وكفى الله المؤمنين القتال } بالريح، والملائكة، { وكان الله قوياً عزيزاً }؛ قادراً غالباً، فقهرهم بقدرته وغلبهم بقهرته. { وأنزل الذين ظاهروهم }؛ عاونوا الأحزاب وجاؤوا بهم { من أهل الكتاب }، يعني بني قريظة، أنزلهم { من صياصبيهم }؛ من حصونهم. والصيصة: ما يتحصن به. قال الهروي: وكل ما يتحصن به فهو صيصة، ويقال لقرون البقر والظبي:

صَيَّاصِي؛ لأنها تتحصن بها، وفي وصف أصحاب الدجال: " شواربهم كالصياصي " ،
لطولها، وفتلها، فصارت كالقرون. هـ.

رُوي أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم
فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة - على فَرَسِه الحيزوم، والعُبار على وجه
الْفَرَسِ والسَّجْح، فقال: ما هذا جبريلُ؟ فقال: من مُتَابِعَةِ قُريش. ثم قال: إن الله
يأمرُك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عائذُ إليهم، فإن الله دافعهم دَقَّ البيض على الصَّفا،
وهم لكم طُعْمَةٌ.

وفي رواية: لَمَّا رجع - عليه الصلاة والسلام - ودخل مغتسله، جاءه جبريل بعمامة من
استبرق، على بغلة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعت
الملائكةُ السلاحَ، وما رجعت إلا من طلب القوم، وإن الله يأمرُك بالمسير إلى بني
قريظة. فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس: أن من كان سَامِعاً مُطِيعاً
فلا يُصلين العَصْرَ إلا في بني قريظة. فخرج إليهم، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تنزلون على حُكْمِي؟ فأبَوْا، فقال: تنزلون على
حكم سَعْدِ بن مُعَاذٍ؟ فرضوا به. فقال سعد: نحكم فيهم: أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى
دَرَارِيهِمْ ونسأؤُهُمْ. فكَبَّرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال: " لقد حكم فيهم بحكم الله
من فوق سبع أرقعة " .

ثم استنزلهم، وحنَّدَقَ في سوق المدينة خندقاً، وقدَّمَهُمْ، فضرب أعناقهم. وهم من
ثمانمائة إلى تسعمائة. وقيل: كانوا ستمائة مقاتل، وسبعمائة أسير، فقتل المقاتلة،
وقسم الأسارى، وهم الذراري والنساء. وكان عليٌّ والزيبر رضي الله عنهما يضربان
أعناق بني قريظة. والنبي صلى الله عليه وسلم جالس هناك. والقصة مطولة في كتب
السير.

{ وقدَفَ في قلوبهم الرعبَ { الخوف. وفيه السكون والضم، { فريقاً تقتلون { وهم
الرجال { وتأسرون فريقاً { وهم النساء والذراري. قالت عائشة رضي الله عنها: لم
يقتل صلى الله عليه وسلم من نساء بني قريظة امرأة إلا واحدة، قتلها بخلاص بن سويد،
كانت شيدخت رأسه بحجر من فوق الحصن.
@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعْكُنَّ
وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً { * { وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً {

يقول الحق جلَّ جلاله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ { وكن تسعاً؛ خمساً من قريش:
عائشة بنت الصديق، وحفصة بنت الفاروق، وأم حبيبة بنت سفيان، وسودة بنت زمعة،
وأم سلمة بنت أبي أمية، وصفية بنت حيي الخيرية، من بني إسرائيل، من ذرية هارون
عليه السلام، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت
الحارث المصطلقية. أي: فقل لهن { إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا { أي: التوسعة
في الدنيا وكثرة الأموال والحلل، { فتعالين { أي: أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل "
تعال " أن يقوله مَنْ فِي الْمَكَانِ الْمَرْتَفِعِ لِمَنْ فِي الْمَكَانِ الْأَدْنَى، ثم كثر استعماله في
كل أمر مطلوب. { أُمَتَّعْكُنَّ { أي: أعطكن متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة

إلا المفوضة قبل الوطاء مع أخواتها، كما في كتب الفقه. { وأَسْرَحُكُنَّ } أطلقكن { سَرَا حًا جَمِيلًا } لا ضرر فيه.

وقيل: سبب نزولها: أنهن سألنه زيادة النفقة، وقيل: أذينه بغيره بعضهن من بعض، فاعْتَمَّ - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل: هجرهن شهراً، فنزلت، وهي آية التخيير. فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه، فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرخ في وجهه صلى الله عليه وسلم، ثم اختارت جميعهن إختيارها. وروي أنه قال لعائشة: " إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، وَلَا عَلَيْكَ إِلَّا تَعَجَّلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبِيكَ " ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا الْآيَةَ، فَقَالَتْ: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبِي؟ فَإِنِّي أَرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ.

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت نفسي، أن تقع تطليقة واحدة بائنة، وإذا اختارت زوجها؛ لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزي: وإذا اختارت المرأة الطلاق؛ فمذهب مالك: أنه ثلاث، وقيل: طلقة بائنة. وقيل: رجعية. ووصف السراح بالجميل؛ يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث، أو: يريد الثلاث، وجماله: حسن المرعى، والثناء، وحفظ العهد. هـ.

{ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ { " من " : للبيان، { أجراً عظيماً } فاخترن رضي الله عنهن ما هو مناسب لحاله - عليه الصلاة والسلام - حين خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، أَوْ نَبِيًّا مَلِكًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، لَا مَلِكًا. فاخترن العبودية، التي اختارها عليه الصلاة والسلام.

الإشارة: ينبغي لمن قلده الله نساء متعددة أن يخيرهن، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا يخلو من حال الغيرة، فإذا خيّرهن فينبغي أن يغيب عن تشغيبهن، ولم يصغ بأذنه إلى حديثهن، ولا ينبغي أن يغتم من أجل الغيرة، فإنها طبع لازم للبشر، وليقدّر في نفسه: أنه إذا تزوجت زوجته غيره، وهي في عصمته، هل يقدر على ذلك أم لا، فالأمر واحد. والله أعلم.

قال القشيري: لم يُرد أن يكون قلب واحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى واحد منهم أذى، أو تعب من الدنيا، فخيّر صلى الله عليه وسلم بأمر ربه نساءه، ووفق الله عائشة، حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها وبقينها، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جربن على منهاجها، وتسنجن على منوالها. هـ.

@ { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَا تِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } * { وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُوتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة } بسينة بليغة في الفحج { مُّبِينَةٌ } ظاهرة فحشها، من: بين، بمعنى: تبين. وقرأ المكي وشعبة بفتح الباء، وهي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشوزهن. قال في المقدمات: كل فاحشة

تُعتت في القرآن بالبينه فهي بالنطق، والتي لم تُنعت بها زنى. هـ. { يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ } أي: ضعفي عذاب غيرهن من النساء؛ لأن الذنب منهن أقبح؛ فإنَّ قُبْحَ الذنب يتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه، ولذلك قيل: ليست المعصية في القرب كالمعصية في البعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح، وفي الحديث: " أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه "؛ لقوة الجرأة في العالم دون غيره. ولهذا أيضاً فضل حدِّ الأحرار على العبيد، ولم يرجح الكافر. { وكان ذلك } أي: تضعيف العذاب عليهن { على الله يسيراً } هيناً.

{ ومن يَفْعُثْ مِنْكَ } أي: يدم على الطاعة { لله ورسوله وتعمل صالحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مرتين } أي: مثل ثوابي غيرها، مرة على الطاعة، ومرة على طلبهن رضا النبي صلى الله عليه وسلم، بالقناعة، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب على لفظ " من "، { وأعتدنا لها رزقاً كريماً } جليل القدر، وهو الجنة.

الإشارة: من شأن الملك أن يُعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يُعطي غيرهم، فإن هفوا وزلوا عاتبهم، ثم يرددهم إلى مقامهم، وربما سمح وأغضى. والغالب: أن الحق تعالى يعجل عتاب خواصه، في الدنيا قبل الآخرة، بمصائب وأهوال، تصفيةً وتطهيراً، ولا يُبْعِدُهُمْ مِنْ حَضْرَتِهِ بِمَا اقْتَرَفُوا. قال القشيري: زيادة العقوبة على الجُرم من أمارات الفضيلة، كحدِّ الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص، ولَمَّا كَانَتْ مِنْزَلُتُهُنَّ فِي الشَّرْفِ تَزِيدُ وَتُرَبُّو عَلَى مَنْزِلَةِ جَمِيعِ النِّسَاءِ، تَضَاعَفَتْ عَقُوبَتُهُنَّ عَلَى أَجْرَامِهِنَّ، وَتَضَاعَفَ ثَوَابُهُنَّ عَلَى طَاعَتِهِنَّ، فَقَالَ: { ومن يقنت منكن لله... } وقال: { لستن كأحد من النساء... } الآية هـ. والله تعالى أعلم.

@ { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا } * { وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } * { وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا }

يقول الحق جل جلاله: { يا نساء النبي لستن كأحد من النساء } أي: لستن كجماعة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء، جماعة جماعة، لم توجد منهن جماعة واحدة تُساويكن في الفضل، فكما أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كأحد من الرجال، كما قال: " إني لستُ كأحدكم... " كذلك زوجاته التي تُشرفن به. وأصل " أحد "؛ وَحْدٌ، بمعنى: واحد، فوضع في النفي العام، مستويًا فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه، أي: لستن في الشرف كأحد من النساء، { إن اتقيتن } مخالفة الله ورضا رسوله، { فلا تخضعن بالقول } أي: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجتن بقولكن خاضعاً، أي: لنا ختاً مثل قول المُرَبَّيات، { فيطمع الذي في قلبه مرض } ريبة، وفجور، وهو جواب النهي، { وقلن قولاً معروفاً } حسناً مع كونه خشيناً.

{ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ } أي: استكين فيه، والزمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح، وهو من: قَرَّرَ يَقَرُّرُ، لغة في قَرَّ بالمكان، وأصله: اقَرَّرن، فحذفت الراء، تخفيفاً، وألقت فتحها على ما قبلها. وقيل: من: قار يقار: إذا اجتمع. والباقون بالكسر، من: قَرَّ بالمكان يَقَرُّ - بالكسر، وأصله: اقَرَّرن، فنقلت كسرة الراء إلى القاف، وحذفت الراء. وقيل: من: وَقَرَّ يَقَرُّ وقاراً.

{ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى } أي: لا تتبخترن في المشي تبختر أهل الجاهلية، فالتبُّج: التبختر في المشي وإظهار الزينة، أي: ولا تبرجن تبرجاً مثل { تبرج الجاهلية الأولى } أي: القديمة، وهو الزمان الذي وُلد فيه إبراهيم عليه السلام، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ، وتعرض نفسها على الرجال، زمان نمرود الجبار، والناس كلهم كفار. أو: ما بين آدم ونوح عليهما السلام ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون، ورجالهم حِسْبَان، فتريده المرأة على نفسها. أو: زمن داود وسليمان عليهما السلام، وكان للمرأة قميص من الدرّ، غير مخيط الجانبين، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام أو: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام.

{ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ } خصهما بالذكر؛ تفضيلاً لهما؛ لأن من واطب عليهما جرتاه إلى غيرهما. { وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } في سائر ما أمركن به، ونهاكن عنه.

{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } أي: يا أهل البيت، أو: أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. قال البيضاوي: وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلي وإنيهما، لما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج ذات غدوة عليه مِرْطٌ مُرَّحَلٌ من شعر أسود، فجاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء علي، فأدخله فيه، ثم جاء الحسن والحسين، فأدخلهما فيه، فقال:

" إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت... " والاحتجاج بذلك على عصمتهم، وكون اجتماعهم حجة، ضعيف؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت، لا أنه ليس غيرهم. هـ. وإنما قال: { عنكم } لأنه أريد الرجال والنساء. والرجس: كل ما يدنس، من ذنب، أو عيب، أو غير ذلك، وقيل: الشيطان.

{ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً } من نجاسات الآثام والعيوب، وهو كالتعليل لما قبله، فإنما أمرهن، ونهاهن، ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس، من المأثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث يده بالأرجاس وأما من تحصن منها فعرضه مصون، نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولي الألباب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار، وترغيب لهم في كل ما يطهر القلوب والأسرار، من الطاعات والأذكار.

{ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } القرآن { والحكمة } السُنَّة، أو: بيان معاني القرآن، أو: ما يُتلى عليكم من الكتاب الجامع بين الأمرين. { إن الله كان لطيفاً } عالماً بغوامض الأشياء، { خبيراً } عالماً بحقائقها، أو: هو عالم بأقوالكن وأفعالكن، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: علق الحق تعالى شرف نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتفضيلهن على سبعة أمور، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول: تقوى الله في السر والعلانية، وهي أساس الشرف. الثاني: التحصن مما يُوجب ميل الرجال إليهن؛ من التختُّ في الكلام وغيره. الثالث: لزوم البيوت والقرار بها. وقد مدح الله نساء الجنة بذلك فقال:

{ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ }

[الرحمن: 72]. الرابع: عدم التَّبُّج، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس: إقامة الصلاة وإتقانها وإيتاء الصدقة. السادس: طاعة الله ورسوله، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع: لزوم ذكر الله، وتلاوة كتابه لمن تُحسن ذلك في بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور؛ أذهب الله عنها دنس المعاصي والعيوب، وطهرها تطهيراً، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { إن المسلمين والمسلمات } أي: الداخلين في الإسلام، المنقادين لأحكام الله قولاً وفعلاً، فالمسلم: هو الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يُعاند، أو: المفوض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من: أسلم وجهه إلى الله، { والمؤمنين والمؤمنات } المصدّقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدّق به، { والقانتين والقانتات } المداومين على الطاعة، { والصادقين والصادقات } في النيات، والأقوال، والأفعال، { والصابرين والصابرات } على الطاعات وترك السيئات، { والخاشعين والخاشعات } المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين؛ { والمتصدّقين والمتصدّقات } فرضاً ونفلاً، { والصائمين والصائمات } فرضاً ونفلاً. وقيل: مَنْ تصدّق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومَنْ صام البيض من كل شهر، فهو من الصائمين، { والحافظين فروجهم والحافظات } عما لا يحلّ، { والذاكرين الله كثيراً والذاكرات } بقلوبهم وألسنتهم، بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم لله، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف " كثيراً " في حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.

وقال عطاء: مَنْ فوّض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: { إن المسلمين والمسلمات } ، ومَنْ أقرّ بأن الله ربه، وأن محمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسأته، فهو من المؤمنين والمؤمنات، ومَنْ أطاع الله في الفرض، والرسول في السنّة، فهو داخل في قوله: { والصادقين والصادقات } ، ومَنْ صلى فلم يعرف مَنْ عن يمينه وعن شماله، فهو داخل في قوله: { والخاشعين والخاشعات } ، ومَنْ صبر على الطاعة وعن المعصية، وعلى الذرية، فهو من { الصابرين والصابرات } ، ومَنْ تصدّق في كل أسبوع بدرهم، فهو من المتصدقين والمتصدقات، ومَنْ صام في كل شهر أيام البيض، الثالث عشر وما بعده، فهو من الصائمين والصائمات، ومَنْ حفظ فرجه عما لا يحلّ؛ فهو من

الحافظين فروجهم والحافظات، ومَن صَلَّى الصلوات الخمس بحقوقها؛ فهو من
الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

قال ابن عباس: (جاء إسرافيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا
محمد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله،
عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم. مَن قالهن كُتبت له ست خصال؛ كتب من
الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وكان أفضل ممن ذكره في الليل والنهار، وكان له
عرش في الجنة، وتحاتت عنه ذنوبه، كما تحات ورق الشجر اليابس، وينظر الله إليه،
ومَن نظر إليه لم يعذبه). وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات
حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضجعاً. هـ. من الثعلبي.

وسئل ابنُ الصلاح عن القَدْر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال: إذا
واظب على الأذكار المأثورة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً
ونهاراً، كان من الذاكرين كثيراً.

هـ. قلت: وقد تتبعت ذلك في تأليف مختصر سميته: " الأنوار السنية في الأذكار النبوية
".

هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضروري كقوله:
{ تَيَّبَاتٍ وَأَبْكَارًا }

[التحريم: 5]. وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين، وليس بضروري، ولو
قال: " إن المسلمين والمسلمات المؤمنات والمؤمنات " بغير واو لجاز، كقوله:
{ مسلمات مؤمنات قانتات... الخ، وهو من عطف الصفة، ومعناه: إن الجامعين
والجامعات لهذه الصفات. { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً } لِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، { وَأَجْرًا
عَظِيمًا } على طاعتهم. قال البيضاوي: والآية وعد لهن، ولأمثالهن، على الطاعة
والتدبُّرُ بهذه الخصال. رُوي أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن: ذكر الرجال في
القرآن بخير مما فينا خير، فنزلت. هـ.

الإشارة: اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يُسمى إسلاماً،
وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يُسمى إيماناً، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يُسمى
إحساناً. قال في البغية: فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، ذلك
من عالم الشهادة، والإيمان يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، وذلك من
عالم الغيب، وهي الأعمال الغيبية، ولَمَّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة،
وأشرقت عليها من ذلك أنوار، وتعلقت همتها بعالم الغيب، مالت إلى الوفاء بالأعمال
الباطنية، ثم لَمَّا تمكنت في الأعمال الباطنة، واطلعت على عالمها، وأشرفت على
طهارتها، وتعلقت همتها بعالم الملكوت، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية، ومن
هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال: فإذا
تبين هذا، فالإسلام له معنى يخصه، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين،
مع ما لا بد منه من التصديق. والإيمان له معنى يخصه، وهو تصديق القلب بجميع ما
تضمنه الدين من الأخبار الغيبية، مع ما لا بد منه من شُعبه. والإحسان له معنى يخصه،

وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها، وأتم وظائفها، خالصة من جميع شوائب عِللها، سالمة من طوارق آفاتها. هـ.

قلت: ولا يكفي في مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط، بل لا بد فيه من كشف حجاب الكائنات، حتى يُفضي إلى شهود المكوّن، فيعبد الله على العيان. كما في الحديث: " أن تعبد الله كأنك تراه " فإذا تقرّر هذا؛ فالآية مشتملة على تدرّج السلوك؛ فأول مقامات المرید: الإسلام، ثم الإيمان، كما في الآية، ثم يكون من القانتين المداومين على الطاعة، ثم يكون من الصادقين في أقواله، وأفعاله، وأحواله، صادقاً في طلب مولاه، غائباً عن كل ما سواه، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس، ومقاساة الأحوال، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيري: من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة، وعند جريان مفاجات القضية. هـ. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال، مشاهداً لكمال أنوار الجمال. قال القشيري: الخشوع؛ إطراق السريرة عند بوايه الحقيقة. هـ.

ثم يتحقق بأوصاف الكمال؛ كالسخاء والكرم، فيبذل ما عنده في مرضاة ربه، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم، ثم يصوم عن شهود السّوى، ثم يحفظ فرجه عن وقاع الشهوة والهوى، فلا ينزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، إلا بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. ثم يكون من المُستَهْتَرين بذكر الله، أعني ذكر الروح والسر، وهو مقام الإحسان، الذي هو محل العيان، فيكون ذاكراً بالله، مذكوراً في حضرة الله، مشهوراً في ملكوت الله. جعلنا الله منهم بمته وكرمه.

@ { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ وَجَدَ لِنَفْسِهِ لُذِيًّا نِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * } * { مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَفْعُورًا * } { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا }

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ وَجَدَ لِنَفْسِهِ لُذِيًّا نِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... } .

يقول الحق جلّ جلاله: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة } أي: ما صحّ لرجل مؤمن، ولا امرأة مؤمنة، { إذا قضى الله ورسوله أمراً } من الأمور { أن يكون لهم الخيرة من أمرهم } أي: أن يختاروا من أحدهم شيئاً، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره.

نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها عبد الله بن جحش. وكانت زينب بنت أميمة بنت عبد المطلب، عمّة النبي صلى الله عليه وسلم، فخطبها - عليه الصلاة والسلام - لمولاه زيد بن حارثة، فلما خطبها، ظنت أنه يخطبها لنفسه، فرضيت، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت، وقالت: أنا أم نساء قريش، وابنة عمك، فلم أكن أرضه لنفسي، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة، وكان فيها بذاذة، فأنزل الله الآية، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى الله ورسوله. فلما نزلت الآية إلى قوله: { مبيناً } قالت: رضيتُ يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها، فأنكحها صلى الله عليه وسلم زيدا، فدخل بها، وساق إليها النبي صلى الله عليه وسلم عشرة دنائير، وستين درهماً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر. وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقبلها، وقال: زوجتها من زيد، فسخطت هي وأخوها، وقالوا: إنما أردنا النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت. والأول أصح.

وإنما جمع الضمير في " لهم " ، وكان من حقه أن يُوحَّد؛ لأن المذكورين وقعا نكرة في سياق النفي، فعماً كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير إلى المعنى، لا إلى اللفظ. والخيرة: ما يُتخير، وفيه لغتان: سكون الياء، وفتحها، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل؛ لمجاز تأنيثها.

{ ومن يَعصِ اللهَ ورسولَهُ } فيما اختار وقضى { فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً } بين الانحراف عن الصواب. فإن كان العصيانُ عصيانَ ردِّ وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيانَ فعلٍ، مع قبول الأمر، واعتقاد الجوب، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثت عند زيد زماناً، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد، لحاجة، فأبصرها في درع وخبمار، فوقع في نفسه، وذلك لما سبق في علم الله من كونها له. فقال: " سبحان مقلب القلوب " ، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها، لا تُريدها، فانصرف، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، فطَينَ، وألقى في نفسه كراهيتها والرغبة عنها في الوقت، وقال: يا رسول الله! إني أريد فراق صاحبتني؟ فقال: " ما لك، أَرَأَيْتَ منها شيء؟ " فقال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، إلا أنها تتعظم عليّ، لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أمسك عليك زوجك واتقِ الله " .

وهذا معنى قوله: { وإذ تقول للذي أُنعمَ اللهُ عليه } بالإسلام الذي هو من أجلّ النعم { وأنعمتَ عليه } بالإعتاق والتبني، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو زيد بن حارثة: { أمسك عليك زوجك } زينب، { واتقِ الله } فلا تطلقها، وهو نهى تنزيهه، أو: اتقِ الله، فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج، { وتخفي في نفسك ما الله مُبدٍه } أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وقد أبداه الله وأظهره، وقيل: الذي أخفاه في نفسه: تعلق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها.

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والصواب أن المعنى: وتُخفي في نفسك ما اطلعت عليه؛ من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده، فإن هذا هو الذي أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله: { وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه } فإنما يعني به الحياء من الناس في أن يقابلهم بما يسوؤهم، وهو إخبار زيد بما أطلعه الله عليه من

صيرورة زوجته زينب له، بعد مفارقة زيد لها، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك، وإلا لبلغ من غير روية ولا حشمة، سالكاً في ذلك سُنَّة مَنْ خلا قبله من الأنبياء، الذين لا يخشون في التبليغ أحداً إلا الله.

وقال القشيري: أي: تخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة في قصة زيد [والفتنة التي يقعون فيها هي ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها، وأمره بطلاقها] وكانت تلك الخشية إشفافاً منه عليهم، ورحمة لهم ألا يُطيقوا سماع هذه الحالة، بأن يخطر ببالهم ما ليس في وسعهم. وأما قوله: { أمسك عليك... } الآية - مع علمه بما يؤول إليه الأمر في العاقبة، بما أطلعه الله عليه من فراقه لها - فإقامة الشريعة. هـ. ملخصاً.

وفي الوجيز: { وتخشى الناس } أي: تكره مقالة الناس لو قلت طَلَّقَهَا، فيقال: أمر رجلاً فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل في نواذر الأصول عن علي بن الحسين: أن الله أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه، فأخفى ذلك. فلما جاء زيد يشكوها؛ قال له: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، قال: فعلي بن حسين جاء بها من خزانة العلم، جوهرًا من الجواهر، ودَّرًا من الدرر، وأنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه، ثم قال بعد ذلك لزيد: أمسك.

رعاية لما يقال، وتركاً لتدبير الله، مع كونه أحق بالرعاية، وكيف، وفي ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض الله له فيما أعلمه. ثم قال: والحاصل أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يلمَّ بخطيئة، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار، وإنما أخبره بما أضمر في نفسك، خشية افتتان الغير، والله أحق أن يخشى، بأن يتهل إليه؛ ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة: الصواب: أن ما أخفاه في نفسه هو: أن الله أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال، لأنه تنقيص لم يرد في حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون. هـ. قلت: إنما يكون تنقيصاً إذا كان ذلك الواقع في القلب ثابتاً، وأما إن كان خاطراً ما رآ فلا نقص؛ إذ ليس في طوق البشر؛ لأنه من أوصاف العبودية، بل الكمال في دفعه بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة، على قوله: { وتخشى الناس } هو تمهيد لعذره، وإن كان لمجرد أمر الله له بذلك، ولا ينبغي حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد: عتابه على خلط خوفه من الله بخوفه من الناس، وأمره ألا يخاف إلا من الله فقط، خوفاً غير مشوب بشيء. هـ. قلت: إذا فسرنا الخشية بالحياء لا يحتاج إلى هذا التعسف، مع أن الخوف من الخلق مذموم، وحده أو مع خوف الله، والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك، أي: تستحي من الناس أن يقولوا: نكح امرأة ابنه، وكان - عليه الصلاة والسلام - أشد الناس حياءً من العذراء في خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى: { والله أحق أن تخشاه } فتنبيه على أن الحياء في بعض المواضع تركه أولى، فهو ترقية له، وتربية لوقت آخر. أو: وتخشى أن يفتتن الناس بذلك، والله أرحم بهم من غيره، فالله أحق أن تخشى، فتبتل إليه في زوال ذلك عنهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهار. وفي الحكم: " ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله ".

فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلماً لقهره، وفي الظاهر متمثلاً لأمره، تابعاً لسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولَمَّا يُوجب رضاه ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يُعاتبون على ما لا يُعاتب عليه الخواص. والخواص، يُعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلما علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر تزوجه - عليه الصلاة والسلام - لزینب بعد مفارقة زيد، فقال:

{ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا }.

يقول الحق جلّ جلاله: { فلما قضى زيدٌ منها وطراً } حاجة، بحيث ملّها ولم تبق له فيها حاجة. والوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، يقال: قضى منه وطراً، أي: فلما قضى حاجته منها، وطلقها، وانقضت عدّتها، { زوجناكها }. روي أنها لما اعتدت قال - عليه الصلاة والسلام - لزید: " ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، أيت زينب فاخطبها لي " قال زيدٌ: فأتيها ووليئها ظهري، إعظاماً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وقلت: يا زينب إن النبي صلى الله عليه وسلم يخطبك، ففرحت، وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربّي، فقامت إلى مسجدها، فنزل القرآن: { فلما قضى زيد... } الآية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ودخل بها حينئذ، وما أولم على امرأة ما أولم عليها، ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار.

وقيل: زوّجه الله تعالى إياها بلا واسطة عقد، ويؤيده: أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله زوجني من فوق سبع سماوات، وأنتن زوّجكن أولياؤكن. وكانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لأدُلُّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل عليك بهنّ: جدّي وجدك واحد، وإياي أنكحك الله من السماء، وإن السفير لي جبريل.

ثم علل تزوجه إياها، فقال: { لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم } الذين يتبنونهم { إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا } قال الحسن: ظنت العرب أن حُرمة المتبني مشتبكة كاشتباك الرحم، فيبئن الله تعالى الفرق بينهما، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن حكمه وحكم الأمة واحد، إلا ما خصّه الدليل. هـ. { وكان أمرُ الله { الذي يريد أن يكونه } مفعولاً } مكوناً لا محالة، كما كان تزويج زينب.

{ ما كان على النبي من حرج فيما فرضَ الله له } أي: حلّ له، أو: قسم له، من قولهم: فرض له في الديوان كذا، وقروض العساكر، لأرزاقهم. أي: لا حرج على النبي فيما حلّ له وأمر به، كتزويج زينب، أو: قسم له من عدد النساء بلا حدّ، { سُنَّة الله } مصدر مؤكد

لما قبله من قوله: { ما كان على النبي من حرج } أي: سُنَّ ذلك سُنَّةً في الأنبياء
الماضين، وهو: ألا حرج عليهم في الإقدام على ما أحلَّ لهم ووسع عليهم في باب النكاح
وغيره.

وكانت يَحْتَمُّهم المهائِر والسراري، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة، وثلاثمائة سُرِّيَّة.
{ في الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ } في الأنبياء الَّذِينَ مَضُوا من قبله، { وكان أمرُ الله قَدْرًا
مقدوراً } أي: قضاءً مقضياً، وحكماً مثبتاً مبرماً، لا مرد له.

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ } هو صفة لـ { الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِ } ، أو: بدل منه، أو:
مدح لهم منصوب، أو: مرفوع، أي: هم الذين، أو: أعني الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ،
{ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ } ونبينا صلى الله عليه وسلم من جملتهم ومن
أشرافهم، { وكفى بالله حسيباً } للمخاوف، أو: محاسباً، فينبغي ألا يُخْشَى إِلَّا مِنْهُ
تعالى.

الإشارة: إذا تمكن العبدُ مع مولاه وتحققت محبته فيه، كانت حوائجه مقضية، وهمته
كلها نافذة، إذا اهتم بشيء، أو خطر على قلبه بشيء، مكَّنه الله منه، وسارع في قضائه،
كما فعل مع حبيبه، حين خطر بهاله تزوج زينب، أعلمه أنه زَوْجُهُ إياها. وأهل مقام الفناء
جُلهم في هذا المقام، إذا اهتموا بشيء كان، إذا ساعدتهم المقادير، وإلا فسوابقُ الهمم
لا تخرق أسوارَ الأقدار، ولذلك قال هنا: { وكان أمرُ الله مفعولاً } ، { وكان أمرُ الله
قَدْرًا مقدوراً } . وصفة أهل الهمم القاطعة: أنهم لا يخافون إلا الله، ولا يخشون أحداً
سواه، لا يخافون في الله لومة لائم، ذكُرهم لله دائماً، وقلُّهم في الحضرة هائم. وبالله
التوفيق.

@ { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيماً }

يقول الحق جلَّ جلاله: { ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم } أي: لم يكن أباً رجل منكم
حقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده؛ من حرمة الصهر والنكاح، والمراد:
من رجالكم البالغين، وأما أولاده: القاسم، والطيب، والطاهر، فماتوا قبل أن يكونوا
رجالاً، وأما الحسن والحسين، فأحفاد، لا أولاد. { ولكن } كان { رسولَ الله } وكل
رسول أبو أمته، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة
والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من
رجالكم، الذين ليسوا بأولاد حقيقة، فكان حكمه حكمهم. والتبني من باب الاختصاص
والتقريب، لا غير. { و } كان أيضاً صلى الله عليه وسلم { خاتمَ النبيين } أي: آخرهم
الذي ختمهم، أو: ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء، بمعنى: الطابع، كأنه طبع وختم
على مقامات النبوة، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبي بعده. وعيسى
ممن نُبِيَء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعته صلى الله عليه وسلم، كأنه بعض
أمته. ومن قرأ بكسر التاء، فمعناه: فاعل الختم، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: " أنا
خاتم النبيين فلا نبي بعدي " ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضاً؛ إذ فيه لغات؛ خاتم -
بالفتح والكسر - وخاتام، وخَيْتام. { وكان الله بكل شيءٍ عليماً } فيعلم من يليق بأن
يختم به النبوة، وكيف ينبغي شأنه.

الإشارة: كان صلى الله عليه وسلم أبا الأرواح حقيقة؛ إذ الوجود كله ممتد من نوره، وأبا الأشباح باعتبار أنه السابق نوره. فأول ما ظهر نوره - عليه الصلاة والسلام - ومنه امتدت الكائنات، فهو بذرة الوجود. وسيأتي في قوله:
{ فَأَتَا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ }
[الزخرف: 81] تتميم ذلك إن شاء الله. ولم يكن أبا باعتبار تولد الصلب، وهو الذي نفاه الله تعالى عنه.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } * { وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } * { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } * { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا } *

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً } قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، قال ابن عباس: (لم يُعَدَّر أحد في ترك ذكر الله - عز وجل - إلا من غلب على عقله). وقال: الذكر الكثير: ألا تنساه أبداً. وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أَكثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ "

والذكر أنواع: تهليل، وتحميد، وتقديس، واستغفار، وتلاوة، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: المراد: ذكر القلوب، فإن الذكر الذي يمكن استدامته، هو ذكر القلب، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأمّا ذكر اللسان فإن إدامته كالمتعذر. قاله القشيري. { وَسَبِّحُوهُ } أي: نرّهوه، أو: قولوا: سبحان الله وبحمده، { بكرة } أول النهار { وأصيلاً } آخر النهار. وحُصِّصَ بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: (قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله). أو: الفعلان - أي: { اذكروا } و { سبِّحوه } - موجهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختص من بين أنواعه إبانة لفضله؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر، ثم خص من الذكر التسبيح بكرة، وهي صلاة الفجر، وأصيلاً، وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو: صلاة الفجر والعشاءين.

{ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ } لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْمُصَلِّي أَنْ يَنْعَطِفَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ اسْتَعِيرَ لِمَنْ يَنْعَطِفُ عَلَى غَيْرِهِ، حُنُوءًا عَلَيْهِ، كَحُنُوءِ الْمَرْأَةِ عَلَى وَلَدِهَا. ثُمَّ كَثُرَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي الرَّحْمَةِ وَالتَّرُؤُفِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، أَيْ: تَرَحَّمْ عَلَيْكَ وَتَرَأَفْ. فَإِنْ قُلْتَ: صَلَاةُ اللَّهِ غَيْرُ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ، فَكَيْفَ اشْتَرَكَا فِي الْعَطْفِ؟ قُلْتَ: لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي قَدْرِ مَشْتَرِكٍ، وَهُوَ إِرَادَةُ وَصُولِ الْخَيْرِ إِلَيْهِمْ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ، وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ بِالِدَعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وذكر السدي: أن بني إسرائيل قالت لموسى عليه السلام: أئصلي ربنا؟ فكبر هذا الكلام على موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم: إني أصلي، وإن صلواتي رحمتي، وقد وسعت كل شيء. وفي حديث المعراج: " قلت: إلهي؛ لَمَّا لَحَقَنِي اسْتِحَاشٌ قَبْلَ قُدُومِي عَلَيْكَ، سَمِعْتُ مَنَادِيًّا يُنَادِي بِلُغَةٍ، تُشْبِهُ لُغَةَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: قَفْ، إِنَّ رَبَّكَ يُصَلِّي،

فعبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام، وإن ربي لغني عن أن يصلي؟ فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني، سبقت رحمتي غضبي. اقرأ يا محمد: { هو الذي يُصلي عليكم... } الآية، فصلاحي رحمة لك ولأمتك. ثم قال: وأما أمر صاحبك، فخلقت خلقاً على صورته، يُناديك بلغته، ليزول عنك الاستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك ". .

والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللهم صل على المؤمنين. جعلوا - لكون دعائهم بالرحمة مستجاباً - كأنهم فاعلون الرحمة. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويتأف، حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار ذكره، ويأمر ملائكته يترحمون عليكم، ويستغفرون لكم، ليقرّبكم، ويخصكم بخصائص ليست لغيركم. بدليل: { ليخرجكم من الظلمات إلى النور } من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ثم من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ثم من ظلمات الحجاب إلى نور العيان. وقيل: يُصلي عليكم: يشيع لكم الذكر الجميل في عبادته.

{ وكان } الله { بالمؤمنين رحيماً } قد اعتنى بصلاح أمرهم، وإثابة أجرهم، واستعمل في خدمتهم ملائكته المقربين، وهو دليل على أن المراد بالصلاة: الرحمة، حيث صرح بكونه رحيماً بهم. قال أنس: لما نزل قوله تعالى: { إن الله وملائكته يصلون على النبي } قال أبو بكر: يا رسول الله ما خصك الله بشريف إلا وقد اشتركتنا فيه، فأنزل قوله: { هو الذي يُصلي عليكم... } الخ.

{ تحيئهم } أي: تحية الله لهم، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، { يوم يلقونه } عند الموت. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن، قال: ربك يُقرئك السلام. أو: يوم الخروج من القبور، تُسلم عليهم الملائكة وتُبشّرهم. أو: يوم يرونه في الجنة، { سلامٌ } يقول الله تبارك وتعالى: " السلام عليكم يا عبادي، هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضي يا ربنا وقد أعطينا ما لم نُعط أحداً من العالمين. فيقول لهم: أعطيتكم أفضل من ذلك، أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً " كما في البخاري. وفي رواية غيره: يقول تعالى: " السلام عليكم، مرحباً بعبادي الذين أرضوني باتباع أمري " هو إشارة إلى قوله: { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ } [الزمر: 73]. { وأعدّ لهم أجراً كريماً } يعني الجنة وما فيها.

الإشارة: قال القشيري: قوله تعالى: { اذكروا الله ذكراً كثيراً } الإشارة فيه: أحيوا الله لقوله - عليه الصلاة والسلام - " مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ " فيحب أن يقول: الله، ولا ينسَ الله بعد ذكر الله. هـ. قلت: لأن ذكر الله عنوان محبته، ومنار وصلته، وهو الباب الأعظم في الدخول إلى حضرته، ولله در القائل:

الذكر عمدة لكل سالك تنورت بنوره المسالك
هو المطية التي لا تنتكب ما بعدها في سرعة الخطا تُجِب
به القلوب تطمئن في اليقين ما بعده على الوصال من معين

به بلوغ السالكين للمنى به بقاء المرء من بعد الفنا
به إليك كل صعب يسهل به البعيد عن قريب يحصل
فهو أقوى سبب لديك وكله إليك، لا عليك
فكل طاعة أتى الفتى بها هو أساسها، كذاك ستقفها
ووحده يفوق كل طاعه كما أتى عن صاحب الشفاعة
كفى بفضل لدا البيان ذهابه بالسهو والنسيان
إذا ذكرت من له الغنى العظيم لديك يصغر الفقير يا نديم
عليه دُم حتى إذا تجوهرا بسره الفؤاد كل ما ترى
ترى به المذكور دون ستر وقد علا الإدراك درك الفكر
به الحبيب في الورى تجلى به السوى عن الحجا تولى
به تمكن المرید في الفنا حتى يصير قائلاً أنا أنا
به رجوعه إلى العبادة به التصرف الذي في العادة
تالله لو جئت بكل قول ما جئتكم بما لهُ من فضل

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ " ، قيل: مَنْ الْمَفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ " قال: الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، يَصْعُغُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَرُدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِقَافاً " وسئل صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الْمَجَاهِدِينَ أَعْظَمُ أَجْراً؟ قال: " أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً " قيل: فأَيُّ الصَّالِحِينَ أَعْظَمُ أَجْراً؟ قال: " أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً " ثم ذَكَرَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ، كُلَّ ذَلِكَ وَرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا " فقال أبو بكر لعمر: يَا أَبَا حَفْصٍ! ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَجَلٌ " رواه أحمد والطبراني.

وقوله تعالى: { هو الذي يُصلي عليكم... } الآية. قال الورتجبي: صلوات الله: اختياره العبد في الأزل لمعرفة ومحبه، فإذا خصه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله بالله ومحبه، وبتلك الصلاة يُخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفائيه الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله: { وكان بالمؤمنين رحيماً } أي: قبل وجودهم، حيث أوجدهم، وهداهم إلى نفسه، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن في الجنة: سلام الله عليهم من غير واسطة. هـ.

وقوله تعالى: { تحيتهم يوم يلقونه سلام } قال القشيري: التحية إذا فُرئت بالرؤية، واللقاء إذا فُرن بالتحية، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية: خطاب يُفتح بها الملوك، أخبر عن علو شأنهم، فهذا السلام يدل على علو رتبتهم. هـ.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } * { وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } * { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } * { وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }

قلت: " شاهدًا " : حال مقدره، كمررت برجل معه صقر صائدًا به غدًا.

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً } على من بُعثت إليهم، على تصديقهم وتكذيبهم، أي: مقبولاً قولك عند الله، لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العدل في الحكم، { ومبشراً } للمؤمنين بالنعيم المقيم، { ونذيراً } للكافرين بالعذاب الأليم، { وداعياً إلى الله } إلى الإقرار بربوبيته، وتوحيده، وما يجب الإيمان به، من صفاته، ووعدته، ووعدته، { بإذنه } بأمره، أو: بتيسيره. وقيد به الدعوى إيذاناً بأنه أمر صعب، لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه، { وسراجاً منيراً } يُستضاء به في ظلمة الجهالة، وتقتبس من نوره أنوار الهداية، قد جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. وقيل: المراد به القرآن، فيكون التقدير: وذا سراج. ووُصف بالإنارة؛ لأن من السراج مَنْ لا يضيء جداً إذا قُلَّ سَلِيْطُهُ، - أي: زيته - ورقت فتيلته. أو: شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً برحمتنا، ونذيراً بنقمتنا، وداعياً إلى عبادتنا، وسراجاً تُنير الطريق إلى حضرتنا.

{ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } ثواباً عظيماً، يربو على ثواب سائر الأمم. وفي الحديث: " مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استاجر عمالاً إلى آخر اليوم، فعملت اليهود إلى الظهر، ثم عجزوا، ثم عملت النصارى إلى العصر، فعجزوا، ثم عملتم إلى آخر النهار، فاستحققتهم أجر الفريقين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عمالاً، وأقل أجرًا، فقال لهم الله تعالى: هل ظلمتكم من حركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء " وفي رواية: " أنهم عملوا إلى الظهر، أو العصر. وقالوا: لا حاجة لنا بأجرك، فبطل أجر الفريقين " وهذا في حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث في الصحيح. نقلته بالمعنى.

قال البيضاوي: ولعله معطوف على محذوف، أي: فراقب أمتك وبشّرهم. هـ.

{ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } أي: دُم على مخالفتهم، وهو تهيج وتنفير عن حالهم، { وَدَعَّ أَذَاهُمْ } أي: لا تلتفت إليه، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: اجعل إيذائهم إياك في جانب، وأنت في جانب، ولا تُبال بهم، ولا تخف من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إياهم مجازةً ومؤاخذه على كفرهم. ولذلك قيل: إنه منسوخ. { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } فإنه يكفيهم، { وكفى بالله وكيلاً } موكولاً عليه، ومفوضاً إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله تعالى لِمَّا وصفه بخمسة أوصاف، قابل كلاً منها بخطاب مناسب له، فقابل الشاهد بقوله: { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } لأنه يكون شاهداً على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير، وقابل المبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة، وقابل النذير بدعّ أذاهم؛ لأنه إذا ترك أذاهم في العاجل، والأذى له، لا بد له من عقاب عاجل أو أجل، كانوا منذرين به في المستقبل. وقابل الداعي إلى الله بأمره بالتوكل عليه؛ لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير، فتسهل الدعوة، ويتيسر أمرها، وقابل السراج المنير بالاكْتِفَاءَ به وكيلاً؛ لأن من أناره الله وجعله بُرْهَانًا على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفي به عن جميع خلقه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الورتجبي: إنا أرسلناك بالحقيقة شاهداً، أنت شاهدنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا. قُلْتُ: لأن نوره صلى

الله عليه وسلم أول نور ظهر من نور الحق، فَمَنْ شَهِدَهُ شَهِدَ الْحَقَّ. ثم قال: وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْكَ فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْنَا. قال صلى الله عليه وسلم: " فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ، وَمَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ " ثم قال: { وسراجاً منيراً } أسرجت نورك من نوري، فثور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إليّ بنورك. ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب. هـ.

قال القشيري: يا أيها المُشَرَّفُ مِنْ قَبَلِنَا؛ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا بُوْحْدَانِيَّتِنَا، وَمُبَشِّرًا، تُبَشِّرُ عِبَادَنَا بِنَا، وَتُحَدِّثُهُمْ مَخَالَفَةَ أَمْرِنَا، وَتُعَلِّمُهُمْ مَوَاضِعَ الْخَوْفِ مِنَّا، وَدَاعِيَا الْخَلْقِ إِلَيْنَا بِنَا، وَسِرَاجًا مَنِيرًا يَسْتَضِيئُونَ بِكَ، وَشَمْسًا يَنْسِطُ شِعَاعُكَ عَلَى جَمِيعٍ مِنْ صَدَقِّكَ وَأَمَّنْ بِكَ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ وَحَدَمَكَ وَقَدَّمَكَ، { وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ } بِفَضْلِنَا عَلَيْهِمْ، وَتَبَلَّغَهُمْ طَوْلَنَا عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانَنَا إِلَيْهِمْ. وَمَنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ بَرَكَةُ إِيمَانِهِمْ بِكَ؛ فَلَا قَدَّرَ لَهُمْ عِنْدَنَا. وَلَا تُطْعَمَنَّ أَعْرَضْنَا عَنْهُ وَأَضَلَّلْنَاهُ، مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَأَهْلِ الْبَدْعِ وَالشَّقَاقِ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ؛ بِدَوَامِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَكَفَى بِأَلِهِ وَكَيْلًا. هـ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَنْعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات { أي: تزوجتموهن. والنكاح في الأصل: الوطاء، من: تناكحت الأشجار: إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحاً مجازاً؛ لملايبسته له، من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببه، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه لو استعمل في الوطاء لكان تصريحاً به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسية، والقربان، والتغشي، والإتيان، تعليماً للأدب والحياء. وفي تخصيص المؤمنات، مع أن الكتابيات تُساوي المؤمنات في هذا الحكم، إشارة إلى أن الأولى للمؤمن أن ينكح المؤمنة، تخييراً للنطفة. والمعنى: إذا تزوجتم النساء { ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن } تجامعوهن. والخلوّة الصحيحة كالمس، { فما لكم عليهن من عِدَّةٍ تعتدونها } أي: تستوفون عددها، وتعدونها عليهن، من: عدده الدرهم فاعتدها، كقوله: كِلْتَا الطَّعَامِ فَأَكْتَالَهُ. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العِدَّة تجب على النساء لحق الأزواج، كما يشعر به، { فما لكم } والإتيان بـ " ثم " إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخي الطلاق ربما يمكن الإصابة فتجب العدة.

{ فَمَنْعُوهُنَّ } بشيء من المال، وهذا في المفوض لها قبل الفرض، وأما المفروض لها، أو المسمى صداقها، فتأخذ نصف مهرها، ولا متعة لها على المشهور. { وَسَرَحوهُنَّ } سَرَاحًا جَمِيلًا { أي: لا تمسكوهُنَّ ضَرَارًا، وأخرجوهن من بيوتكم؛ إذ لا عِدَّة لكم عليهن. قال القشيري: (سراحاً جميلاً) لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال. هـ.

الإشارة: أيها المريدون؛ إذا طلقتم نفوسكم، وغبتم عنها بخمرة قوية، من قبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة، فمتعوها بالشهود، وسرحوا فكرتها في ذات المعبود، سَرَاحًا جَمِيلًا، لا حجر فيه ولا حصر، فمن رزقه الله الغيبة عن نفسه، حتى غاب عن حظوظها وهواها، فقد كفاه الله قتالها، فيدخل الحضرة بلا مشقة ولا تعب، لكنه نادر،

وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية؛ لأنه يكون كمن طويت له الطرق للحج، فلا يعرفها كما يعرفها من سافر فيها، وكابد مشقتها، وعرف منازلها ومياهاها، ووعرها وسهلها، ومخوفها ومأمونها، وكلهم أولياء لله تعالى، لكن طريق التربية أن يكون المرید سلك الطريقة، وقاس شدائد نفسه، وعالجها ليعالج غيره بما يعالج نفسه، على يد شيخ عارف بالطريق. وبالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِيَّاتِ أَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِيَّاتِ هَاجِرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَاءً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِيَّاتِ أَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } مهورهن؛ إذ المهر أجر البضع، ولذا قال الكرخي - من الحنفية -: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز، والجواب أن التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة، وإبتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو فرضها في المفوض، وتسميته في المسمى. والمراد بالأزواج المحللة له - عليه الصلاة والسلام -: نساؤه اللاتي في عصمته حينئذ، كعائشة وغيرها، وكان قد أعطاهن مهورهن، أو: جميع النساء اللاتي يريد أن يتزوجهن، فأباح له جميع النساء. وهذا أوسع.

{ و } { أحللنا لك } ما ملكت يمينك { من السراري { مما أفاء الله عليك } من الغنائم، وهي صفية، أعتقها وتزوجها. { وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك } يعني قرابتك، التي من جهة أبيك، ومن جهة أمك. وكان له - عليه الصلاة والسلام - أعمام وعمات، إخوة لأبيه، ولم يكن لأمه صلى الله عليه وسلم أخ ولا أخت، وإنما يعني بخاله وخالته: عشيرة أمه، وهم بنو زهرة، ولذلك كانوا يقولون: نحن أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا قلنا: المراد بقوله: { أحللنا لك أزواجك } من كان في عصمته، فهذا عطف عليهن، وإباحة لأن يتزوج قرابته، زيادة على من كان في عصمته، وإذا قلنا: المراد: جميع النساء، فهذا تحديد لهن، على وجه التشريف، بعد دخولهن في العموم. وقوله: { اللاتي هاجرن معك } قيد في حلية قرابته - عليه الصلاة والسلام - قالت أم هانئ: خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء.

و " مع " هنا: ليست للاقتران، بل لوجود الهجرة فقط، كقوله:
{ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ }
[النمل: 44].

{ و } { أحللنا لك } امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي { من غير مهر ولا عقد، فهو منصوب بفعل يُفسره ما قبله، أو: عطف على ما سبقه، ولا يدفعه أن " التي " للاستقبال؛ لأن المعنى بالإحلال: الإعلام بالحل، أي: أعلمناك حل امرأة مؤمنة وهبت لك نفسها، ولا تطلب مهراً إن اتفق، ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك، والقائل به ذكر

أربعاً: ميمونة بنت الحارث، حين جاءها الخاطب، قالت: البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية، أم المساكين، وتوفيت في حياته صلى الله عليه وسلم، وأم شريك بنت جابر الأسدية، وقيل: أم شريك العامرية، قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلمية. ذكر البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن.
قال أبو نعيم: تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها. قال السهيلي: فدلّ أنهن كن غير واحدة. والله أعلم. هـ. وقال ابن عباس: هو بيان حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة، فانظره.

وقرأ الحسن بفتح " أن " ، على حذف لام التعليل. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بغير " إن " أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها، أي: طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل: نكح واستنكح بمعنى واحد. والشرط الثاني تقييد للأول، كأنه قال: أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها، وإرادته هي: قبول الهبة.

جعلنا ذلك { خالصةً لك من دون المؤمنين } بل يجب عليهم المهر، تسمية أو فرضاً. وفيه إيذان بأنه مما خصّ به - عليه الصلاة والسلام - لشرف نبوته، وتقدير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزي: وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ ليخص المخاطب وحده. وقيل: إن " خالصة " يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له صلى الله عليه وسلم؛ لأن سائر المؤمنين قَصُرُوا على أربع نسوة، وأبيح له - عليه الصلاة والسلام - أكثر من ذلك. ومذهب مالك: أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد، خلافاً لأبي حنيفة. هـ. قلت: إن قرنه ذكر الصداق جاز، كما في المختصر.

و (خالصة): مصدر مؤكد، أي: خلّص إحلالها، أو: إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خصوصاً لك. أو: حال من الضمير في (وهبت)، أو: صفة لمصدر محذوف، أي: هبة خالصة لك.

{ قد عَلِمْنَا ما فرضنا عليهم في أزواجهم } أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق، كالنفقة وحسن المعاشرة، أو: ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع، أو: ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولي، { وما ملكت أيماهم } بالشراء وغيره من وجوه الملك، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به، مع حلية الوطاء، ولو تعددن. وإنما وسّعنا عليك في أمر النساء { لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ } ضيق، وهو راجع لقوله: { خالصة لك من دون المؤمنين } والجملة من قوله: { قد علمنا ما فرضنا... } الخ: اعتراضية؛ للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين في نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة، والعكس أخرى، كنكاح الكتابية والأمة، فتحرمان عليه صلى الله عليه وسلم دون أمته. { وكان الله غفوراً رحيماً } بالتوسعة على عباده، أو: غفوراً لما يُعسر التجرد عنه، رحيماً بالتوسعة في مظان الحرج.

{ ذلك } التفويض إلى مشيئتكَ { أَدَّتِي أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ } أي: هو أقرب إلى قرة أعينهن، وقله حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا علمن أن هذا الحكم من عند الله اطمأنت نفوسهن، وذهب التغير، وحصل الرضا، وقرت العيون.

قلت: والذي يظهر أن مَنْ أرجاه صلى الله عليه وسلم من النساء إنما كان بوحى، ومَنْ ضمه كذلك؛ إذ لا يتصرف إلا بإذن من الله، فإذا عَلِمَ النساءُ أن الإرجاء والإيواء كان بوحى من الله؛ رضين بذلك، وقرت أعينهن، وزال تغايرهن، وأما مطلق التفويض إليه فقط، فلا يقطع الغيرة في العادة، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمل. و "كلهن": تأكيد ضمير "يَرْضَيْنَ".

{ والله يعلم ما في قلوبكم } من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، أو: يعلم ما في قلوبكم من الرضا بحكم الله والتفويض إليه، ففيه تهديد لمن لم يرضَ منهم بما دبر الله، وفؤؤ إلى رسوله، { وكان الله عليماً } بذات الصدور، { حليماً } لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر.

الإشارة: إذا تحقق فناء العبد وزواله، وتكملت ولايته، كان مفوضاً إليه في الأمور، يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، لم يبقَ عليه تحجير، ولم يتوجه إليه عتاب؛ لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له، كتب له عقد التحرير.

وشباهه حديث: " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يَصُرْهُ دَنَبٌ "، وحديث البخاري: " لعلَّ الله اطلعَ على أهلِ بَدْرِ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد عَفَرْتُ لَكُمْ " وسببه معلوم.

وفي القوت عن زيد بن أرقم: إن الله عزَّ وجلَّ لِيُحِبَّ العبد، حتى يبلغ من حبه أن يقول له: اصنع ما شئت، فقد عفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: يبلغ الولي مبلغاً يُقال له: أصحابناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. ومصادقه من كتاب الله: قوله تعالى في حق سليمان عليه السلام:

{ هَذَا عَطَاؤُنَا قَامُنٌ أَوْ أَمْسِكْ بِعَيْرِ حِسَابٍ }

[ص: 39]. وهذا وإن كان للنبي من أجل العصمة، فلمن كان من الأولياء في مقام الإمامة قسط منه، من أجل الحفظة. وقال أيضاً رضي الله عنه في بعض أدعيته: وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة، وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة. هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، لم يبقَ للعبد وجود أصلاً، وكان الفعل كله بالله، ومن الله، وإلى الله. وهذا مقام عزيز، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء في الله، والبقاء بالله، وقد غطى وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فغيبهم عن اسمهم ورسمهم، فهم بالله فيما يفعلون ويدرون. والله تعالى أعلم.

@ { لَا يَجِلُّ لَكَ النَّسِيءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلُّ شَيْءٍ رَقِيبًا }

يقول الحق جلَّ جلاله: { لَا يَجِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ } أي: من بعد التسع، اللاتي خيرتهن فاخترتك؛ لأن التسع نصابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن الأربع نصابُ أمته.

لَمَّا اخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ قَصْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ، وَقِيلَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ كَمَا يَأْتِي. أَوْ: لَا يَحِلُّ لَكَ نِسَاءَ الْأَجَانِبِ، وَإِنَّمَا لَكَ نِسَاءُ قَرَابَتِكَ، كَبَنَاتِ عَمِّكَ، وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ، فَيَحِلُّ لَكَ مِنْهُنَّ مَا شِئْتَ، وَلَوْ ثَلَاثُمِائَةَ، أَوْ أَكْثَرَ. أَوْ: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمَاتِ، كَالْكِتَابِيَّاتِ وَالْمَشْرَكَاتِ. { وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَهَنٍّ مِنْ أَزْوَاجٍ } بِالطَّلَاقِ. وَالْمَعْنَى: وَلَا أَنْ تَسْتَبَدَلَ بِهَؤُلَاءِ التَّسْعِ أَزْوَاجًا، بِكُلِّهِنَّ أَوْ بَعْضِهِنَّ، كِرَامَةً لِهِنَّ، وَجِزَاءً عَلَى مَا اخْتَرَنَ وَرَضِينَ. فَقَصَرَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّسْعِ اللَّاتِي مَاتَ عَنْهُنَّ. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَبَادَلُونَ بِالْأَزْوَاجِ، يُعْطِي امْرَأَةً هَذَا أَيَّامًا وَيَأْخُذُ امْرَأَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: { وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَهَنٍّ مِنْ أَزْوَاجٍ } بِأَنْ تُعْطِيَ بَعْضُ أَزْوَاجِكَ وَيَأْخُذُ بَعْضُ أَزْوَاجِهِمْ، { إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } فَلَا بَأْسَ أَنْ تَبَادَلَ بِجَارِيَتِكَ. وَ" مِنْ " لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ؛ لِيُفِيدَ اسْتِعْرَاقَ جِنْسِ الْأَزْوَاجِ بِالتَّحْرِيمِ. { وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } أَيُّ: حُسْنِ الْأَزْوَاجِ الْمُتَبَدِّلَةِ. وَقِيلَ: هِيَ أَسْمَاءُ بِنْتِ عُمَيْسٍ، امْرَأَةُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهَا مِمَّنْ أَعْجَبَهُ حَسَنُهُنَّ.

وَعَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ، (مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءَ)، يَعْنِي أَنَّ الْآيَةَ تُسَخِّتُ إِذَا بِالسُّنَّةِ، أَوْ: بِقَوْلِهِ: { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ } وَتَرْتِيبَ النَّزُولِ لَيْسَ عَلَى تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ. { إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْأَزْوَاجَ، وَقِيلَ: مِّنْقَطِعُ، أَيُّ: لَكِنْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، فَيَحِلُّ لَكَ مَا شِئْتَ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا } حَافِظًا وَمُطَّلِعًا. وَهُوَ تَحْذِيرٌ عَنِ مَجَاوِزَةِ حُدُودِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: مَنْ نَكَحَ أَبْكَارَ الْحَقَائِقِ الْعَرَفَانِيَّةِ وَدَخَلَ بِأَسْرَارِ الْعُلُومِ اللَّدْنِيَّةِ، لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْكَحَ ثِيَابَ نِسَاءِ الْعُلُومِ الرَّسْمِيَّةِ، وَلَا أَنْ يَتَبَدَلَ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ الرَّبَانِيَّةِ، بِغَيْرِهَا مِنَ الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا وَرَوْنُهَا - عَلَى الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ - إِذَ التَّنَزُّلِ إِلَيْهَا بِطَالَةِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ، إِلَّا مَا كُنْتَ تَمْلِكُهُ قَبْلَ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ تَنْزَلَ إِلَى تَعْلِيمِهِ وَإِفَادَتِهِ، إِنْ تَوَسَّعْتَ فِي عِلْمِ الْبَاطِنِ، وَصَرْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ الْكِبَارِ، تُنْفِقُ كَيْفَ تَشَاءُ، فَلَا يَضُرُّكَ حِينَئِذٍ التَّنَزُّلُ إِلَى عِلْمِ الظَّاهِرِ. وَقَدْ كَانَ شَيْخُ شَيْوَخِنَا سَيِّدِي يَوْسُفَ الْفَاسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَهُ مَجْلِسَانِ: مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الظَّاهِرِ، وَمَجْلِسٌ لِأَهْلِ الْبَاطِنِ. فَإِنْ كَانَ فِي مَجْلِسِ الظَّاهِرِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ، يَقُولُ: أَذْهَبُ حَتَّى نَأْتِيَ إِلَى مَجْلِسِكُمْ، وَإِنْ كَانَ فِي مَجْلِسِ الْبَاطِنِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الظَّاهِرِ، قَالَ: أَذْهَبُ حَتَّى نَأْتِيَ إِلَيْكُمْ. وَكَانَ لَهُ هَذَا بَعْدَ الرَّسُوحِ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّا هُمْ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِبِينَ لِحَدِيثِ إِنْ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } * { إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّا هُمْ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِبِينَ لِحَدِيثِ إِنْ دَلِكُمْ كَانَ

يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ
مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ... {

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي { وكانت تسعاً، { إلا
أن يؤذن لكم إلى طعام { أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، أو: إلا ما دوناً لكم، فجملة: { إلا
أن يؤذن { في موضع الحال، أو الظرف. و { غير ناظرين { حال من { لا تدخلوا { ،
وقع الاستثناء على الوقت الحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن، ولا
تدخلوها إلا { غير ناظرين { أي: منتظرين { إناؤه { أي: إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز:
إناؤه بلوغ وقته، يقال: أني يأتى، وأن يئين: إذا شهى، بمنزلة: حان يحين. هـ. وقال
الهروي: أي: غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته، مكسور الهمزة مقصور، فإذا فتحت
مددت، فقلت: الإناء، أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق، وذبح شاة، وأمر أنساً
أن يدعو الناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل كل فوج، فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يا
رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: " أرفعوا طعامكم " وتفرق الناس،
وبقي ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا،
فطاف بالحجرات، وسلم عليهن، ودعون له، ورجع، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان
صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فتولى، فلما رآوه متولياً خرجوا، فنزلت الآية، وهي
آية الحجاب. قال أنس: فضرب بيني وبينه الحجاب.

قال تعالى: { ولكن إذا دُعِيتُم فادخلوا فإذا طَعِمْتُم فانتشروا { تفرقوا، { ولا مستأنسين
لحديث { أي: ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث، أو: غير ناظرين ولا
مستأنسين، فهو منصوب، أو مجرور، عطف على " ناظرين " ، نُهوا أن يُطِيلُوا الجلوس
في بيته صلى الله عليه وسلم مستأنسين بعضهم ببعض، لأجل حديث يتحدثون به، { إن
ذلكم كان يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ { من إخراجكم؛ { والله لا يستحي من الحق {
يعني أن إخراجكم حق، ما ينبغي أن يُستحي منه، ولا يُترك بيانه، حياءً، أو: لا يأمر بالحياء
في الحق، ولا يشرع ذلك.

{ وإذا سَأَلْتُمُوهُنَّ { أي: نساء النبي صلى الله عليه وسلم، بدلالة البيوت عليهن؛ لأن
فيها نساءه، { متاعاً { عارية أو حاجة، { فاسألوهن من وراء حجاب { ستر، { ذلكم
أطهر لقلوبكم وقلوبهن { من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه
الآية يبرزن للرجال، وكان عمر رضي الله عنه يُحب صَرَبَ الحجاب عليهن، ويؤد أن ينزل
فيه، وقال: يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين
بالحجاب؟ فنزلت.

وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام، كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابته يد رجل يد
عائشة، فكَرِهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ فنزلت الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء، فإذا دَعُوا إلي طعام فلا يدخل أحد حتى
يؤذن له، فإذا طعموا فلينتشروا، وإذا سأل أحد حاجته من أهل دار الشيخ؛ فليسأل من
وراء الباب، وليتج عن مقابلة الباب؛ لئلا يتكشف على عرض شيخه، فيسيء الأدب معه،
وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

{.... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }.

يقول الحق جلّ جلاله: { وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله { أي: ما صحّ لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو كفر، { ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً { تعظيماً لحرمة صلى الله عليه وسلم، ولبقاء عصمته عليهن، ولذلك وجبت نفقتهن بعده، لقوله: " ما بقي بعد نفقة أهلي صدقة " وكذا السكنى كما قد علم، وبه قال ابن العربي. وَعَطْفُ (ولا أن تنكحوا) على (أن تؤذوا) من عطف الخاص على العام؛ إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. { إن ذلكم { أي: الإيذاء أو التزوّج { كان عند الله { ذنباً عظيماً }.

{ إن تبَدُّوا شيئاً { من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو نكاح أزواجه، { أو تخفوه { في أنفسكم، { فإن الله كان بكل شيء عليمًا { فيُعاقبكم عليه. رُوي أن رجلاً من الصحابة قال: لئن قبض النبي صلى الله عليه وسلم لأنكحن عائشة، فنزلت، فَحَرَّمَن. وفيه نزلت: { إن تبَدُّوا شيئاً { أي: من نكاح عائشة، { أو تخفوه... { إلخ. وكان - عليه الصلاة والسلام - مَلِكٌ قَتِيبة بنت الأشعث بن قيس، ولم يكن بها، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد ذلك، فهمَّ به أبو بكر، وشقَّ عليه، حتى قال له عمر: يا خليفة رسول الله، ليست من نسائه، ولم يُخبرها، ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة، حين ارتدت مع قومها، فسكن أبو بكر. وقال الزهري: إن العالية بنت طبيان، التي طلق النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت رجلاً وولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ، فإذا مات الشيخ، أو طلق امرأة بعد الدخول، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبداً، تعظيماً وأدباً مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس، إن قدر على القيام بالأدب معها، والصبر على أذاها، وإلا فالبعد أحسن وأسلم، والله تعالى أعلم.

قال القشيري: قوله تعالى: { إن تبَدُّوا شيئاً... { الآية: حِفْظُ القلبِ مع الله تعالى، ومراعاة الأمر بينه وبين الله على الصَّحَّةِ في دوام الأوقات لا يَقْوَى عليه إلا الخواصُّ، من أهل الحضور. هـ.

@ { لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْتَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّتِيَّاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا {

يقول الحق جلّ جلاله: { لا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْتَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّتِيَّاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا { لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضاً نُكلمهن من وراء حجاب، فنزلت: { لا

جناح... { الخ، أي: لا إثم عليهن في أن لا يحتجن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال؛
لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أباً في قوله تعالى:

{ تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... }

[البقرة: 133] وإسماعيل عم يعقوب، فسمّاه أباً. وذكر القاضي إسماعيل، عن الحسن
والحسين: أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس: إن رؤيتهما لهن تحل،
أي: لأنهما ولدا البعل. قال القاضي: وأحسب أن الحسن والحسين ذهبا في ذلك إلى أن
أبناء البعولة لم يُذكروا في الآية. وقال في سورة النور:

{ ولا يبدین زینتھن }

[النور: 31] إلى قوله:

{ ... أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِهِنَّ }

[النور: 31]، فذهب ابن عباس إلى ما في سورة النور، وذهب الحسن والحسين إلى ما
في هذه السورة. هـ.

{ ولا نسائهن } أي: نساء المؤمنات، فلا حجاب عليهن، { ولا ما ملكت أيمائهن } من
العبيد والإماء. وقيل: من الإماء خاصة، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور،
{ واتقين الله } فيما أمرت به من الحجاب، وما نزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن
في ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد، ولذا قال: { إن الله
كان على كل شيء شهيداً } عالماً؛ يعلم خطرات القلوب وهو اجسها، فيعاتب عليها.

الإشارة: ما قيل في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يُقال في نساء المشايخ والعلماء،
فتحتجن من جميع الخلق، إلا من محارمهن، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا
جامد أو جاهل، ولا ينبغي لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرّمها والدخول عليها إلا لفساد
بين. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { إن الله وملائكته يُصلُّون على النبي } يعتنون بإظهار شرفه
وتعظيم شأنه. وقال صاحب المغني: الصواب عندي: أن الصلاة لغة بمعنى واحد، وهو
العطف، ثم العطف بالنسبة إلى الله تعالى: الرحمة، وإلى الملائكة: الاستغفار، وإلى
الآدميين: دعاء. واختاره الشُّهيلي قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايتها، وهو إفاضة
الخير والإحسان، لارقة القلب، الذي هو معنى الرحمة حقيقة. { يا أيها الذين آمنوا صلُّوا
عليه } أي: قولوا: اللهم صلِّ على محمد - أو: صلِّ الله على محمد. { وسلِّموا تسليماً
{ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو: صلِّ وسلم على محمد، أو: انقادوا لأمره
وحكمه، انقياداً كلياً.

وعن كعب بن عُجْرَةَ: قلنا: يا رسول الله، أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف الصلاة
عليك؟ قال: " قولوا اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم،
إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم بارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك
حميدٌ مجيدٌ " ومعرفتهم ألسلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء بالتبع جائزة. وأما
بالاستقلال فمكروه، وهو من شعار الروافض. هـ. قال الكواشي: رُوي أنه قيل يا رسول

الله: رأيت قول الله تعالى: { إن الله وملائكته يُصلُّون على النبي... } الآية؟ فقال: هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتُموني عنه ما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين، فلا أذكر عند عبد مسلم، فيُصلي عليّ، إلا قال ذاك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذيнок الملكين: آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم، فلا يُصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان: لا غفر الله لك. وقال الله جواباً لذيнок الملكين: آمين. هـ.

والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر، وعليه الجمهور، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ دُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليّ دَخَلَ النار " ومنهم من أوجبها في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كتشميت العاطس وآية السجدة، ومنهم من أوجبها مرة في العمر. قالوا: وكذلك الخلاف في إظهار الشهادتين، وأما ذكرها في الصلاة فليست شرطاً عند أبي حنيفة ومالك، خلافاً للشافعي، والاحتياط: الإكثار منها بغير حصر، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال القسطلاني: إنه لم ينقل إلينا ذلك، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع. هـ.

الإشارة: اعلم أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم سُلم ومعراج الوصول إلى الله؛ لأن تكثير الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تُوجب محبته، ومحبته - عليه الصلاة والسلام - توجب محبة الله تعالى، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته، بواسطة وبغيرها. وأيضاً: الرسول صلى الله عليه وسلم وزير مقرب، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير، ويتقرب إليه، حتى يُدخله على الملك. فهو صلى الله عليه وسلم حجاب الله الأعظم، وبابه الأكرم، فمن رام الدخول من غير بابه طرد وأبعد، وفي ذلك يقول ابن وفا:

وأنت بابُ الله، أيّ امرئٍ وفاه من غيرك لا يدخل
وقال الشيخ الجزولي رضي الله عنه في دلائل الخيرات: وهي من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب. وقال شارحه: ووجه أهميتها من وجوه، منها: ما فيها من التوسُّل إلى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى:
{ وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ }
[المائدة: 35]، ولا وسيلة إليه أقرب، ولا أعظم، من رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أن الله تعالى أمر بها، وحصَّنا عليها، وتشريفاً له وتكريماً، وتفضيلاً لجلاله، ووعده من استعملها حُسن المآب، وجزيل الثواب، فهي من أنجح الأعمال، وأرجح الأقوال، وأزكى الأحوال، وأحظى القربات، وأعم البركات، وبها يتوصل إلى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وتجاب الدعوات، ويرتقي إلى أرفع الدرجات. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن وسواس قلبك إلى قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال: نعم يا رب، قال: فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أنه صلى الله عليه وسلم محبوب لله عزّ وجل، عظيم القدر عنده، وقد صلّى عليه وهو وملائكته، فوجبت محبة المحبوب، والتقرب إلى الله تعالى بمحبته، وتعظيمه،

والاشتغال بحقه، والصلاة عليه، والافتداء بصلاته، وصلاة ملائكته، وصلاة ملائكته عليه. قلت: وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السلام، بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكته أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنها: ما ورد في فضلها، ووعدَ عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر، وفوز مستعملها برضا الله، وقضاء حوائج آخرته ودينه.

ومنها: ما فيها من شكر الواسطة في نعم الله علينا المأمور، بشكره، وما من نعمة لله علينا، سابقة ولا لاحقة؛ من نعمة الإيجاد والإمداد، في الدنيا والآخرة، إلا وهو السبب في وصولها إلينا، وإجرائها علينا، فوجب حقه علينا، ووجب علينا في شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها: ما فيها من القيام برسم العبودية، بالرجوع لما يقتضي الأصل نفيه، فهو أبلغ في الامتثال، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على كل عمل. والذي يقتضي الأصل نفيه، هو كون العبد يتقرب إلى الله بالاشتغال بحقه؛ لأن قولنا:

" اللهم صلِّ على محمد " هو الاشتغال بحق محمد صلى الله عليه وسلم، وأصل التبعيدات: ألا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لما كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من الله تعالى، كان الاشتغال بها أبلغ في امتثال الأمر، فهي بمثابة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، فكان شرفهم في امتثال أمر الله، وإهانة إبليس في مخالفة أمره سبحانه.

ومنها: ما جُرب من تأثيرها، والنفع بها في التنوير ورفع الهمة، حتى قيل: إنها تكفي عن الشيخ في الطريق، وتقوم مقامه، حسبما نقله الشيخ السنوسي، والشيخ زروق، وغيرهما.

ومنها: ما فيها من سير الاعتدال، الجامع لكمال العبد وتكميله، ففي الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الله ورسوله، ولا كذلك عكسه، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف، وتُكسب نورانية تحرق الأوصاف، وتثير وهجاً وحرارة في الطباع، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تُذهب وهج الطباع، وتقوي النفوس؛ لأنها كالماء البارد، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت: والحق الذي لا غبار عليه: إن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، والإكثار منها، تدلُّ صاحبها على مَنْ يأخذ بيده، وتوصله إلى شيخ التربية، الذي هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن كان صادق الطلب، وأما كونها تقوم مقام الشيخ في دخول مقام الفناء والبقاء، حتى تعدل حقيقته وشريعته فلا؛ إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بأمر ونهٍ من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن لم يظفر بالشيخ - الفناء في الصفات، وبنال مقام الصلاح الأكبر، ويظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه، وشهدناه، وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذناها منهم، أنهم يأمرؤن المرید إن رآوه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المفرد، ويفنى فيه، حتى تنهدم به عوالمه، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه، رُدَّوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرؤنه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتكون صلاته عليه كاملة، يُصلي على روحه وسره بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما يشاهدونه. وباللَّه التوفيق.

@ { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا }
* { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }
{

يقول الحق جلّ جلاله: { إن الذين يؤذون الله ورسوله } بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصي والبدع. وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود:

{ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ }

[المائدة: 64]،

{ إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ }

[آل عمران: 181] وقالت النصارى:

{ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ }

[التوبة: 30]،

{ إِنَّ اللَّهَ تَالِثٌ لثَلَاثَةٍ }

[المائدة: 73]. وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. وقيل: يؤذونه:

يُلحدون في أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول الله، حين سُجَّ وجهه، وكسرت رباغيته، وقيل له: هو ساحر وشاعر ومجنون. أو: بترك سُنته ومخالفة شريعته. ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسول الله فقط بالتنقيص، أو بالتعريض لنسائه. وذكر اسم الله للتشريف. { لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } أي: أبعدهم من رحمته في الدارين { وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا } يُهينهم ويُخزيهم في النار.

{ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا } بغير جناية يستحقون بها الإيذاء، { فقد احتملوا بهتاناً } كذباً { وإثماً مبيناً } ظاهراً، وإنما أُطلق في إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق، كالحدِّ والتعزير، ومنه باطل. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين، كانوا يؤذون عليّاً رضي الله عنه، ويُسمِعونه، وقيل: في زُناة المدينة، كانوا يمشون في طرق المدينة، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا. وعن الفضيل: لا يحلُّ أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف بالمؤمنين؟ هـ.

الإشارة: إيذاء الله ورسوله هي إيذاء أوليائه، ونقله الثعلبي عن أهل المعاني، فقال: فراد الله تعالى المبالغة في النهي عن أذى أوليائه، فجعل أذاهم أذاه. هـ. وبؤيده الحديث القدسي: " مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَى بَارِزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ "، أو كما سبحانه. وإيذاء

المؤمنين كثيرة، تكون باللسان وبغيره، وقد قالوا: البر لا يؤذي الذر. ومن أركان التصوف: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمي الدنيا بالقفا. وبالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْتَا أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } أي: يُرخين على وجوههنّ من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يُرخين أردبتهن وملاحقهن ويغطين بها وجوههن ورؤوسهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. و { ذَلِكَ أَدْتَى } أي: أقرب وأجدر، { أَنْ يُعْرَفْنَ } من الإماء { فَلَا يُؤْذَيْنَ } وذلك أن النساء في أول الإسلام كن على زيهنّ في الجاهلية متبدلات، تبرز المرأة في درج وخمار، لا فصل بين الحرّة والأمة. وكان الفتيان يتعرّضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهنّ في النخيل والعَيْضَات، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرّضوا للحرّة، يحسبونها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زي الإماء بلباس الجلابيب، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهنّ طامع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدة. قلت: وقد مرّ في سورة النور أن الوجه والكفين ليس بعورة، إلا لخوف الفتنة، وأما الإماء فلا تسترن شيئاً إلا ما بين السرة والركبة، كالرجل. قال أنس: مرّت جارية متقنعة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرّة، وقال: يا لكاع أنت تشبهين بالحرائر، فألق القناع، { وكان الله عفوراً } لما سلف منهن من التفريط، { رحيمًا } بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة: ينبغي لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة؛ بزيادة الصّون والتحفظ، وقلة الخروج، فإذا لزمهنّ الخروج، فليخرجن في لباس خشين، بحيث لا يُعرفن، أو يخرجن ليلاً. وثبت أن زوجة الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم تخرج من دارها إلا خرجتين؛ خرّجة حين رُفت إلى زوجها، وخرّجة إلى المقابر. نفعنا الله ببركاتهم. أمين.

@ { لئن لم ينته المتأفكون والذّين في قلوبهم مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا } * { مَلْعُونِينَ أَيْمًا تُقْفُوا أَوْ أُخْدُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا } * { سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا }

قلت: { لَنُغْرِبَنَّكَ } جواب القسم المغني عن جواب الشرط. و { ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ } عطف عليه؛ لأنه يصح أن يُجاب به القسم؛ لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يُجاورنك، ولَمَّا كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بتم، لُبعد حاله عن حال المعطوف عليه. و { مَلْعُونِينَ } نصب على الشتم أو الحال، والاستثناء دخل على

الطرف والحال معاً، أي: لا يُجاورنك إلا قليلاً في اللعنة والبُعد، ولا يصح نصبه بأخذوا؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جلّ جلاله: { لئن لم ينته المنافقون { عن نفاقهم وإيذائهم، { والذين في قلوبهم مرض { فجور، وهم الزناة من قوله: " فيطمع الذي في قلبه مرض ".
{ والمُرجِفون في المدينة { وهم أناس كانوا يُرجفون بأخبار السوء في المدينة، من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: هُزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: رجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقته؛ لكونه خبراً مزليلاً غير ثابت، من: الرجة، وهي الزلزلة، { لئُغريتنك بهم { لنامرنك بقتالهم وإجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء، أو: لئُسلطنك عليهم، { ثم لا يُجاورونك فيها { في المدينة { إلا { زمناً { قليلاً }.

والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يُلقون من أخبار السوء، لنامرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وألا يُساكنوك فيها إلا زمناً قليلاً، ريثما يرتحلون. فسمي ذلك إغراء، وهو التحريش، على سبيل المجاز. حال كونهم { ملعونين { أي: لا يجاورونك إلا ملعونين، مُبعدين عن الرحمة { أينما تُقفوا { وُجدوا { أخذوا وقتلوا تفتيلاً { والتشديد للتكثير.

{ سُنَّةَ اللَّهِ { أي: سنَّ الله ذلك سُنَّةً { في الذين خَلَوْا من قبل { في المنافقين الذين كانوا يُنافقون الأنبياء من قبل، ويسعون في وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتلوا أينما وُجدوا، { ولن تجد لسنة الله تبديلاً { أي: لا يُبدل الله سُنَّته ولا يقدر أحد أن يبدلها، بل يُجرىها مجرىً واحداً في الأمم كلهم.

قال ابن جزى: تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا، ولم ينقذ الوعيد فيهم. ففي ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد في الآخرة. وقيل: إنهم انتهوا وسترُوا أمرهم؛ فكف عنهم إنفاذ الوعيد. هـ.

الإشارة: منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية، ويدعون محبة القوم، وهم يعترضون على الفقراء، ويرفعون الميزان عليهم، وهم الذين في قلوبهم مرض، أي: حيرة وضيق من غم الحجاب؛ إذ لو ارتفع عنهم الحجاب لم يعترضوا على أحد، وهم المرجفون بأهل النسبة، إذ سمعوا شيئاً يسوؤهم أفسوه، وأظهروا الفرح. لئن لم ينتهوا عن ذلك لئُسلطن الله عليهم مَن يُخرجهم من النسبة بالكلية، ثم لا يكون فيها إلا قليلاً، ممقوتين عند أهل التحقيق، أينما وُجدوا، أخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألف بعض الفقهاء تأليفاً في الرد على الفقراء، فسلط الله عليه من أهانه، ووسمه بالبلادة والجمود، ولا زال مُهاناً أينما ذُكر، والعياذ بالله.

@ { يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } * { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً } * { خَالِدِينَ فِيهَا أَهْدَأَ لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيراً } * { يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا

الرَّسُولَا { * } وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَصَلُّوْنَا السَّبِيلَا { * } رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنَا كَبِيرَا {

يقول الحق جلّ جلاله: { يسألك الناس عن الساعة } كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة، استعجالاً واستهزاءً، واليهود يسألون امتحاناً؛ لأن الله تعالى أخفى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، ثم بيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين فقال: { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ } لم يُطلع عليها ملكاً ولا نبياً. { وما يُدريك لعل الساعة تكون قريباً } أي: شيئاً قريباً، أو: في زمان قريب، فتنصب على الظرفية، ويجوز أن يكون التذكير؛ لأن الساعة في معنى اليوم أو الزمان.

{ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ } أبعدهم عن رحمته، { وأعدّ لهم سعيراً } ناراً شديدة التسعير، أي: الإيقاد، { خالدین فيها أبداً } وهذا يرد مذهب الجهمية في زعمهم أن النار تنفئ، و { خالدین } : حال مقدرة من ضمير " لهم ". { لا يجدون وليّاً } يحفظهم، { ولا نصيراً } يمنعهم ويدفع العذاب عنهم، وذلك { يومَ تُقَلَّبُ } أو: واذكر { يومَ تُقَلَّبُ } وجوههم في النار { تطوف من جهة إلى جهة، كما ترى البيضة من اللحم تدور في القدر إذا غلت. وخصت الوجوه؛ لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو: يكون الوجه كناية عن الجملة. حال كونهم { يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا } في الدنيا، فتنخلص من هذا العذاب، فنذموا حيث لم ينفع الندم.

{ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا } والمراد: رؤساء الكفر، الذين لقنوهم الكفر، وزيتوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب " ساداتنا " بالجمع، جمع: سادة، وسادة: جمع سيد، فهو جمع الجمع، { فأصلونا السبيلا } أي: أتلفونا عن طريق الرشده. يقال: ضلّ السبيل وأضله إياه، وزيادة الألف للإطلاق. { بنا آتهم ضعفين من العذاب } أي: مثلي ما آتينا منه للضلال والإضلال، { والعنهم لعناً كثيراً } كثير العدد، تكثيراً لأعداد اللاعنين، أو: العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عاصم بالباء، أي: لعناً هو أشد اللعن وأعظمه. وهو يدل على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة: مذهب العباد والزهاد والصالحين: جعل الساعة تُصب أعينهم، لا يغيبون عنها، فهم يجتهدون في التأهب لها ليلاً ونهاراً. ومذهب العارفين الموحدين: الغيبة عنها، بالاستغراق في شهود الحق، فلا يشغلهم الحق، دنيا ولا آخرة، ولا جنة ولا نار؛ لما دخلوا جنة المعارف، غابوا عن كل شيء، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكون، وجعلوا الوجود وجوداً واحداً؛ إذ المتجلي هنا وئيم واحد. وإذا كان كبراء الضلال يُضاعف عذابهم، وكان كبراء الهداية يُضاعف ثوابهم، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد، فمن دلّ على هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة، ومن اهتدى على يديه أحد جرى عليه أجره، وكان في ميزانه كل من تبعه كذلك، وفي ذلك يقول القائل:

والمرء في ميزانه اتباؤه فاقدر إذن قدر النبي محمد

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا } * { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } * { يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى { من بني إسرائيل { فبراه الله مما قالوا } وذلك أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى عليه السلام يستتر لشدة حيائه، فقالوا: ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه أدر - والأدرة: انتفاخ الأنثيين - أو: به عيب من برص أو غيره، فذهب يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فلجّ في أثره يقول: توبي حَجْر، توبي حجر! حتى نظروا إلى سواته، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً، ثلاثاً أو أربعاً.

وقيل: كان أذاهم: ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال عليّ رضي الله عنه: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته. وكان أشدّ لنا حُباً، وألين منك، فأذوه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته، حتى مرت به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بمماته، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرأ الله موسى من ذلك، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرَّحْم من الطير، وإن الله جعله أصم أبكم، وقيل: إنه على سرير في كهف الجبل. وقيل: إن قارون استأجر امرأة مومسة، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملاء، فعصمها الله، وبرأ موسى، وأهلك قارون. وقد تقدّم.

{ وكان عند الله وجيهاً } ذا جاه ومنزلة رفيعة، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش " وكان عبداً لله وجيهاً ".

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله } في ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذي رسوله، { وقولوا قولا سديداً } صدقا وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق والقول بالعدل. والمراد: نهيم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول. والحثّ على أن يُسددوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير، ولذلك قال: { يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } أي: يوفقكم لصالح الأعمال، أو: يقبل طاعتكم، وبشيبكم عليها، { ويغفر لكم ذنوبكم } أي: يمحوها.

والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة؛ من تقبل حسناتكم، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررة للتي قبلها، فدلت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان، ليرادف عليها النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى الله الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه.

ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله: { ومن يطع الله ورسوله } في الأوامر والنواهي { فقد فاز فوزاً عظيماً } يعيش في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً. جعلنا الله منهم، آمين.

الإشارة: في الآية تسلية لمن أودى من الأولياء بالتأسي بالأنبياء. روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب احبس عليّ السنة الناس، فقال له: هذا شيء لم أصنعه لنفسي، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزير: إن لم تطب نفساً بأن أجعلك علماً في أفواه الماضغين، لم أثبتك عندي من المتواضعين. هـ.

واعلم أن تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم هو سبب السعادة والفوز الكبير، وتعظيم أولياء الله وخدمتهم هو سبب الوصول إلى الله العلي الكبير، وتقوى الله أساس الطريق، وحفظ اللسان وتحري القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق. قال الشيخ زروق رضي الله عنه في بعض وصاياه - بعد كلام -: ولكن قد تصعب التقوى على النفس؛ لاتساع أمرها، فتوجه لترك العظائم والقواعد المقدور عليها، تُعْنَى على ما بعدها، وأعظم ذلك معصية: الغيبة قولاً وسماعاً، فإنها خفيفة على النفوس؛ لإلفها، مستسهلة؛ لاعتيادها، مع أنها صاعقة الدين، وافة المذنبين، من اتقاها أفلح في بقية أمره، ومن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال الله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم... } الآية، فجعل صلاح العمل متوقفاً على سداد القول، وكذلك ورد: أن الجوارح تُصبح تشتكى اللسان، وتقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخي لسانك، وخصوصاً في هذه الخصلة، فتورع فيها أكثر ما تورع في مأكلك ومشربك، فإذا فعلت طابت حياتك، وكفيت الشواغب، ظاهراً وباطناً. هـ.

فإذا تحققت بالتقوى، وحصنت لسانك بالقول السديد، كنت أهلاً لحمل الأمانة.

@ { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } * { لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } {

يقول الحق جلّ جلاله: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ } الأمانة هنا هي التوحيد في الباطن، والقيام بوظائف الدين في الظاهر، من الأوامر والنواهي، فالإيمان أمانة الباطن، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر، فمن قام بهاتين الخصلتين كان أميناً، وإلا كان خائناً. والمعنى: إِنَّا عَرَضْنَا هَذِهِ الْأَمَانَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَجْرَامِ الْعِظَامِ، وَلَهَا الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، إِنْ أَحْسَنْتَ الْقِيَامَ بِهَا، وَالْعِقَابَ الْأَلِيمَ إِنْ خَانَتْ، فَأَبَتْ وَأَشْفَقَتْ وَاسْتَعْفَتْ مِنْهَا، مَخَافَةَ أَنْ تَقْدَرَ عَلَيْهَا، فَطَلَبْتَ السَّلَامَةَ، وَلَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ. وهذا معنى قوله: { فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا } فيحتمل أن يكون الإباء بإدراك، خلقه الله فيها، وقيل: أحيها وأعقلها، كقوله: { أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } [فصلت: 11] ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: وقد يقال: الأمانة هي ما أخذ عليهم من عهد التوحيد في الغيب بعد الإشهاد لربوبيته، وينظر لذلك قوله: " لن يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن " وأما حملها على التكليف فلا يختص بالأدمي؛ لأن

الجن أيضاً مكلف، ومناسبة الآية لِمَا قبلها: أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها. هـ.

وقيل: لم يقع عَرَضُ حَقِيقَةٍ، وإنما المقصود: تعظيم شأن الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء. والمعنى: أنها لعظمة شأنها لو عُرِضت على هذه الأجرام العظام، وكانت ذا شعور وإدراك، لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، مع ضعف بنيته، ورخاوة قوته، لا جرم، فإن الراعي لها، والقائم بحقوقها، بخير الدارين. هـ. قاله البيضاوي. والمراد بالإبابة: الاستعفاء، لا الاستكبار، أي: أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

{ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } أي: آدم. قيل: فما تمَّ له يوم من تحملها حتى وقع في أمر الشجرة، وقيل: جنس الإنسان، وهذا يناسب حمل الأمانة على العهد الذي أخذ على الأرواح في عالم الغيب. { إنه كان ظلوماً جهولاً } حيث تعرض لهذا الخطر الكبير، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل، وكان صالحاً أميناً عدولاً، وإن خانها ولم يقم بها، كان ظلوماً جهولاً، كل على قدر خيانتته وظلمه، فالكفار خانوا أصل الأمانة، وهي الإيمان فكفروا، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهي أو ترك الطاعة، فبعضهم أشد، وبعضهم أهون، وكل واحد عقوبته على قدر خيانتته.

ثم علل عرضها، وهو: لتقوم الحجة على عباده، فقال: { لِيُعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } حيث لم يقوموا بها، وخانوا فيها، فتقوم الحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحداً. وقال أبو حيان: اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء: اللام متعلق بحملها، وحينئذ تكون للعاقبة قطعاً. { ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات } حيث حملوا الأمانة، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط، قال تعالى:

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ {

[عبس: 23] وقال:

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ {

[الزمر: 67] ولذلك قال: { وكان الله غفوراً رحيماً } فالغفران لمن لَحِقَهُ تفريط وتقصير، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل: أن العذاب لمن تحملها أولاً، ولم يقم بحقها ثانياً. والغفران لمن تحملها وقام بحقها، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال هي شهود أسرار الربوبية في الباطن، والقيام بآداب العبودية في الظاهر، أو تقول: هي إشراق أسرار الحقائق في الباطن، والقيام بالشرائع في الظاهر، مع الاعتدال، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع، ولا الشرائع على الحقائق، فلا يغلب السُّكْرُ على الصحو، ولا الصحو على السُّكْر. وهذا السر خاص بالآدمي؛ لأنه اجتمع فيه الضدان؛ اللطافة والكثافة، النور والظلمة، المعنى والحس، القدرة والحكمة، فهو سماوي أرضي، رُوحاني بشري، معنوي وحسي. ولذلك خصَّه الله تعالى من بين سائر الأكوان بقوله:

{ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } {

[ص: 75] أي: بيد القدرة والحكمة، فكان جامعاً للضدين، ملكياً ملكوتياً، حسه حكمة، ومعناه قدرة: وليست هذه المزية لغيره من الكائنات، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهَيَمان، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأسرار.

وهذا السر الذي حُصَّ به الآدمي هو كامن فيه، من حيث هو، كان كافراً أو مؤمناً، كما كُمِّن الزبد في اللبن، فلا يظهر إلا بعد الترتيب والضرب والمخض، وإلا بقي فيه كامناً، وكذلك الإنسان، السر فيه كامن، وهو نور الولاية الكبرى، فإذا آمن ووَجَّد الله تعالى، واهتز بذكر الله، وضرب قلبه باسم الجلالة، ظهر سره، إن وجد شيخاً يُخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.

وله مثال آخر، وهو أن كمون السر فيه ككمون الحَب في الغصون قبل ظهوره، فإذا نزل المطر، وضربت الرياح أغصان الأشجار، أزهرت الأغصان وأثمرت، وإليه أشار في المباحث الأصلية، حيث قال:

وهي من النفوس في كُمون كما يكون الحَب في الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود وانسكب الماء ولان العود
وجال في أغصانها الرياح فعندها يرتقب اللقاح
ثم قال:

فهذه فواكه المعارف لم تشر بالتأيد أو بالطارف
ما نالها ذو العين والفلوس وإنما تُباع بالنفوس
فلا يظهر هذا السر الكامن في الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه، وهي المجاهدة
والمكابدة، وقتل النفوس، بخرق عوائدها، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية، والخمرة
الأزلية، على يد الأشياخ، الذين أهداهم الله لسقي هذا الماء، وتجول في أغصان عوالمه
رياح الواردات، وينحط مع أهل الفن، حتى يسري فيه أنوارهم، ويتأدَّب بأدابهم، فحينئذ
ينتظر لقاح السر فيه، ويجني ثمار معارفه، وإلا بقي السر أبداً كامناً فيه. وباللغة التوفيق،
وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.